شرح كتاب

تجريد التوحيد المفيد

لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي

المتوفى عام ٨٤٥ من الهجرة

رحمه الله

شرحه فضيلة الشيخ

صالح بن سعد السحيمي

حفظه الله

نسخة كتاب تجريد التَّوحيد المعتمدة في الشرح بتحقيق الشيخ علي حسن الحلبي

زيادة على ذلك فهي مقابلة على نسختين مخطوطتين، ونسختين مطبوعتين

اعتنى به

سالم بن محمد الجزائري

[٠٥ أشرطة مفرغة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بين يديّ الكتاب

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على رسوله الكريم، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهٰذه الدروس ألقاها فضيلة الشيخ صالح بن سعد السحيمي، وهي عبارة عن شرح لكتاب تجريد التوحيد المفيد للمقريزي – رحمه الله – واعتمد فيها على النسخة التي حققها الشيخ علي حسن الحلبي.

وقد فرغتُ الأشرطة، محاولا أن يكون هٰذا التفريغ حرفيا وهو يتميز بـ:

- شكل الآيات وعَزْوِهَا.
- تخريج الأحاديث النبوية. ومنهجي فيها: نقل تخريجات الشيخ علي حسن للأحاديث التي في المتن، وأما أحاديث الشرح فما كان في الصحيحين أو أحدهما فاكتفيت بذلك، وإن لم يكن فأخرجه من السنن وأذيله بحكم الشيخ الألباني وإن لم يكن فأجتهد في تخريجه من مصادره.
- شكل ما يُشْكِل.
- مقابلة نص المتن على مخطوطين نفيسين، وثلاث نسخ مطبوعة؛ والإشارة لكل الاختلافات الموجودة.
  - اعتمد في الأصل على النسخة التي حققها الشيخ علي حسن عبد الحميد، وهي طبعة دار الشهاب الجزائر سنة ١٩٨٧م.
  - المخطوط الأول رمزت له بالرمز: [أ].
  - المخطوط الثاني رمزت له بالرمز: [ب].
  - النسخة الأولى المطبوعة وهي ضمن رسائل المقريزي، دراسة وتحقيق رمضان البدري وأحمد مصطفى قاسم، طبعة دار الحديث بالقاهرة، الطبعة الأولى (١٤١٩هـ-١٩٩٨م) ورمزت لها بالرمز: [ر].
  - النسخة الثانية تحقيق الدكتور أحمد السايح والدكتور السيد الجميلي، مركز النشر القاهرة، ورمزت لها بالرمز: [سج]

- والملاحظ أن المقريزي نقل كثيرا من كتاب مدارج السالكين لابن القيم، فقد قابلت نقوله على النسخة التي حققها الشيخ محمد حامد الفقي دار ابن الهيثم ولعله يكون فيها تصحيفا وتغييرا. ولننتبه أني لم أتعقب كل الاختلافات بل بعضها فقط التي أشكلت.
- الاحتفاظ ببعض تعليقات الشيخ علي حسن الحلبي وهي المذيلة بـ: [ع].

نسأل الله عز وجل أن ينفع بها مؤلفها وشارحها والمعتني بها والمستفيد منها وكل من ساهم في نشرها ونشر العقيدة السَّلفية الصحيحة بمنه وكرمه، آمين.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد

سالم بن محمد الجزائري

ربيع الأول ١٤٢٨هـ

صور من المخطوطات

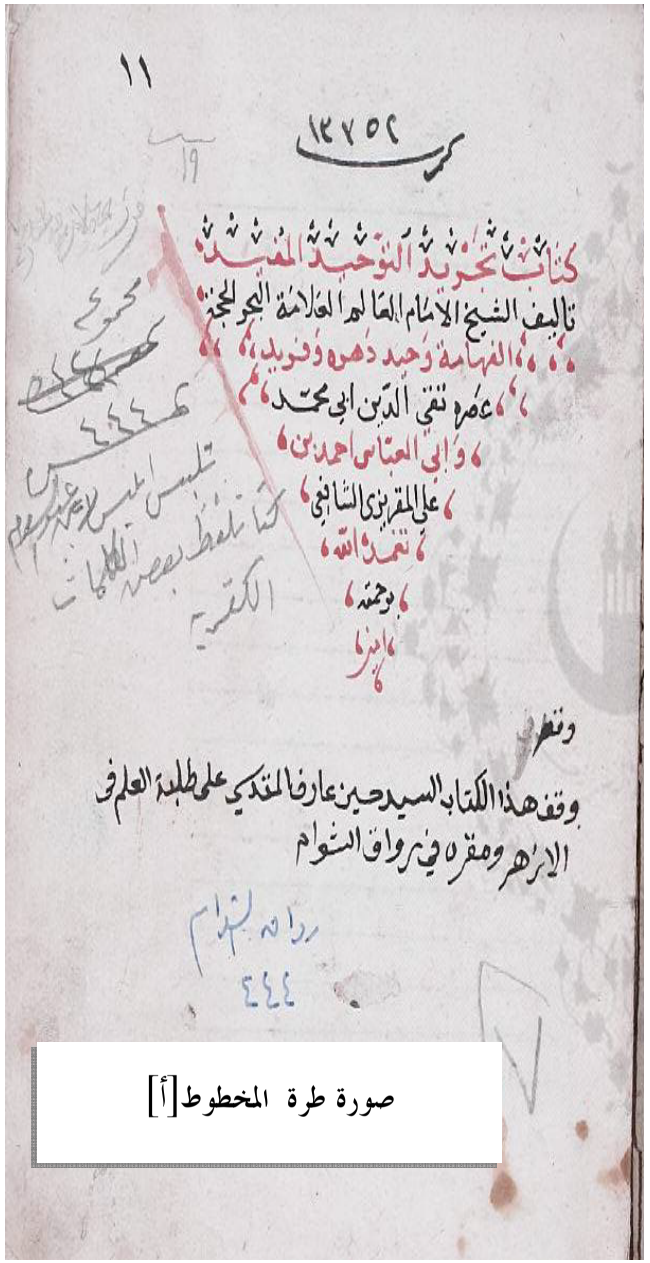

كتاب تجريد التوحيد المفيد
تأليف الشيخ الإمام العالم العلامة الحبر الجهبذ
الفهامة وحيد دهره وفريد عصره
تقي الدين أبي محمد أحمد بن
علي المقريزي الشافعي
رحمه الله تعالى آمين

وقف هذا الكتاب السيد حسن عارف الفندي على طلبة العلم
الأزهر ومقره في رواق الشوام

صورة طرة المخطوط [أ]

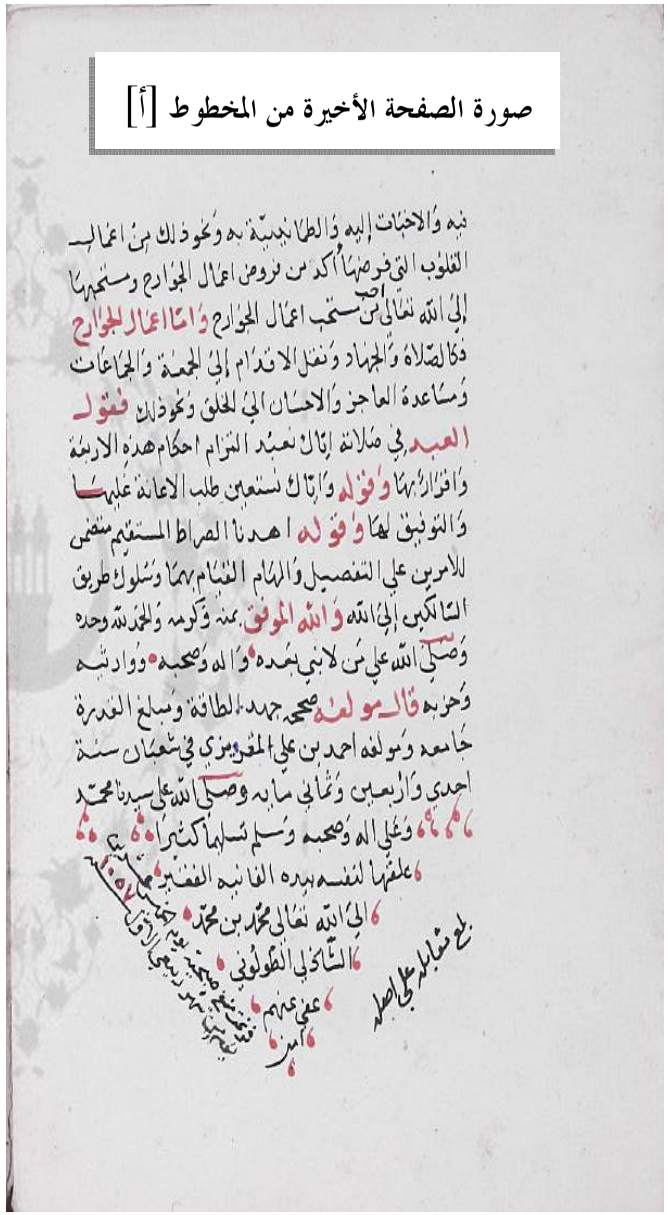

صورة الصفحة الأخيرة من المخطوط [أ]

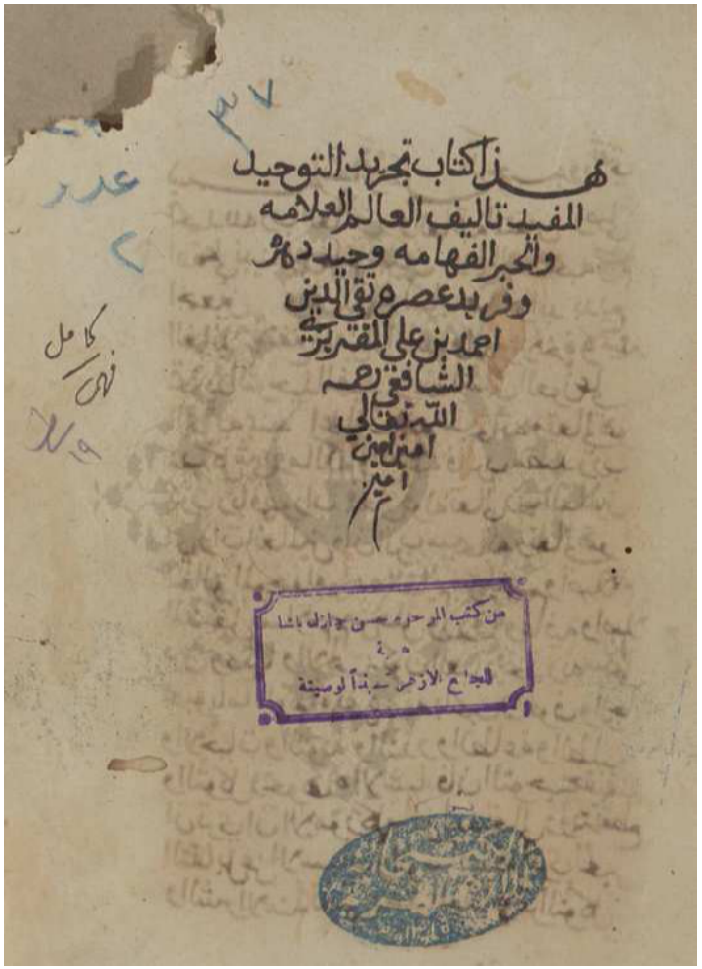

صورة طرة المخطوط [ب]

صورة الصفحة الأخيرة من المخطوط [ب]

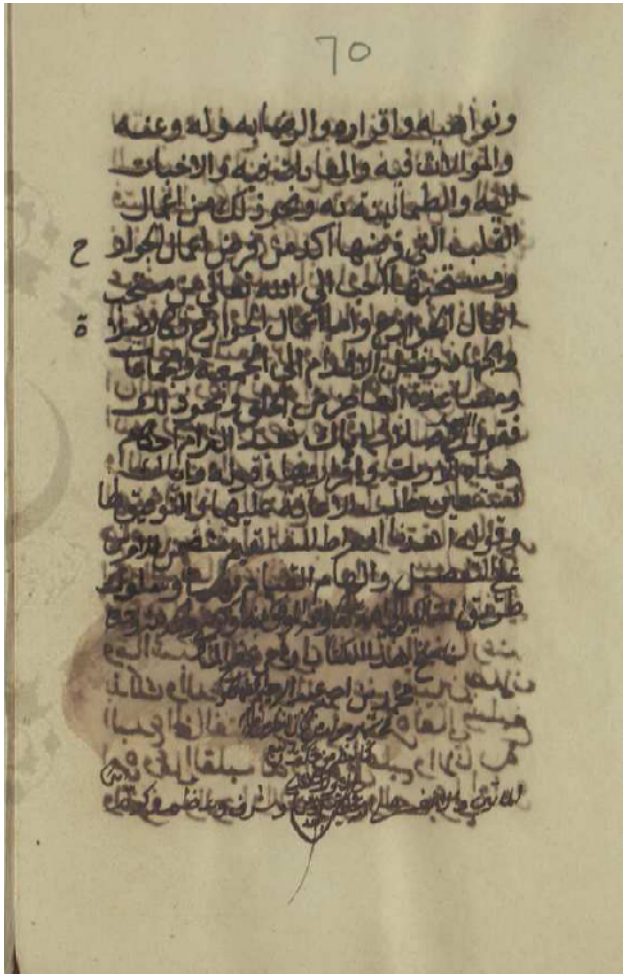

ترجمة المصنف

- هو تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن تميم بن عبد الصمد البعلبكي الأصل المصري المولد والوفاة المقريزي[١] الحنفي ثم الشافعي، ونسبه يرفع إلى علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.[٢]
- ولد في القاهرة سنة ٧٦٦هـ، ونشأ بها.
- ولي الحسبة والخطابة والإمامة في القاهرة مرات.
- دخل دمشق وعرض عليه قضاؤها فأبى ثم عاد إلى مصر.
- له تآليف كثيرة،[٣] منها:
  - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط الآثار.
  - السلوك في معرفة دول الملوك.
  - إمتاع الأسماع بما للرسول – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – من الأبناء والحفدة والمتاع. وهو في (١٥) جزءا.
  - وطبعت مجموعة من رسائله في مع بعضها وهي:
    - التنازع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم.
    - تجريد التوحيد المفيد وهو كتابنا هٰذا.[٤]
    - البيان والإعراب عمن في أرض مصر من قبائل الأعراب.
    - النقود القديمة الإسلامية.
    - رسالة في فضل أهل البيت على من عداهم رَضِيَ اللهُ عَنْهُم.
    - رسالة المقاصد السنية في معرفة الأجسام المعدنية (ههنا يبدو لنا المقريزي كعالم كيمياء بحت).
    - رسالة عن الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام.

---

(١) نسبة إلى حارة المقارزة من حارات بعلبك إذ أصله منها.[ع]

(٢) النجوم الزاهرة (٢٢٦/١٥) لابن تغري.

(٣) زادت على مائتي مجلد كبار.

(٤) وقد نسبه له السخاوي وعصريّه ابن تغري بردي وحاجي خليفة، وغيرهم.

- رسالة قصيرة عن حرص النفوس على بقاء الذكر.
- حسن الخاتمة.
- رسالة عن حل لغز الماء.
- نحل عبر النحل.

• كانت وفاته في يوم الخميس سادس عشر شهر رمضان من سنة ٨٤٥هـ.

۞۞۞۞

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المجلس الأول

مقدمة الشارح

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ باللهِ مِنْ شرور أَنْفُسِنَا وسَيئاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَه.

وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَـــهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَـــثَّ مِنْهُمَـــا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[النساء:١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِـــرْ لَكُـــمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعدُ:

فإنّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكلَّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار. أما بعد،

أيها الإخوة أُحبّ أن أقدِّم بين يدي هـــٰذا الكتاب الذي سنشرع فيه إن شاء الله –وهو كتـــاب ((تجريد التوحيد المفيد)) للمقريزي – رحمه الله – المتوفى سنة أربع وخمسين وثمانمائة للهجرة– أحب أن أبين لكم من باب التذكير –وإلا فهو معلوم لديكم– أهمية البدء دائمـــا في الـــدعوة بالثوابـــت والأسس التي لا تصلح الدّعوة إلا إذا بُنيت عليها، ولا تستقيم إلا إذا انطلقت منها، ألا وهي توحيد الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وأية دعوة لا تنطلق من هـــٰذا الأســـاس فإنها دعوة فاشلة لا محالة، ولذلك نجد أنّ رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مكث في مكة ثلاث عشرة سنة وهو يرسخ هـــٰذه القاعدة ويعمّق هـــٰذا الأساس، يدعو الناس إليه، ويثبتـــه في نفـــوس المؤمنين، ولذلك غالب الآيات المكّية إنما كانت تتحدّث عن التوحيد، وقلّ أن تتعـــرض للأحكـــام التفصيلية الأخرى؛ لأن هـــٰذا هو الأساس الذي يبتنى عليه البيت:

وَالبَيــــتُ لا يُبــــتَنى إلاّ لَــــهُ عَمَــــدٌ وَلا عِمــــادَ إذا لَــــم تُــــرسَ أَوتــــادُ[١]

ولذلك يقول الله – عزّ وجل –: ﴿**أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّــنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىَ شَفَا جُرُفٍ هَــارٍ فَانْهَــارَ بِــهِ فِــي نَــارِ جَهَــنَّمَ وَاللّــهُ لاَ يَهْــدِي الْقَــوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩)**﴾[التوبة:١٠٩]، ولذا نجد النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – دائما وأبدا هو يبدأ بهــٰذا الأساس، وإذا وجه دعاته وجههم إلى البدء بهــٰذا الأساس، ففي الصحيحين من حديث عبد الله بن عباس – رَضِيَ اللهُ عَنْهُما – قال: لما بعث معاذا إلى اليمن قال له: «**إنك تأتي قوما من أهل كتــاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إلــٰه إلا الله** –وفي رواية: «**إلى أن يوحِّدوا الله**»[٢]– **فإن هم أطاعوك لذلك فأخبرهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة..**»[٣] إلى آخر الحديث.

وكل الدعاة والمصلحين من عهد رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الذين ينــهجون منــهج السلف الصالح وإلى يومنا هــٰذا إنما يبنون دعوتهم على هــٰذا الأساس، وأية دعوة لا تنطلــق مــن هــٰذا الأساس فإن الفشل مكتوب عليها لا محالة، وقد جرّبنا وجرّب المسلمون في مختلف العصور.

الذين يريدون أن يبدؤوا بغير هــٰذا المنهج فإنّ الدعوة لا تستقيم، ولا تستمر، ولو استمرّت فترة فإنّها لا تبقى؛ لأنها لم تُبن على الأساس السليم الذي أُمرنا ببناء دعوتنا عليه.

لذلك – أيها الإخوة – فإنه يجب علينا أن نبدأ دعوتنا دائما من هــٰذا المنطلق، ولــو اعتــرض المعترضون، ولو تكلّم المتكلمون.

قد يقول قائل: أنتم تهتمون بهــٰذه الأمور، والمسلمون يحاصَرون في كل مكان، ويداهمهم العــدو في كل مكان، ونحن جالسون هنا نتكلم عن التوحيد والشرك ونواقض الإسلام.. وما إلى ذلك، فما الذي حققناه للإسلام؟

---

(١) وهو لأبي الأسود الدؤلي توفي سنة ٦٩هـــ.

(٢) **البخاري**: كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أمته إلى توحيد الله – تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ–، حديث رقم (٧٣٧٢).

(٣) **البخاري**: كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، حديث رقم (١٤٥٨).

مسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، حديث رقم (١٩).

أقول: إنه ما تمكّن أعداء الإسلام من المسلمين وما حاصروهم هـٰذا الحصار وما تكالبوا عليهم هـٰذا التكالب إلا لما تخلوا عن هـٰذا المبدأ، لما تخلوا عن هـٰذا الأساس، وأرادوا أن يبنوا في الهواء ويتزلوا إلى أسفل، هنا فشلت دعوتهم، ولما تخلوا عن هـٰذا الأساس صاروا شيعا وأحزابا وطُرقا متباينة وأحزابا متعددة، والله - تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ- يقول: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ**﴾[الأنعام:١٥٩]، ويقول- تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ-: ﴿**وَأَنَّ هَٰذا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾[الأنعام:١٥٣]، ويقول- تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ-: ﴿**وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ**﴾[آل عمران:١٠٣]، والآيات كثيرة في هـٰذا الباب، فهـٰذا هو الأساس المتين والركن الركين الذي يجب البدء به، مهما اعترض المعترضون أو خالف المخالفون.

هـٰذا هو المنهج الذي به قامت السمٰوات والأرض، هـٰذا هو المنهج الذي بدأ به رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وهـٰذا هو المنهج الذي بدأ به الأئمة في القرون المفضلة التي قال فيها رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»[1] هـٰذا هو الذي بدأ به الدعاة الذين يسيرون على منهج أهل السنة والجماعة إلى يومنا هـٰذا، وهـٰذا الذي ربانا عليه علماؤنا ومشايخنا حفظهم الله ووفقهم، ونشؤونا على هـٰذا المنهج، وهـٰذا هو المنهج الذي قامت عليه هـٰذه البلاد وتوحدت عليه منذ أن قام الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله بالتعاون مع الإمام العظيم محمد بن سعود رحمه الله تَعَالىٰ اللذان عقدا العزم على بناء الدولة على هـٰذا المنهج العظيم -منهج أهل السنة والجماعة- والذي ما زلنا نتفيأ ظلاله -ولله الحمد- إلى يومنا هٰذا، ونسأل الله له الثبات.

إذن علينا أن ننظر في سيرة السلف الصالح وبما بدؤوا به وبما اهتموا أولا، وإلى ما دعوا أولا، فإذا ما رسخت عقيدة التوحيد في النفوس أخذنا الإسلام كله كاملا، لا نأخذ جانب ونهمل جانبا آخر، لا نهتم بجانب لأنه يتفق مع بعض المقتضيات أو مع بعض الظروف ونترك بقية الجوانب؟ لا؛ الإسلام وحدة لا تتجزأ؛ لكن يُبدأ بأساسها وبركنها الرّكين وبأساسها المتين.

---

(١) **البخاري**: كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، حديث رقم: (٢٦٥١) .

مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، حديث رقم: (٢٥٣٥).

لكن بلفظ (خير الناس).

هـٰذه كلمة أحببت أن أقدمها بين يدي دروسنا التي نسأل الله - تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ- أن ينفعني وإياكم بها، والحق أنني لم آتِ لأزيدكم علما إلى علمكم ولكنها كلمة أرجو أن يكتبها الله في حسناتي وحسناتكم، وأن يجعلها خالصة لوجهه، ونتعاون فيها على البر والتقوى.

وإلى الكتاب الذي هو ((تجريد التوحيد المفيد)) للمقريزي - رحمه الله -، مع بعض تعليقات عليه لأخينا الشيخ علي بن حسن بن عبد الحميد وفقه الله.

[المتن]

نبذة مفيدة في بيان صفاء العقيدة[1]

قال المصنف رحمه الله تَعَالىٰ في كتابه الخطط (٢/٣٥٦):

اعلم أن الله تَعَالىٰ لما بعث من العرب نبيه محمّدا - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رسولا إلى الناس جميعا، وصف لهم ربَّهم - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- بما وصف به نفسَه الكريمة في كتابه العزيز الذي نَزَلَ به على قلبه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الروحُ الأمين وبما أوحى إليه ربُّه تَعَالىٰ.

فلم يسأله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أحد من العرب بأسرهم قرويَّهم وبدويَّهم عن معنى شيء من ذلك كما كانوا يسألونه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عن أحوال القيامة والجنة والنار، إذ لو سأله إنسان منهم عن شيء من الصفات الإلـٰهية لنُقل كما نقلت الأحاديث الواردة عنه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في أحكام الحلال والحرام، وفي الترغيب والترهيب، وأحوال القيامة والملاحم والفتن.. ونحو ذلك مما تضمنته كتب الحديث: معاجمها ومسانيدها وجوامعها.

ومن أمعن النظر في دواوين الحديث النبوي ووقف على الآثار السلفية علم أنه لم يَرِدْ قط من طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة - رَضِيَ اللهُ عَنْهُم - على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم أنه سأل رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عن معنى شيء مما وصف الرب سبحانه به

([1]) وهي في باب الأسماء والصفات، وقد أغفل المصنف في هٰذا الكتاب الذي بين يديك -أخي القارئ- ذكره إلا لماما، فأحببت أن أقدّم هٰذه النُّبذة من كتابه المذكور أعلاه، فيكون هٰذا الكتاب -على صغر حجمه- جامعا لمسائل كثيرة في العقيدة، وبالله التوفيق. [ع]

نفسه الكريمة في القرآن الكريم، وعلى لسان نبيه محمد – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؛ بل كلهم فهموا معنى ذلك وسكتوا عن الكلام في الصفات.[1]

[الشرح]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

هـٰذا المقطع نقله المحقق وفقه الله الشيخ علي بن حسن بن عبد الحميد في مقدمة تحقيقه لكتاب تجريد التوحيد للمقريزي، وهو ليس موجودا في صلب هـٰذا الكتاب، وقد نقله لسبب أشار إليه وهو أن المصنف – رحمه الله – ركّز في كل الكتاب الذي بين أيدينا أو في جله بالأحرى على توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، ولم يتعرّض لتوحيد الأسماء والصفات إلا قليلا، وذلك لئلا يظن أحد أنه لم يفهم هـٰذا التوحيد أو هـٰذا الصنف من التوحيد، وإنما أورد ذلك من كتابه الخطط المسمى بـ«المواعظ والاعتبار» الذي هو كتاب تاريخي ومواعظ، فنقل منه هـٰذه المقدِّمة أو هـٰذه الجملة العظيمة عن توحيد الأسماء والصفات، مما يدل على أن المصنف – رحمه الله – اهتم بهـٰذا النوع من التوحيد.

وتقسيم التوحيد إلى توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات هو تقسيم استقرائي، ثبت عن جمع من السلف من قديم الزمان، ولم ينفرد به كما يدّعي المدعون شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – ومن جاء بعده مثل الشيخ محمد بن عبد الوهاب أو غيرهم من علماء الأمة، وإنما اهتمّ به من كان قبله في القرون الأولى، فقد نُقل عن بعض السلف ما يشير إلى هـٰذا التقسيم، وعلى أية حال هو تقسيم استقرائي، تقسيم لبيان أن التوحيد توحيد شامل، وليس معنى ذلك أننا نقسّم التوحيد إلى أجزاء يمكن أن ينفصل بعضها عن بعض أو ينفكّ بعضها عن بعض؛ بل هي أقسام متلازمة لا ينفك أحدها عن الآخر، فتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، وتوحيد الألوهية يتضمن كلا من توحيد الأسماء والصفات وتوحيد الربوبية؛ لذلك هي حلْقة لا تنفصل، وبعضها يبين بعضا، ولا يمكن أن يكون المقصود هو التجزئة كما قد يغمز بعض أعداء المنهج السلفي أهل السنة والجماعة

---

(1) وذلك لوضوحها في نفوسهم، وجلائها في عقولهم، فلم يتكلّفوا السؤال عنها، إذْ فهموها وفق ما تقتضيه اللغة العربية من معان صريحة دونما تمثيل أو تجسيم لله سبحانه بخلقه. [ع]

بأنهم جعلوا التوحيد ثلاثة أنواع، وجعلوا تلك الأنواع أنواعا متفرقة لا علاقة لكل منها بالآخر، لم يقل هذا أحد من السلف، وإنما هذا افتراء افتراه المفترون وروّجه المروِّجون، والحق أن التوحيد بأنواعه الثلاثة وحدة متكاملة، لا ينفكّ أحد منها عن الآخر.

توحيد الربوبية وهو الإيمان بأن الله ربّ كل شيء ومليكه وخالقه ورازقه والمتصرف فيه.

وتوحيد الألوهية وهو توحيد الله بأفعال العباد كالصوم والصلاة والنذر والحج إلى آخره.

وتوحيد الأسماء والصفات وهو الإيمان بما ورد في الكتاب والسنة المطهرة من أسماء الله الحسنى والصفات العلى من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل على حسب قوله تَعَالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ (١١)﴾[الشورى:١١].

ثم إن الصراع كما أشار المصنف – رحمه الله – الذي كان قائما بين المشركين وبين المؤمنين إنما كان في توحيد الألوهية وفي البعث وما إلى ذلك؛ لأن توحيد الأسماء والصفات ما كان محل نزاع يوما من الأيام، اللهم إلا ما جاء على قلة مثل افتراق سهيل بن عمرو على كتابة بسم الله الرحمن الرحيم وقوله: إنا لا نعلم رحمانا إلا رحمان اليمامة. فنزل القرآن يكذبه: ﴿قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى﴾[الإسراء:١١٠]، وقوله تَعَالىٰ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَـنِ قُلْ هُوَ رَبِّي﴾[الرعد:٣٠].

إذن هذا هو السبب أن الأسماء والصفات كونها لم تذكر، أو كون السلف في بداية الأمر لاسيما الصحابة والتابعين ما تعرضوا لها كثيرا كما تعرضوا لبقية أمور التوحيد إنما ذلك راجع إلى أنه لم يوجد منازع إلا في القرن الثاني الهجري واستفحل في بداية القرن الثالث الهجري في عهد المعتزلة.

والواجب على المسلم في باب الأسماء والصفات –ما دمنا بصدد الكلام عنها– أن يثبت لله ما أثبت لنفسه وما أثبته له رسوله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – من الأسماء الحسنى والصفات العلى، من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، والميزان في ذلك قوله – تَعَالىٰ–: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ (١١)﴾[الشورى:١١]، وبالمثال –كما يقال– يتّضح الحال، إذا قال الله– تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ–: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥)﴾[طه:٥]، أو قال تَعَالىٰ: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[الفتح:١٠]، أو قال تَعَالىٰ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[المائدة:٦٤]، أو قال تَعَالىٰ: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ (٢٧)﴾[الرحمن:٢٧]، فإنّ موقفنا من أمثال هذه الصفات يتمثّل في

خمسة أمور لابد من تصوِّرها في أي صفة وصف الله بها نفسه أو وصفه بها رسوله – صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ –، وإذا طبّقناها على واحدة من الصفات فيجب أن تُطبق وتنسحب على سائر الصفات.

ولنأخذ مثلا صفة الاستواء لكثرة النزاع فيها، هـٰذه الخطوات الخمس:

الخطوة الأولى الإيمان بهـٰذه الصفة كما جاءت في القرآن والسنة.

الأمر الثاني الإيمان بمعناها وأن لها معنى، لا نؤمن بها مجردة من المعاني كما تدَّعيه المعتزلة أو الجهمية قبلها.

الخطوة الثالثة الإيمان بأن هـٰذا المعنى معنى لائق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ.

الأمر الرابع: الإيمان به على وجه لا يشابه صفات المخلوقين.

الأمر الخامس تفويض علم الكيفية إلى الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ–، الكيفية موجودة، لكن المقصود تفويض علم الكيفية، ولذلك يقول السلف: أمرُّوها كما جاءت بلا كيف؛ أي بلا ادعاء لعلمِ الكيفية، ليس المقصود أنها لا تكيف، هي لها كيفية لا يعلمها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ.

إذا راعينا هـٰذه الأمور الخمسة سلمنا من أي لازم قد يحاول المؤولة والمعطلة إلزامنا به.

فمثلا نأخذ الاستواء، نؤمن بالاستواء لأنه جاء في القرآن والسنة.

ثانيا، نؤمن بأن الاستواء هـٰذا له معنى؛ علا واستقر وصعد.

ثالثا، نؤمن بأنه استواء يليق بجلال الله وعظمته.

رابعا، نؤمن بأنه استواء يختلف جملة وتفصيلا عن استواء المخلوق على كرسيه أو عرشه أو سيارته أو دابته، فكما أنّ لله ذاتا لا تشبه الذوات كذلك له صفات لا تشبه الصفات.

خامسا، تفويض علم الكيفية إلى الله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ–، وهـٰذا المعنى هو الذي ذكره الإمام مالك بن أنس – رحمه الله تَعَالىٰ– عندما سأله المبتدع فأجابه إجابته المشهورة التي يحفظها ولله الحمد من كان في الصف الرابع أو الخامس عندنا في الابتدائي: الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه –أي عن الكيفية– بدعة.

هـٰذا هو موقف المسلم إجمالا في باب الإثبات.

أما في باب النفي فلابد من ملاحظة أربعة أمور:

الأمر الأول: نفي ما نفى الله عن نفسه أو نفاه عنه رسوله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، ﴿**وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨)**﴾[ق:٣٨]، ﴿**لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ**﴾[البقرة:٢٥٥]، ﴿**لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ**﴾[الأنعام:١٠٣]، إلى آخره، فالنصوص كثيرة في هٰذا الباب.

ثانيا: تنزيه الله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ– عن جميع صفات النقائص والعيوب.

ثالثا: أن الله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ– لا يوصف بالنفي المحض، ومعنى النفي المحض أي النفي الذي لا يتضمّن كمالا؛ لأنّ بعض النفي لا قيمة له، إمّا لكونه لا يتضمّن كمالا أو لكون الشيء غير قابل للنفي أو الإثبات أصلا أو لأية علة أخرى، المهم أنّ هٰذا النفي لابد أن يتضمن كمالا، فنفي السِّنة والنوم يتضمن كمال الحياة والقيومية، ونفي اللغوب يتضمن كمال القدرة، وهكذا دواليك.

فإذن لابد أن يتضمن النفي إثبات كمال ضده، إثبات اتصاف الله بكمال ضد هٰذا الأمر، فإذا نفينا عنه السنة والنوم استلزم الحياة والقيومية، إذا نفينا عنه اللغوب استلزم كمال القدرة، وعدم العجز والتعب، إذا نفينا عنه أنه لا يحيط أحد بشيء من علمه استلزم كمال العلم ﴿**لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ**﴾[سبإ:٣] استلزم كمال علمه – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ–، وهكذا دواليك في كل ما نفى الله عن نفسه؛ لأن النفي المحض النفي الذي لا يتضمّن كمالا، ومنه ما إذا كان المنفي لا يفيد شيئا أصلا أو أن ذلك المنفي عنه لا يتضمن كمالا أو غير قابل لما نُفي عنه، كما لو قيل الجدار لا يظلم، هٰذا النفي عبث لأن الجدار أصلا غير قادر للظلم والعدل حتى يوصف بأنه لا يظلم، ومن النفي المحض الذي يكون نتيجة للعجز أو عدم كمال قول الشاعر[1]:

قَبِيِّلَةٌ لاَ يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ وَلاَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ

ماذا يقصد هٰذا الشاعر بهٰذا النفي؟ هل يقصد أن يمدحهم أنهم لا يظلمون الناس وأنهم لا يغدرون؟ هل هٰذا هو مراده؟ كلا، مراده أنهم جبناء أنهم لا يستطيعون، أنهم عاجزون ومنه قول ذي الأصبع العدواني:

لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد ليسوا من الشر في شيء وإن هانا

أيضا التعبير عن هٰذا النفي لا يقصد به إثبات كمال الضد إنما يتضمن إثبات العجز والجبن، فيريد أن يصفهم بالجبن.

---

(١) قيس بن عمرو بن مالك النجاشي الحارثي المتوفي سنة ٤٩هـ.

نعود إلى القاعدة وهي أن الله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ – لا يوصف بالنفي المحض، ومعنى النفي المحض النفي الخالص، أي النفي الذي لا يتضمّن كمالا، وهو ما فعلته المعتزلة كما قد نتطرق إليه في مناسبات أخرى، كل ما نفوا عن الله سلب، لا موجود ولا معدوم، ولا متصل ولا منفصل، ولا داخل العالَم ولا خارج العالَم، ولا يسمع ولا يبصر، ولا يقدر ولا يعمل، إذن النتيجة العدم.

إذن المقصود هنا أن الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– لا يوصف بالنفي المحض أبدا، وإنما يوصف بالنفي الذي يتضمن كمالا، وأي نفي لا يتضمن كمالا لا يوصف الله به، وهـٰذا يتطلّب نفي جميع صفات النقائص والعيوب.

الأمر الرابع أنّ أكثر ما جاء في الكتاب والسنة هو النّفي المجمل، وبالمقابل الإثبات المفصّل، وقد يأتي ما يخرج عن هـٰذه القاعدة؛ لكن هـٰذه القاعدة صحيحة بالجملة أنظر لقوله تَعَالىٰ: ﴿**هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)**﴾[مريم:٦٥]، ﴿**وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)**﴾[الإخلاص:٠٤]، ونحو ذلك؛ ﴿**فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً**﴾[البقرة:٢٢]، كل ذلك نفي مجمل، وقلّ أن يأتي نفي مفصّل كما في قوله تَعَالىٰ: ﴿**لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣)**﴾[الإخلاص:٠٣].

وبالعكس أكثر ما جاء في القرآن الإثبات المفصّل أنظر إلى أواخر سورة الحشر وأوائل سورة الحديد ﴿**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤)**﴾[الحشر:٢٢-٢٤]، وفي كثير من الآيات ﴿**هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾، ﴿**وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾، ﴿**وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾، ﴿**وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ**﴾، ﴿**وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾.. ونحو ذلك، أكثر ما جاء في القرآن الإثبات المفصل، وقلّ أن يأتي الإثبات المجمل كما في قوله تَعَالىٰ: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)**﴾[الإخلاص:٠١]، هـٰذا إثبات مجمل يتضمن إثبات وحدانية الله في جميع شؤونه – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– في صفاته وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

إذن نعود مرة أخرى ونقول: إن صفات النفي في باب الأسماء والصفات لابد من ملاحظة أربعة أمور:

الأمر الأول: نفي ما نفى الله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ– عن نفسه وما نفاه عنه رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الأمر الثاني: تنزيه الله عن جميع النقائص والعيوب، أي نفي جميع صفات النقائص والعيوب عن الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ–، قد تكون صفة كمال بالنسبة للإنسان لكنها صفة عيب بالنسبة للخالق – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ–، مثلا الإنجاب والولد والوالد هي للمخلوق صفة كمال لكن لأنها أصلا ناتجة عن تعويض عن نقص موجود في الإنسان؛ لكن لو وصف بها الله لكانت صفة نقص؛ لأنها تخالف الوحدانية.

الأمر الثالث: أن الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– لا يوصف بالنفي المحض، وهو النفي الذي لا يتضمن كمالا، وقد ضربنا لكم بعض أمثلة ما يخالف هـٰذا التمثيل.

الأمر الرابع: أنه قد جاء في القرآن بالجملة النفي المجمل والإثبات المفصّل، مع أنه قد يأتي إثبات مجمل على قلة ونفي مفصّل على قلة.

هـٰذا هو موقف المسلم في باب الأسماء والصفات، وأما ما سكت الله عنه وسكت عنه رسوله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فالواجب علينا السكوت عنه وعدم الخوض فيه لقول النبي– صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحدّ حدودا فلا تعتدوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها**»[1] ومنها مهما تصوّرت من الصفات غير ما ورد في الكتاب والسنة لا ينبغي أن تصف به الله ولو تصورت أنت أنها صفة كمال؛ ولكن يمكن أن يدخل تحت القاعدة العامة أن كل صفة كمال لا يعتريها نقص ولا تحتمل النقص بأي وجه من الوجوه فالله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ– أولى بها، وهـٰذا هو الذي يسمونه قياس الأوْلى، وغيره من الأقيسة لا يستخدم في باب الأسماء والصفات.

علىٰكلٍّ هناك أمور محتملة قد أطلقها الناس ربما تأتي عرضا فما هو موقفنا منها؟ لعلها تأتي عرضا – إن شاء الله – في أثناء الدروس؛ ولكن هـٰذا هو الموقف الذي يجب أن يقفه المسلم إجمالا في باب الأسماء والصفات، في باب الإثبات وفي باب النفي، وفي باب ما سكت الله عنه وسكت عنه رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

([1]) وهو الحديث الثلاثون من الأربعين النووية، قال النووي: حديث حسن رواه الدارقطني وغيره، وهو في رياض الصالحين برقم (١٨٤١)، وقال الشيخ علي حسن في تعليقه عليه: ضعيف بهـٰذا اللفظ كما قال شيخنا في غاية المرام، ولكن ورد له لفظ آخر وهو «**ما أحل الله في كتبه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئا**» وانظر غاية المرام (٢) و(٣).

وبهٰذه المناسبة ربما نذكر قائمة من الكتب التي اهتمت بهٰذا الأمر وهي معلومة لديكم، لكن من باب التذكير في آخر درسنا إن شاء الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ.

هـٰذا ما يتعلق بهـٰذه المقدمة.

[المتن]

نعم، ولا فرَّق أحد منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل، وإنما أثبتوا له تَعَالىٰ صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والإرادة والسّمع والبصر والكلام والجلال والإكرام والجود والإنعام والعزة والعظمة، وساقوا الكلام سوقا واحدا.

وهكذا أثبتوا -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم- ما أطلقه الله - سبحانه - على نفسه الكريمة من الوجه واليد ونحو ذلك مع نفي مماثلة المخلوقين، فأثبتوا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بلا تشبيه ونزّهوا من غير تعطيل.

ولم يتعرّض مع ذلك أحد إلى تأويل شيء من هٰذا ورأوا -بأجمعهم- إجراء الصفات كما وردت، ولم يكن عند أحد منهم ما يستدل به على وحدانية الله - تَعَالىٰ - وعلى إثبات نبوة محمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سوى كتاب الله، ولا عرف أحد منهم شيئا من الطرق الكلامية ولا مسائل الفلسفة، فمضى عصر الصحابة - رَضِيَ اللهُ عَنْهُم - على هٰذا إلى أن حدث في زمنهم القولَ بالقدر وأن الأمر أُنُف أي: أن الله تَعَالىٰ لم يقدر على خلقه شيئا مما هم عليه.

[الشرح]

هـٰذا بقية لما تكلمنا عنه وبعضه قد أشرنا إليه، وهو ما يتعلق بموقف المسلم من هـٰذه الصفات وهو الإثبات مع التنزيه وعدم التشبيه، وما يتعلق بذلك.

وقول المصنف- رحمه الله -: إن السلف ولاسيما الصحابة ما كانوا يتساءلون عن هـٰذه الأمور. لأنهم لم يختلفوا فيها أصلا؛ بل إن الأعرابي عندما سمع النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يذكر أن الله - تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ- يضحك، ما زاد على أن قال: لا نعدم خيرا من ربٍّ يضحك.[1] ولم ينكر لأنه يعلم

([1]) وجاء في: **مسند أحمد** (بتحقيق أحمد شاكر وحمزة الزين): برقم (١٦١٣١)، **سنن ابن ماجه**: كتاب المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، حديث رقم (١٨١). عن أبي رزين قال قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ضحك ربنا من قنوط عباده وقرب غيره**)) قال: يضحك الرب عز وجل؟ قال: ((**نعم**))، قال: لن نعدم من رب يضحك خيرا.

=

أن ضحكه ليس كضحك المخلوقين، واستواؤه ليس كاستواء المخلوقين، وفرحه ليس كفرح المخلوقين، وكل هٰذه تختلف جملة وتفصيلا، كما أنه لا تشابه بين ذات المخلوق وذات الخالق، فكذلك لا تشابه بين صفات المخلوق وصفات الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ.

وما أشار إليه المصنف هنا – رحمه الله – من قضية صفات الذات وصفات الفعل، هٰذه المسألة صحيح أن السلف قد تطرقوا لها؛ لكن مضطرين، تجد شيخ الإسلام وغيره يتكلمون عن تقسيم الصفات إلى صفات ذاتية وصفات فعلية، والصفات الذاتية هي الملازمة للذات والقائمة بها، والصفات الفعلية هي المتعلقة بالمشيئة والإرادة والتي يفعلها الله متى شاء إذا شاء كيف شاء كالفرح والضحك والمجيء والنزول وما إلى ذلك، والصفات الذاتية كالوجه واليدين والعلم والقدرة وما إلى ذلك من سائر الصفات، وهٰذا التقسيم اضطر له السلف عندما وُجد الانحراف في باب الأسماء والصفات من باب الرد على تقسيمات المعتزلة والجهمية والأشعرية والماتريدية والكلابية وغيرهم ممن أوّل أو عطل أو شبه في باب الأسماء والصفات؛ لذلك يعني موقف المسلم من ذلك هو ما أشرنا إليه، أو ما بيناه قبل قليل في باب الإثبات وفي باب النفي.

وهٰذا التقسيم على منهج السلف لا غبار عليه، وإن كان المصنف – رحمه الله – هنا أشار إلى انتقاده؛ ما كانوا يعرفون، نعم الصحابة ما كانوا يعرفون؛ يعني ما كانوا يهتمون به أصلا وأنهم لو سئلوا هٰذه الصفات تدل على فعل الله وأنه يفعلها متى شاء إذا شاء كيف شاء، وتلك الصفات من الصفات الذاتية القائمة بالله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– لما اعترضوا على هٰذا، لكنهم ما كانوا بحاجة إليه؛ لأنه لم يوجد من يخالف في هٰذه العقيدة، لم يوجد أحد؛ بل إن ابن عباس – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – عندما سمع رجلا ارتعدت فرائسه لما سمع آيات في الصفات فقال: ما فرط هٰؤلاء يجدون رقّة عند محكمه ويهتفون عند متشابهه. ولعل ابن عباس يعني بالتشابه تشابه الكيفية، وإلاّ فالحق أن الأسماء والصفات ليست من المتشابه؛ بل هي من المحكم، نعم كيفيتها من المتشابه؛ العلم بالكيفية من المتشابه

=

حسنه شيخ الإسلام ابن تيمية في **العقيدة الواسطية**. وأيضا جاء في **زاد المعاد** في (قدوم وفد بني المنتفق على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) (٥٢/٣) وفيه طول، وقال عقبه: هٰذا حديث كبير جليل، تنادي جلالته وفخامته وعظمته على أنه قد خرج من مشكاة النبوة.

وأورده **الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة** برقم (٢٨١٠) وقال: والخلاصة أن الحديث بمجموع الطريقين حسن عندي، وتعقب ابن القيم أنه لم يعرج على الكلام على أحد من رواته المجهولين، وبمثل ذاك الكلام الخَطابي لا تصحيح الأحاديث.

الذي استأثر الله بعلمه، وأما إثبات الصفات على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته والإيمان بمعانيها، والإيمان بأنها لا تشابه صفات المخلوقين، هـٰذا أمر مقرّر في الفطر والعقول المستقيمة المستنيرة.

لذلك ما تجد أحد منهم من يقول: إن الله سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، قوي بلا قوة، رضي بلا رضا، عليم بلا علم، حكيم بلا حكمة. ما تجد شيئا من هـٰذا حتى يضطروا إلى الكتابة أو التأليف في هـٰذا الأمر؛ لكن السلف عندما وجدوا أهل الكلام قد ضيّعوا الأمة في هـٰذا الباب اضطروا أن يؤلفوا؛ بل أن يقارعوهم أحيانا بنفس الحجج الفلسفية والمنطقية التي هم لا يؤمنون إلا بها من باب الاضطرار.

ولذلك نرى الناس الذين على فِطَرِهم الذين لم تتدنس أفكارهم بعلم الكلام والمنطق، كانوا يستغربون لو قال أحد: عليم بلا علم، بصير بلا بصر؛ ولذلك نقل صاحب كتاب ((جلاء العينين)) -للألوسي رحمه الله- في محاكمة الأحمدين -أحمد بن حجر الهيتمي بالتاء صاحب الصواعق المحرقة وصاحب الزّواجر، وأحمد بن عبد الحليم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله- وقد أنصف في هـٰذه المحاكمة على أنها تحتاج إلى زيادة تحقيق، فأورد الألوسي رحمه الله في كتابه ((جلاء العينين)) أبياتا نقلها عن أعرابي يقال: إنه جاء فسمع جهما ابن صفوان يقرر: أن الله سميع بلا سمع بصير بلا بصر قوي بلا قوة عزيز بلا عزة. إلخ، فذُهل الأعرابي فوقف وأعطاه هـٰذه الأبيات قال له:

ألا إن جهما كافر بان كفره ... ومن قال يوماً قول جهم فقد كفر
لقد جُن جهم إذ يسمى إلهه ... سميعاً بلا سمع بصيراً بلا بصر
عليماً بلا علم رضيّاً بلا رضا ... لطيفاً بلا لطف خبيراً بلا خبر
أيرضيك لو قال يا جهم قائل ... أبوك امرؤ حر خطير بلا خطر
مليح بلا ملح بهي بلا بها ... طويل بلا طول يخالفه القصر
حليم بلا حلم وفيّ بلا وفا ... فبالعقل موصوف وبالجهل مشتهر
جواد بلا جود قوي بلا قوى ... كبير بلا كبر صغير بلا صغر
مدحا تراه أم هجاء وسبة ... وهزءا كفاك الله يا أحمق البشر
فإنك شيطان بُعثت لأمة ... تصيرهم عمّا قريب إلى سقر

ارجعوا إلى هـٰذه الأبيات في كتاب ((جلاء العينين)) أظن صفحة ١٢٨ أو ١٣٠، فالشاهد من هـٰذا -أيها الإخوة- قد يقول قائل -قبل أن ننتقل إلى صلب الكتاب-: ألم تنته الجهمية والمعتزلة وغيرهم من المؤولة والذين يدندنون دائما حول هـٰذه الأمور؟ نقول: لا لم تنته، نعم، قد تكون الجهمية الغلاة الأولى لا يكاد لها وجود إلا بعض عقائدهم وليست كلها.

أما المعتزلة ومن تفرع عنهم فهم موجودون إلى يومنا هـٰذا، والكتب التي تدرس في سائر كتب التوحيد التي يسمونها علم الكلام ويعنون به التوحيد كلهم يدرس على هـٰذا المنهج في أكثر بلاد الدنيا إلا هـٰذه البلاد -ولله الحمد والمنة-، أكثر بلاد الدنيا في المشرق في المغرب في الشام في مصر؛ في أي مكان ما يدرسون إلا الجوهرة وشروح ((السنوسية الكبرى)) و((أم البراهين الكبرى)) و((أم البراهين الصغرى)).. وغير ذلك.

بل لقد وُجد مؤول في كتابٍ ألفه قبل عشر سنوات وسلك مسلكا غريبا يقرر مذهب السلف من حيث التقعيد ثم يطبق عليه منهج الخلف، فتجده يقول: إن القول في الصفات كالقول في الذات، والقول في بعض الصفات كالقول في بعضها الآخر، والله تَعَالىٰ يوصف بصفات الكمال إلى آخره، ثم يأتي ويطبق على ذلك التأويل تأويلات المعتزلة والأشعرية والماتريدية والكلابية، وهٰذا الكتاب سماه ((هـٰذه عقيدة السلف والخلف))، وعلى أية حال هـٰذه العقائد تدرس إلى يومنا هـٰذا؛ بل في غير هٰذه البلاد يُرى أنها هي التوحيد، ولا يرى توحيد غيرها، لذلك ما نستغرب عندما يقال تشتغلون بالقشور. هٰذه ليست قشورا، هـٰذا هو اللب، هـٰذا هو الأساس، هـٰذا هو الذي إذا صح صحت سائر الأعمال، وإذا فسد ففساد غيرها من باب أولى وأحرى، نسأل الله العافية والسلامة.

يقول المؤلف رحمه الله تَعَالىٰ:

[المتن]

بسم الله الرحمـٰن الرحيم [وهو حسبي] [١]

الحمد لله ربِّ العالمين، والعاقبة للمتقين، وصلى الله علىٰ [سيدنا][٢] **نبينا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه [وسلم]**[٣] **أجمعين..**

---

(١) زيادة من المخطوط [أ] وفي المخطوط [ب]: وبه ثقتي.. وزيد بخط مغاير (والمصطفى وسيلتي) وهو من تصرف النسّاخ.

(٢) زيادة من نسخة [ر].

(٣) زيادة من المخطوط [ب]، وهي بخط مغاير.

أما بعد،[١] فهٰذا كتاب جمّ الفوائد بديع الفرائد، ينتفع به من أراد الله والدّار الآخرة.. [و][٢]سميته: [كتاب][٣] ((تجريد التوحيد المفيد))، والله أسأل العون على العمل [به][٤] بمنه.

[الشرح]

لا نستغرب كون المصنف رحمه الله يصف هـٰذا الكتاب بهـٰذا الوصف، فهو جدير والله بهـٰذا الوصف، وأحيانا قد يتطلب الأمر أو الموقف من الشخص أن يبين ميزة عمله، حتى عمله هو وكتابه ونحو ذلك، فقد قال يوسف – عليه السلام –: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥)﴾[يوسف:٥٥]، بل نصّ أهل العلم على أنّ من اختص بعلم لا يعلمه غيره وجب عليه أن يقوم ويبين للناس أن عنده خبرة بهـٰذا العلم ولا يكتمه، ويتعين عليه حتى ولو لم يطلب، ومن عنده شهادة وتوقف عليها الأمر وجب عليه أن يدلي بها.

[المتن]

اعلم أن الله – سُبْحَانَهُ [وَتَعَالىٰ][٥]– [هو][٦] رب كل شيء ومالكه وإلـٰهُهُ:

فالرب مصدر ربَّ يرَبُّ ربّاً فهو رابٌّ[٧]: فمعنى قوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الفاتحة:٠١]، [أي][٨] رابِّ العالمين، فإنّ الرب – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– هو الخالق الموجد لعباده، القائم بتربيتهم وإصلاحهم، المتكفِّل بصلاحهم من خَلقٍ ورزقٍ وعافية وإصلاح دين ودنيا.

والإلـٰهية[٩] كون العباد يتخذونه – سبحانه – محبوباً مألوهاً ويُفردونه بالحب والخوف والرجاء والإخبات والتوبة والنذر والطاعة والطلب والتوكل، ونحو هٰذه الأشياء.

---

(١) في المخطوط [أ] و[ب] والنسخة [ر]: **وبعد**.

(٢) زيادة من المخطوط [ب].

(٣) زيادة من المخطوط [أ] والنسخة [ر].

(٤) زيادة من المخطوط [أ] و[ب] والنسخة [ر].

(٥) زيادة من المخطوط [ب] والنسخة [ر].

(٦) زيادة من المخطوط [ب] والنسخة [سج].

(٧) في النسخة [سج]: **ربّ**.

(٨) زيادة من المخطوط [ب].

(٩) في النسخة [سج]: **والألوهية**.

فإنّ التوحيد حقيقته أن ترى الأمور كلها من الله – تعالى – رؤية تَقْطع الالتفات[١] إلى الأسباب والوسائط، فلا ترى الخير والشر إلا منه – تعالى –، وهٰذا المقام يُثمر التوكل وترك شكاية الخلقِ، وترك لومهم، والرضى عن الله [تعالى][٢] والتسليم لحكمه.

[الشرح]

تحدث المصنف – رحمه الله تَعَالىٰ– في البداية عن بيان معنى الربوبية والألوهية، فبين – رحمه الله – اشتقاق الرب وأنه من (**ربَّ يرَبُّ ربّاً فهو رابٌّ**) وهو الذي خلق فأوجد، ورزق، وربى جميع العالمين بنعمته، والذي أوجدهم من العدم. إذن هو ربهم.

وكلمة الرب تطلق لغة حتى على غير لفظ الجلالة – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– وهي بمعنى صاحب، إذا جاءت بهٰذا المعنى فهي بمعنى صاحب؛ لكن إذا أطلقت إطلاقا عاما، فلا تطلق إلا على الله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ– فهو الرب الذي ربى جميع العالمين بنعمه، وهو المتفضل عليهم بالخلق والرزق والإحياء والإماتة والإكرام والإنعام، وما إلى ذلك من سائر أفضاله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– على عباده.

وإذا علمنا أنه هو الرب المتفضل، فهٰذا يتطلب تحقيق الأمر الذي خلقنا الله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ– له، وهو العبودية والألوهية.

والإلٰه من أله يأله وهو المحبة، أله الشيء يألهه؛ أي أحبه ورغب فيه، وبلغت محبته في قلبه أعلى درجات الرُّتب، ولذلك فالله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ– هو الإله أي المعبود، ولذلك قال تَعَالىٰ: ﴿**وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤)**﴾[الزخرف:٨٤]، أي هو المعبود في السماء وهو المعبود في الأرض، وليس المقصود أنه موجود في السماء وموجود في الأرض، كما قد يفسره الذين يقصرون التوحيد على توحيد الربوبية، فالمعنى ﴿**وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَٰهٌ**﴾ أي هو الذي يُعبد في السماء وهو الذي يعبد في الأرض، وبين معنى ذلك بشكل أكبر، وهو أنّ الإنسان يتعلق بجميع حوائجه بالله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ– فيقطع الالتفات عن أي أمر إلا إلى الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– ، طبعا هٰذا ولا يعني عدم عمل الأسباب المشروعة المباحة؛ لأن تركها معصية؛ وإنما المقصود ترك الاعتماد على الأسباب، إنما يؤخذ بالأسباب مع التوكل على الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– والاعتماد عليه وقطع العلائق والوسائط فيما بينك وبينه، هٰذا هو المراد، إذن لا

---

(١) في المخطوط [أ]: **اِلْتِفَاتك**. وفي المخطوط [ب]: **التقابل عن**. (دون: **إلى**).

(٢) غير موجودة في المخطوط [أ] و[ب] والنسخة [ر].

يفهم أحد أن المصنف هنا يعني ما يفعله بعض الصوفية وهو أنهم يفسّرون التوكل هو أن تتكفّف الناس وأن تقعد لأن تكون أنت الطاعم الكاسي، لا وإنما المراد بذلك هو الأخذ بالأسباب المشروعة مع الاعتماد على الله وقطع العلائق من الاعتماد على تلك الأسباب المجردة، فإنّ هٰذه أسباب يرتب الله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ– عليها مسببات معينة قد يعني تتحقق وقد لا تتحقق؛ ولكن الله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ– اقتضت حكمته أن يرتّب الأسباب على مسبباتها.

والمهم أن نعلم أن المراد هنا هو قطع جميع الصلات القلبية والعملية من الخوف والرجاء والحب والتعظيم والتوكل والإنابة والاستغاثة والاستعانة والاستعاذة والرجاء والنذر والذبح بكل ما يتعلق بذلك من أنواع العبادة إلا لله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– دون سواه.

ولذلك المصنف هنا قعّد قاعدة قبل أن يدخل في تفاصيل هٰذه الأمور التي ركز عليها وهو توحيد الألوهية، فبدأ بتوحيد الربوبية وبيّن أنه ما دام هو الربّ الخالق الموجد من العدم المالك المتصرف، إذن فهو وحده المستحق لأن يعبد ويؤله ويحب ويعظّم ويرجى ويخاف وينذر له ويستغاث به، ويناب إليه وتخلص له العبادة وحده دون سواه.

[المتن]

وإذا عرفت ذلك فاعلم أن الربوبية منه – تعالى – لعباده، والتَّأَلُّهَ من عباده له – سبحانه –، كما أن الرّحمة هي الوِصلة بينهم وبينه عز وجل.

[الشرح]

هنا المصنف –رحمه الله تَعَالىٰ– بين أن الإيمان بأن الله –تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ– هو (الرّبّ الخالق المتصرف) يستلزم أن يعتقد المؤمن أنه هو الإلٰه المعبود الذي لا إلٰه غيره – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ–، لذلك فإن من آمن به ربا لزمه أن يؤمن به إلٰها، ومن آمن بالربوبية وترك الألوهية فقد تناقض؛ لأنه يعبد ويصرف كل شيء أو بعض شيء لغير الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ–، وهٰذا يتناقض مع كونه يعترف به ربا خالقا مالكا متصرفا، ثم يصرف هٰذه الأمور لغيره.

[المتن]

واعلم أن أنفس الأعمال وأجلها قدراً توحيد الله – تعالى –، غير أن التوحيد له قشران[1]:

([1]) لغةً: غلاف الشيء، ولعل المعنى المراد هنا مجازي، بمعنى الحافظ! [ع]

الأول: أن تقول بلسانك: لا إلـٰه إلا الله، ويسمى هٰذا القـول توحيـداً، وهـو منـاقض [للتثليث][١] الذي تعتقده النصارى، وهٰذا التوحيد يصدر أيضاً من المنافق الذي يخـالف سـرُّه جهرَه.

والقشر الثاني: أن لا يكون في القلب مخالفة ولا إنكار لمفهوم هٰذا القول، بل يشتمل القلـب على [اعتقاده][٢] ذلك والتصديق به، وهٰذا هو توحيد عامّة الناس.

ولباب التوحيد أن يرى الأمور كلها لله[٣] – تعالى –، ثم يقطع الالتفاف [إلى][٤] الوسـائط وأن يعبده – سبحانه – عبادة يفرده بها ولا يعبد غيره. [ويخرج عـن هٰـذا التوحيـد اتبـاع الهوى..][٥]

[الشرح]

المصنف – رحمه الله تَعَالىٰ– عبر بهـٰذه العبارة وهي التعبير بالقشر، والتوحيد كله لـب، المعـنى الذي يقصده صحيح؛ وهو أنه قد يوجد من يتلبس أو من يتظاهر بهـٰذا التوحيد وهو لا يحققه عمليا في قلبه، قد يشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمدا رسول الله، ولا يخالف في الظاهر توحيد الله؛ لكنه لا يطبق عمليا أمرا هاما وهو قطع العلائق بغير الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ–، وهـٰذا شأن المنافقين.

وتوحيد عامة الناس الذي أشار إليه بأنهم لا يخالفون؛ لكنهم قد يقعون في بعض الأمور الـتي لا تتفق مع تحقيق التوحيد.

لكن التعبير بالقشر على كل حال قد يكون محل نظر في مثل هٰذا المقام، فالتوحيد كل لا يتجـزأ. وقلت لكم: المصنف يعني بالمعنى الذي يقصد قد يقال: إنه لا غبار على تعبيره بكلمة (القشر) ، وهو أنه قد يتظاهر بالتوحيد من لم يحققه؛ لكن على أية حال فالتوحيد كله قول وعمل واعتقاد، ولذلك عرّف السلف الإيمان بأنه قول باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان.

---

(١) في المخطوط [ب]: **التثليث**.

(٢) في المخطوط [ب] والنسخة[ر]: **اعتقاد**.

(٣) في المخطوط [ب]: **من الله**.

(٤) في المخطوط [ب] والنسخة [ر]: **عن**.

(٥) في المخطوط [أ]: **ويخرج هٰذا التوحيد عن اتباع الهوى**.

وهـٰذه الأمور الثلاثة لا ينفك أحدها عن الآخر، فلو وجد القول وحده فهـٰذا شأن المنافقين، ولو وجد التصديق وحده دون عمل هـٰذا شأن المرجئة، ولو وجد العمل وحده دون توحيد فهـٰذا شأن المشركين الذين قد يعملون بعض الأعمال؛ لكنهم لا يحققون توحيد الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- في نفوسهم.

على أي حال كما قلت لكم: التعبير بكلمة (القشر) على مراد المصنف - رحمه الله تَعَالَىٰ- لا إشكال فيه، لكن الأولى لا شك تجنبها، فالقول بأن في الإسلام قشور وألباب ونحو ذلك، هـٰذه مطية أصبح يمتطيها الآن كثير ممن لا يرى الاهتمام بالتوحيد، فيسمي تحقيق التوحيد قشورا؛ الآن بعض الذين لا يهتمون بالتوحيد الذين يهتمون بالجانب الاقتصادي أو الجانب السياسي أو جانب الزهد والورع أو الجوانب الأخرى التي يكيفونها على حسب مناهجهم المستوردة والدخيلة على الإسلام يرون أن دراسة التوحيد والاهتمام به كلّ هـٰذا من باب القشور؛ لذلك الكلمة مستقبحة وإن كان قصد المصنف - رحمه الله تَعَالَىٰ- غير ما يريدون، قصد المصنف كما أشار المعلِّق هنا أنه الغلاف، لاشك أنه غلاف وحرس وعبارة عن سياج يحمي بقية أمور الإيمان والتوحيد؛ لكن مع هـٰذا فالحقيقة أن التعبير بالقشر مطية يمتطيها من انحرف عن منهج السلف.

[المتن]

فكل من اتبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده، قال [الله][1] تَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ﴾[الجاثية:٢٣].[2]

وإذا تأملت عرفت أن عابد الصنم لم يعبده، [و][3]إنما عبد هواه، وهو ميل نفسه إلى دين آبائه فيتبع ذلك الميل، وميل النفس إلى المألوفات أحد المعاني التي يُعبَّر عنها بالهوى.

[الشرح]

بعد أن ذكر المصنف - رحمه الله تَعَالَىٰ- أن أهم مفهوم لتحقيق التوحيد هو قطع العلائق بغير الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-، وتوثيق الصلة بالله، والاعتماد عليه، وتعليق الرجاء والمحبة به والخوف به - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-، والإخبات إليه والخضوع له.. بعد أن بين ذلك بين أن هناك أمورا تجعل أو تخرج

---

(١) غير موجودة في المخطوط [ب].

(٢) في النسخة [ر]: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ﴾[الفرقان:٤٣].

(٣) غير موجودة في المخطوط [ب] والنسخة [ر].

الإنسان عن هـٰذا التحقيق للتوحيد وأولها اتباع الهوى، فاتباع الهوى من أخطر الأمور التي ذمها الله في كتابه وقد وصف الله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ– المشركين بأنه يتبعون أهواءهم قال تَعَالىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾[الجاثية:٢٣]، وقال تَعَالىٰ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ﴾[النجم:٢٣]، وقال تَعَالىٰ: ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ﴾[القمر:٠٣]، وقال تَعَالىٰ: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[ص:٢٦]، فالهوى هو ميل النفس إلى أمر تحبه وتألفه، كما ضرب المصنف – رحمه الله تَعَالىٰ– مثالا بميل النفوس إلى ما كان عليه الآباء والأجداد ولو كان مخالفا للشرع، بعض الناس قد يتضح له الحق فيغلبه هواه باتباع ما كان عليه آباؤه وأجداده، أنظروا إلى قصة أبي طالب وهو قدم ما قدم من حماية لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذب عنه ودافع عنه إلى أن مات، ومع ذلك هو يعرف أن ما جاء به محمد – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حق وهو القائل:

وَعَرَضتَ ديناً قَد عَلِمتُ بِأَنَّهُ ... مِن خَيرِ أَديانِ البَرِيَّةِ دينا
لَولا المَلامَةُ أَو حِذاري سُبَّةً ... لَوَجَدتَني سَمحاً بِذاكَ مُبينا

ومع هـٰذا لما حضرته الوفاة جاءه رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وعنده بعض المشركين فقال له: «**يا عم**» أنظر إلى شفقته عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ «**يا عم قل: (لا إلـٰه إلا الله) كلمة أحاج بها عند الله**» كان عنده أبو جهل وغيره من المشركين، وهم عندما سمعوا هـٰذه الكلمة من النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لم يقولوا: لا تقلها؛ لأنهم خافوا أنه ربما قالها ولو عنادا لهم ودفاعا عن ابن أخيه؛ لكنهم جاؤوا بطريقة شيطانية خبيثة جدا فقالوا: أترغب عن ملة عبد المطلب، فأعاد النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عليه الكلمة، هـٰذه شاهد على اتباع الهوى، أعاد النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عليه الكلمة «**يا عم قل: (لا إلـٰه إلا الله) كلمة أحاج بها عند الله**»، فأعاد المشركون الكلمة نفسها: أترغب عن ملة عبد المطلب. فأعاد النبي ثالثة فأعادوا عليه ثالثة، فكان آخر كلمة قالها: هو على ملة عبد المطلب، نسأله وإياكم حسن الختام. فقال النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – متأدبا مع ربه: «**لاستغفرن لك ما لم أنه عنك**» فنزلت الآية الكريمة ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤)﴾[التوبة:١١٣-١١٤]، ونزل تسلية للنبي– صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: ﴿إِنَّكَ

﴿لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[القصص:٥٦]، [١] الهوى يعمي صاحبه عن سماع الحق ولو رآه، مثل الشمس لوقلت له: هـٰذه هي الشمس، يقول لك: لا، ليست هـٰذه الشمس؛ لأن الهوى قد يغلب عليه، يغلب عليه تماما فيعميه فيصمه يعرف الحق ويحيد عنه تماما، ولذلك وصف رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أهل البدع بأنهم ليس لأحدهم إلا ما أشرب من هواه، ليس له إلا ما أشرب من هواه، تقول للواحد: الواحد نصف الاثنين. يقول لك: لا، ليس صحيحا، ولذلك أخبر بأنه «**تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه**»[٢] والعياذ بالله، الكلب داء يصيب السباع والكلاب، فيصيبها سعار فإذا عضت أحدا من البشر أصابه نفس الداء وينتهي به إلى الموت ويسمى الكلب ويسمى السُّعار، ولذلك أخبر النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أنهم تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه.

نعم –أيها الإخوة– لو نظرتم إلى أصحاب النِّحل وأصحاب المذاهب الهدَّامة وأصحاب البدع لا يرجعون عن بدعهم؛ لأنها أصلا نابعة من الهوى، وما نبع من الهوى في الغالب لا يتركه الإنسان إلا أن يرحمه الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– ويلطف به، فلو تبين له الدليل يقول لك: لا، الدليل هـٰذا ما أفهمه، أو عندي علماء يفهمون أكثر مما تفهم، أو إن مشايخي يعرفون أكثر مما تعرف. تقول: قال الله وقال رسوله، يقول لك: نعم صحيح، أنا أعترف بأن هـٰذه آية وهـٰذا حديث؛ لكن مفهومك هـٰذا لا أفهمه ولا أستوعبه؛ لأن هواه أعماه وأصم أذنيه عن سماع الحق، لذلك قال القرطبي رحمه الله في تفسير قوله تَعَالىٰ: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾[القصص:٢٧]، قال: قد استدل عامة السلف بهـٰذه الآية على مشروعية الإجارة، خلافا للأصم

([١]) **البخاري**: كتاب مناقب الصحابة، باب قصة أبي طالب، حديث رقم (٣٨٨٤)..

مسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع وهو الغرغرة ونسخ جواز الاستغفار للمشركين والدليل أن من مات على الشرك فهو في أصحاب الجحيم ولا ينقذه من ذلك شيء من الوسائل، حديث رقم (٢٤).

([٢]) **مسند أحمد** (يتحقيق أحمد شاكر حمزة الزين)، حديث رقم (١٦٨٧٦).

سنن أبي داوود: كتاب السنة، باب شرح السنة، حديث رقم (٤٥٩٧)، قال الشيخ اللباني: حسن.

حيث كان عن سماعها أصم.[1] الأصم هو أحد المعتزلة لأنّ هواه يصمه عن الحق يجعله لا يفقهه لأن ما يقرأ من الآيات لا يتجاوز حنجرته، وما يقرأ من الحديث لا يتجاوز حنجرته، وهٰذا شأن المبتدعة وأهل الأهواء في كل عصر وفي كل مصر، لو تأتيه بأدلة أمثال الجبال يقول لك: لا، عندنا علماء يفهمون أكثر مما تفهم، ولذلك صار إما إلى تحريف الآية أو تأويلها أو رد الحديث باعتبارها أحاديث آحاد ونحو ذلك مما يتعلقون به مما هو أوهى من خيط العنكبوت والعياذ بالله.

من هنا يتضح لنا خطورة الهوى، وأكثر من ضل في باب التوحيد إنما ضلوا بسبب الهوى، يقول مقالة ثم تطير وتنتشر وتستشري ويضفي الناس حوله هالة أيضا فينفخونه حتى يخيل إليه أنه أعلم الناس، وهٰذا شأن أهل الأهواء دائما، ما جاء شخص بنحلة إلا وطار بها الناس، ما بين عشية وضحاها تنتشر في مشارق الأرض ومغاربها.

قبل بضعة أشهر ظهر من يقول: لا تترحموا على بعض العلماء، لا تترحموا على ابن حجر، لا تترحموا على النووي، لا تترحموا على ابن الجوزي. بعض العلماء الذين وجد ما وجد عندهم من تأويلات لم يكونوا مؤصِّلين فيها يعني لم يكونوا دعاة لها و لم يبنوا منهجهم عليها أصلا، إنما جاءهم عرضا بحكم تتلمذ على بعض العلماء ونحو ذلك، فما هي إلا بضعة أشهر حتى رأينا شبابا وأطفالا صغارا صبيانا الواحد عمره اثنا عشر سنة يقول: هل يجوز أن نترحم على ابن حجر؟ هل يجوز أن نترحم على النووي؟ هل يجوز أن... تفقه في دين الله هٰذا هو الهوى هٰذا نتيجة الهوى، فينفخ في الشخص حتى الشخص المبتلى بالهوى، إذا وجد من يلتف حوله ويطبل له ينتفخ، حتى يرى نفسه أعلم الناس.

والسلف يقولون: لا يزال الرجل عالما ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل. هٰذا الصنف من الناس يقول منظّرهم: إنه يحمد الله أنه لم يتتلمذ على شيخنا، ويقول: إنه لا يريد أن يضيع

---

(١) قال: الخامسة قوله تَعَالىٰ: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾[القصص:٢٦]، دليل على أن الإجارة كانت عندهم مشروعة معلومة، وكذلك كانت في كل ملة، وهي من ضرورة الخليقة ومصلحة الخلطة بين الناس، خلافا للأصم حيث كان عن سماعها أصم. (ج١٣ ص٢٤٢).

وقته في التتلمذ. نحن ما نقول تتلمذ على طريقة الصوفية أعبد الشيخ أو تعلق به من دون الله؛ لكن نقول لك ما قاله رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**إنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم**».[1]

نحن استطردنا في هٰذا الأمر لأن الهوى من أخطر الأمور، الهوى خطير، هوى النفس وشهوة النفس تعمي الإنسان وتصمه عن سماع الحق وتجعله لا يفقه،

يقضى على المرء أيام محنته ... حتى يرى ما هو حسن ما ليس بحسن

ما عنده استعداد يسمع أصلا، تقول له: اسمع يقول:لا، طيب اقرأ، لا أقرأ، اقرأ الكتاب الفلاني من كتب السلف، اقرأ كتاب السنة للإمام أحمد، اقرأ كتاب السنة لعبد الله بن الإمام أحمد، اقرأ كتاب السنة للبربهاري، اقرأ كتاب أهل السنة والجماعة للالكائي، هٰذه سئمنا منها، يكفينا ما يكتبه فلان وفلان وفلان؛ لأن قلبه قد غلف وطرد عن سماع الحق، ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ**﴾[الجاثية:٢٣]، أُشرب من هواه، ولذلك قال الله - تَعَالىٰ - عن بني إسرائيل: ﴿**وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ**﴾[البقرة:٩٣]، يعني حب العجل يعني صار هو يعلمون أنهم صنعوه من تراب أو من ذهب أو من كذا، وأنه مصنوع هم الذين صنعوه بأيديهم، عبدوا ما صنعوه في لحظات قليلة.

الشاهد يا إخواني أن الأهواء خطيرة جدا، وتنتشر انتشار النار بسرعة مذهلة، لو قام أحدنا وجاب نحلة ما يصبح الصبح إلا وقد اتبعه عشرات، وهٰذا يجعلنا دائما نتثبت من كل ما نسمع، ونحاول ونجتهد في فهم منهج السلف، كيف فهموا الكتاب والسنة وكيف طبقوها وكيف درسوا وكيف تعلموا، وكيف تفقهوا في دين الله، إلى أن خلفوا لنا هٰذا العلم العظيم، وهٰذا المفهوم العظيم الذي يجب على كل مسلم أن يعبد الله على هدي الكتاب والسنة ووفق مفاهيم السلف الصالح دون إفراط ولا تفريط وبدون غلو.

[المتن]

[ويخرج عن هٰذا التوحيد السخط][2] على الخلق والالتفات إليهم، فإنَّ من يرى الكل من الله كيف يسخط على غيره أو [يأمل][3] سواه. وهٰذا التوحيد مقام الصديقين.

---

(١) أورده الشيخ الألباني في **السلسلة الصحيحة** برقم (٣٤٢)، وقال: أخرجه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٧٦/١)، والخطيب في «تاريخه» (١٢٧/٩).

(٢) وفي المخطوط [أ]: **ويخرج هٰذا التوحيد عن السخط.**

(٣) في المخطوط [أ] و[ب]: **يؤمل.**

[الشرح]

السخط على الخلق قد يفضي بالإنسان إلى إنكار القدر والاعتراض على الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ-، فيقول: لو فعلت كذا لما كان لي كذا وكذا، ولو ما فعلت كذا لما كان كذا، ولو ما سافرت إلى المكان الفلاني ما صار علي كذا وكذا، كما قال المنافقون: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾[آل عمران:١٦٨]، قال الله لهم: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾[آل عمران:١٥٤].

إذن القضية التي جعلت السخط على الخلق مما ينافي التوحيد قد يصل إلى منافاة التوحيد أو منافاة كماله على الأقل؛ لأن الذي يسخط على الخلق؛ لأنهم ما أعطوه أو لأنهم منعوه أو يكثر من شكايتهم أو نحو ذلك، قد يفضي به ذلك لأن ذلك قد يفضي به للاعتراض على الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[الزخرف:٣٢]، فالله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ هو مقسم الأرزاق هو الذي شاء أن يكون هـٰذا فقير وهـٰذا غني، وهـٰذا قوي وهـٰذا ضعيف، وهـٰذا مسلم وهـٰذا كافر، وهكذا دواليك.

إذن القضية قضية إيمان وتسليم لقضاء الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ وقدره، وإذعان لأمره، وانقياد لطاعته سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ.

[المتن]

ولا ريب أن توحيد الربوبية لم ينكره المشركون؛ بل أقروا بأنه - سبحانه - وحده خالقهم وخالق السمٰوات والأرض، والقائم بمصالح العالم كلِّه، وإنما أنكروا توحيد الإلـٰهية[1] والمحبة، كما قد حكى الله - تعالى - عنهم في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ﴾[البقرة:١٦٥]. فلمّا سووا غيره به في هٰذا التوحيد كانوا مشركين كما قال الله تَعَالىٰ: ﴿الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ (١)﴾[الأنعام:١]. [أي يسوُّون غيرَه به، وقال [الله][2] تَعَالىٰ: ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠)﴾[الأنعام:١٥٠]][3]

---

(١) في النسخة [سج]: **الألوهية**.

(٢) زيادة من المخطوط [ب].

(٣) زيادة من المخطوط [أ]. وغير موجودة في النسخة [سج].

[الشرح]

هنا عاد المصنف ليبيِّن أن المشركين الأوائل في الجملة أو أغلبهم لم يكونوا ينكرون توحيد الربوبية، وهؤلاء لا يدخل فيهم الدهريون والفرعونية عندما قال فرعون: أنا ربكم الأعلى. مع أنهم يعلمون أنه يكذب قال تَعَالىٰ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[النمل:١٤]، لكن أكثر المشركين الأوائل من لدن نوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ومنذ أن ظهر الشرك في القوم الذين بعث الله فيهم نوحا عليه السلام وإلى يومنا هذا لم يكونوا ينكرون توحيد الربوبية؛ بل يعترفون بأن الله هو ربهم وخالقهم ورازقهم ومالكهم والمتصرف فيهم؛ لكنهم أنكروا أنه إلههم وأنه معبودهم، فصرفوا المحبة لغيره وصرفوا الذبح والنذر والإنابة والاستغاثة والصوم والصلاة وطلب جلب الخير ودفع الضر من غيره، زعما منهم أن ذلك الغير يكون واسطة وشفيعا يقربهم إلى الله زلفى.

ولذلك فإن هناك أمرا ملاحظا وهو أن مشركي الزمان الأول أقرب إلى التوحيد من مشركي هذا الزمان؛ فإن مشركي الزمان الأول لأنهم يعلمون أن الله رب كل شيء ومليكه إذا أصابهم الضر رجعوا إلى الله، فإذا أصابهم الرخاء عادوا إلى عبادة أصنامهم وأوثانهم، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥)﴾[العنكبوت:٦٥]، لكن مشركي هذا الزمان والعياذ بالله في أحنك الظروف ينادي غير الله، في أصعب الظروف يدعو غير الله، تجده إذا ألم به أمر يدعو غير الله، يا حسين، يا بدوي، يا نقشبندي، يا شاذلي، يا جيلاني، يا تيجاني، يا مرغني، يا زيد، يا عمرو، يدعوهم من دون الله؛ بل والله سمعت بأذني هاتين في كثير من البلاد التي زرتها أنه لو عثر أية عثرة ما يذكر ربه أبدا، لو عثر أية عثرة يا سيدي فلان مباشرة، نسي ربه تماما، وهم غفلوا عن هذا أنه من أخطر أنواع الشرك.

ولذلك فإن أكثر الشرك الذي وقع فيه الناس كما ذكر المصنف هنا رحمه الله المقريزي هو الشرك في العبودية الشرك في المحبة، ولذلك أورد المصنف الآية ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ﴾[البقرة:١٦٥]. ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ﴾ يحبونهم كما يحبون الله أو يحبونهم كما يحب المؤمنون الله، هم على قسمين:

يحبون الله ويحبون معه غيره، وهذه المحبة لا قيمة لها لأنها محبة غير خالصة.

أو يحبون أصنامهم كما يحب المؤمنون ربهم، ولذلك قال المفسرون في تفسير ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ﴾ من محبة المشركين لله، أو والذين آمنوا أشد حبا لله من محبة المشركين لشركائهم لمن

يعبدونهم من دون الله. والمعنيان لا تعارض بينهما، فإن المؤمنون أشد حبا لله في كلا الأمرين في كلا الحالين، فهم أشد حبا لله من محبة المشركين لله؛ لأن محبة المشركين لله مشتركة ومحبة المؤمنين لله خالصة، وهم أشد حبا لله من محبة المشركين لأندادهم لأن محبتهم موزعة على أندادهم، ومحبة المؤمنين خالصة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ.

والمحبة: محبة الله ما معناها؟ المحبة لله لا تعني الحب الطبيعي المعروف بين الناس، ولا تعني العشق والوله كما يعتقده المتصوفة الذين شبهوا محبة الخالق أو محبتهم لخالقهم كما يحب المعشوق عشيقته، أو العاشق عشيقته تَعَالىٰ الله عما يقولون علوا كبيرا، وإنما المحبة لله هي التي معناها الخضوع والتعظيم والانقياد والخوف والرجاء لابد من اجتماع هـٰذه المقامات حتى تكون محبة صحيحة، بمعنى أنك لو خُيرت بين تنفيذ أمر الله وبين هواك أو تنفيذ أمر من سواه تقدم تنفيذ أمر الله، هـٰذا هو دليل المحبة الحقيقية ﴿**قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)**﴾[التوبة:٢٤].

إذن هـٰذه محبة الله دليلها الصحيح ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ**﴾[آل عمران:٣١]، دليلها الصحيح اتباع هدي نبينا محمد – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، بغير ذلك فإنها محبة مدعاة لا قيمة لها.

أما الذين يصفون المحبة بالعشق والتتيم ويترنمون بذلك بشكل أغاني ورقصات وما إلى ذلك، ثم هم يشركون مع الله غيره ويتعلقون بغير الله ويتخلون عن أوامر الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– هٰؤلاء ما صدقوا في محبتهم، ما صدقوا في محبتهم، ولذلك قول النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أن يكون الرسول أحب إليه مما سواهما تبينه الفقرة الأخيرة من الحديث «**وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**»[1] لو خيرت بين أن تمتثل أمر الله أو أن تموت فداء لذلك لاخترت الموت في أن تبقى على عبادة الله وأن تنفذ أمر الله.

([1]) **البخاري**: كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، حديث رقم (١٦).

مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، حديث رقم (٤٣).

فلنفهم هـــٰذه المحبة هي المتضمنة لكمال الحب والتعظيم والخوف، محبة مع خـــوف وتعظـــيم ورجاء، ليست محبة مجردة طبيعية هكذا، لا، فإذا شعرت من نفسك أن محبتك لله تضمنت الخـــوف والرجاء والتعظيم فهٰذه هي المحبة لله وإذا شعرت بغير ذلك فاعلم أنها محبة ناقصة غير كافية.

والله أعلم وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.[1]

(1) انتهى الشريط الأول.

بسم الله الرحمن الرحيم

المجلس الثاني

[المتن]

وقد علَّم الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– عباده [كيفية][١] مباينة [أهل][٢] الشرك في توحيد الإلـٰهية، وأنه – تعالى – [حقيق][٣] بإفراده وليّاً وحَكَماً وربّاً. فقال تَعَالىٰ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾[الأنعام:١٤]، وقال: ﴿أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾[الأنعام:١١٤]، وقال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾[الإنعام:١٦٤].

فلا وليَّ ولا حَكَمَ ولا ربَّ إلا الله الذي من عَدَلَ به غيره فقد أشرك في ألوهيتهِ، [ولو][٤] وحّد ربوبيته.

فتوحيد الربوبية هو الذي اجتمعت فيه الخلائق، مؤمنها وكافرها.

وتوحيد [الإلـٰهية][٥] مَفْرَق الطرق بين المؤمنين والمشركين.

ولهٰذا كانت كلمة الإسلام (لا إلـٰه إلا الله)، ولو قال: (لا رب إلا الله) [لما][٦] أجزأه عند المحقِّقين.

فتوحيد [الألوهية][٧] هو المطلوب من العباد. ولهٰذا كان أصل «الله» الإلـٰه[٨]، كما هو قول سيبَوَيه، وهو الصّحيح، وهو قول جمهور أصحابه إلا من شذّ منهم.

---

(١) في المخطوط [ب]: كيف.

(٢) زياة من المخطوط [أ].

(٣) غير موجودة في المخطوط [ب].

(٤) في المخطوط [ب]: **فلو**.

(٥) في النسخة [سج]: **الألوهية**.

(٦) غير موجودة في [سج].

(٧) في المخطوط [ب]: **الإلـٰهية**.

(٨) أنظر بدائع الفوائد لابن القيم تحت فائدة: هل اسم الله مشتق، (٢٦/١)، وانظر تيسير العزيز الحميد ص١٥.

[الشرح]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

هٰذا المعنى تقدم عند المؤلف في مقدمة كلامه السابق؛ وهو أن الذي حصل فيه الخلاف في الجملة وفي الغالب بين الأنبياء وأممهم والذي من أجله بعث الله الرسل وأنزل الكتب إنما هو توحيد الألوهية، وأورد المصنف – رحمه الله – الآيات الثلاث: ﴿أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾[الأنعام:١١٤]، ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾[الإنعام: ١٦٤]، ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾[الأنعام:١٤] ليبين أهمية الارتباط بين هٰذه المعاني العظيمة، فكونه ربا يستلزم كونه حكما وإلهاً ووليا، فلذلك أوردها بهـٰذا التسلسل.

ومن المعلوم أن الأمر كما قال المصنف بالنسبة لتوحيد الربوبية الذي آمن به أكثر أهل الأرض؛ لأن قول المصنف أن جميع الناس قد آمنوا به ليس مُسَلَّمًا، وهو سيبين ذلك في المستقبل، وإنما المراد في الجملة أكثر أهل الأرض يقرون بتوحيد الربوبية؛ ولكن لو آمنوا جميعا بتوحيد الربوبية فإن هٰذا لا ينفعهم، إذا لم يؤمنوا بلازمه وهو توحيد الألوهية؛ توحيد العبادة؛ توحيد الإلـٰهية؛ اتخاذ الله معبودا وإلها ومألوها ووليا ومحبوبا ومخوفا ومرجوا ومعظما؛ بصرف جميع أنواع العبادة له وحده دون سواه، فمن عدل به غيره في توحيد الألوهية فقد أشرك به شركا أكبر لا يغفره الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ إلا بالتوبة الصادقة النصوح، ومن مات عليه فهو خالد مخلد في النار ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧)﴾[المؤمنون:١١٧]، ﴿مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢)﴾[المائدة:٧٢]، ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾[النساء:١١٦]، والآيات كثيرة في هٰذا الباب.

وما أشار إليه المصنف هنا من أن العبد لو أنه قال: لا رب إلا الله، فإن ذلك لا يجزئه بخلاف ما لو قال: لا إلـٰه إلا الله. فإن دلك يجزئه، هٰذا كلام عظيم، لماذا؟ لأن قوله: لا رب إلا الله، يقولها كل الناس أو جل الناس مسلمهم وكافرهم، كما بينا وكما بين المصنف قبل ذلك أن الكفار يقرون بتوحيد الربوبية؛ لكن ذلك لا يدخلهم في توحيد الألوهية، لو آمنوا به ربا و لم يؤمنوا به معبودا وإلها ووليا فإن إيمانهم هٰذا لا قيمة له؛ ذلك أن أركان التوحيد الثلاثة كما قلنا بالأمس متلازمة لا ينفك أحدها عن الآخر، ولذلك فإنّ معنى (لا إلـٰه إلا الله) أي لا معبود بحق إلا الله، فمن فسره بغير ذلك

فقد أبعد النجعة، ولذلك بعض الجهال الذين يفسرون (لا إلـٰه إلا الله) أي لا موجود إلا الله أو لا رب إلا الله أو يقولون: إن معنى (لا إلـٰه إلا الله) هو إدخال اليقين على ذات الله تَعَالىٰ كما يدّعون، فإن ذلك التفسير من التفسيرات الباطلة؛ لأن ذلك قصرا للتوحيد على توحيد الربوبية، وكأن التوحيد الذي أمر الله به هو توحيد الربوبية فقط، وهٰذا غير صحيح، تلك الطائفة التي تقول: إن معنى لا إلـٰه إلا الله إخراج اليقين الفاسد من القلب وإدخال اليقين الصحيح على ذات الله – تَعَالىٰ–، هٰذا معناه وحدة الوجود، القول بوحدة الوجود، وهٰذا تقول به طائفة تنسب نفسها إلى الدعوة إلى الله – عز وجل – ، وما دامت تفسر معنى لا إلـٰه إلا الله بهٰذا التفسير فهي أبعد ما يكون عن منهج الدعوة الصحيح الذي بعث الله به نبينا محمدا – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، لذلك فإنه لا يقبل من أي شخص تفسير لمعنى (لا إلـٰه إلا الله) إلا إذا فسره بأنه لا معبود بحق إلا الله، وأيضا لا بد من التقييد بكلمة (بحق)؛ لأن هناك معبودات كثيرة ولكنها معبودة بباطل، والآلهة كثيرة التي تُتخذ وهي داخلة في الهوى كما تقدم لنا بالأمس ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾[الجاثية:٢٣].

باختصار معنى (لا إلـٰه إلا الله) لا معبود بحق إلا الله، أما التفسير بأنه لا موجود إلا الله أو لا رب إلا الله؛ بل إن قوله: لا موجود إلا الله يدل على وحدة القول بوحدة الوجود؛ لأنك أنت موجود، وزيد موجود، والحيوان موجود، والسماء موجودة، والأرض موجودة، والنباتات موجودة، إذن كل الموجودات هي الله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا هٰذه عقيدة ابن عربي الطائي الحاتمي الملحد المعروف الصوفي الذي يقول: ما في الجبة إلا لله.

والذي يقول:

وما الكلب والخنزير إلا إلهنا ... وما الله إلا راهب في كنيسة

والذي يقول[1]:

---

(١) وهما للحلاج قاتله الله حيث قال:

أنا مَن أَهوى وَمَن أَهوى أنا ... نَحنُ روحانِ حَلَنا بَدَنا

نَحنُ مُذكُنّا عَلى عَهدِ الهَوى ... تُضرَبُ الأَمثالُ لِلناسِ بِنا

فَإِذا أَبصَرتَني أَبصَرتَهُ ... وَإِذا أَبصَرتَهُ أَبصَرتَنا

أَيُّها السائِلُ عَن قِصَّتِنا ... لَو تَرانا لَم تُفَرِّق بَينَنا

روحُهُ روحي وَروحي روحُهُ ... مَن رَأى روحَينِ حَلَّت بَدَنا

أنـــــا بـــــالله وبـــــالله أنـــــا نحـــــن روحـــــان حللنـــــا بـــــدنا
فـــــإذا أبصـــــرتنا أبصـــــرته وإذا أبصـــــرته أبصـــــرتنا

ونحو ذلك من كفرياته التي فسرها في كتابه الفصوص أو الفتوحات المكية، وهي في الحقيقة من أكفر الكفر، هٰذا الذي يقول: إن فرعون كان أهدى من موسى عندما قال: أنا ربكم الأعلى؛ لأن فرعون بذلك وصل إلى القمة وصل إلى الفناء في الله، وموسى لم يصل إلى ذلك بعد، تعالى عما يقول الكافرون والملحدون علوا كبيرا.

وهؤلاء الذين يفسرون (لا إلـٰه إلا الله) بهٰذا المعنى وإن لم يريدوا ذلك، فإن هٰذا هو الذي يدل عليه قولهم، وإن كنا نقول: بأن لازم القول ليس بلازم؛ لكن نقول: إنهم وقعوا فيه في هٰذا القول وهو القول بوحدة الوجود من حيث يشعرون أو من حيث لا يشعرون، منهم من يشعر ومنهم من لا يشعر.

والمهم أن لا نفسر معنى (لا إلـٰه إلا الله) بغير هٰذا المعنى، لو كان المعنى لا رب إلا الله لما احتجنا إلى بعث الرسل ولا إنزال الكتب؛ لأن الناس في جملتهم كلهم يقولون ماذا؟ لا رب إلا الله؛ لكنهم لا يقرون بمعنى لا إله إلا الله.

المشركون الأوائل لما قالت لهم الرسل: قولوا: (لا إلـٰه إلا الله) تفلحون. يعرفون معناها، ولذلك لو لم يعرفوا معناها لقالوها؛ لأنهم يعرفون أنها تنفي جميع معبوداتهم، وهٰذا هو معنى قول إبراهيم عليه السلام: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧)**﴾[الزخرف:٢٦ – ٢٧]، وهو معنى قوله تَعَالى: ﴿**فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى**﴾[البقرة: ٢٥٦]، ومعنى قوله تَعَالىٰ: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ اللَّهُ**﴾[محمد:١٩]، وغير ذلك من الآيات التي وردت في هٰذا المعنى.

فانتبهوا إلى الخطورة التي يفسر بها كثير من الناس لاسيّما المعاصرين، ومنهم من ينتسب إلى الدعوة سواء الذين فسروها بأنها لا موجود إلا الله، أو الذين فسروها بأن المعنى لا حاكم إلا الله، أو نحو ذلك من التفسيرات الباطلة، ومما قصروا فيه (لا إلـٰه إلا الله) على معنىً يتفق مع مناهجهم الفاسدة التي تختلف عن منهج السلف الصالح جملة وتفصيلا، فليس معنى (لا إلـٰه إلا الله) لا حاكم إلا الله، وليس معناها لا حكم إلا لله، وليس معناها لا موجود إلا الله، وليس معناها لا رب إلا الله. وإنما معناها: لا معبود بحق إلا الله. فمن فسرها بغير هٰذا المعنى فقد بعُد عن منهج الكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح.

[المتن]

وبهٰذا الاعتبار الذي قرّرنا به الإلـٰه، وأنه المحبوب لاجتماع صفات الكمال فيه، كان الله هو الاسم الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى والصفات العليا، وهو الذي يُنكره المشركون ويحتج الربّ – سُبْحَانَهُ [وَتَعَالىٰ][(١)]– عليهم بتوحيدهم ربوبيته على توحيد ألوهيته، كما قال الله تَعَالىٰ: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠)﴾[النمل:٥٩-٦٠].

وكلّما ذكر – [سُبْحَانَهُ وَ][(٢)] تَعَالىٰ– من آياته جملة من الجمل قال عقبها: ﴿أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ فأبان – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– بذلك أنّ المشركين إنما كانوا يتوقّفون في إثبات توحيد [الإلـٰهية][(٣)] لا الرّبوبية، على أنّ منهم من أشرك في [الربوبية][(٤)] كما يأتي بعد ذلك إن شاء الله تَعَالىٰ.

[الشرح]

هٰذا المعنى تأكيد لما سبق من أن الله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ– هو الاسم الجامع لأسماء الله وصفاته؛ بل هو الاسم الأعظم، ولذلك لا يجوز أن يتسمى به أحد، بينما هناك أسماء يجوز أن يسمى بها المخلوق، وإن كان قد تسمى بها الخالق – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ–؛ لكنها تتضح عند الإضافة والتخصيص؛ يعني يتميز بها الخالق عن المخلوق عند الإضافة والتخصيص، وهٰذا له نظائر في القرآن، فقد وصف الله رسولَه بأنه رؤوف رحيم ووصف نفسه بأنه رؤوف رحيم، وليس الرؤوف كالرؤوف وليس الرحيم كالرحيم، ووصف بعض عباده بأنه حفيظ عليم كما قال عن يوسف – عَلَيْهِ السَّلَامُ –، ووصف نفسه بأنه حفيظ عليم: ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١)﴾[سبأ:٢١]، وقوله تَعَالىٰ: ﴿إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة:٢٨]، وليس العليم كالعليم وليس الحفيظ كالحفيظ، ونحو ذلك من الآيات.

لكن لفظ الجلالة لا يجوز أن يتسمى به أحد مطلقا؛ لأنه الاسم الجامع لكافة الأسماء والصفات؛ بل هو الاسم الأعظم على التحقيق من أقوال أهل العلم.

---

(١) غير موجودة في المخطوط [ب].

(٢) زيادة من المخطوط [ب].

(٣) في النسخة [سج]: **الألوهية**.

(٤) في المخطوط [أ] و[ب] والنسخة [ر]: **ربوبيته**.

فهناك من قال: إن الاسم الأعظم هو ما ورد في آية الكرسي ﴿اللَّهُ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[البقرة:٢٥٥].

ومنهم من قال: ما جاء في سورة طه ﴿اللَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى (٨)﴾[طه:٠٨].

ومنهم من قال: ما جاء في سورة الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢)﴾[الإخلاص:١-٢].

ومنهم من قال غير ذلك.

ومنهم من قال ما جاء في حديث عبد الله بن بريدة عندما سمع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من يدعو بهٰذا الدعاء: (اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله الذي لا إلـٰه إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد)، فقال النبي- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب**».[1]

وإذا تأملنا هٰذه الأقوال نجد أنه ليس بينها تعارض، فكل الأقوال التي وردت في تفسير الاسم الأعظم فيها لفظ الجلالة.

ولذلك رجح ابن القيم - رحمه الله - وغيره من السلف أن الاسم الأعظم هو لفظ الجلالة وهو كلمة (الله) سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ، هٰذا هو الاسم الأعظم.

وقد أشار إليه المصنف هنا رحمه الله.

ثم عقب بعد ذلك بعد أن بين أن هٰذا الأمر وأن هٰذا أعظم أسماء الله وهو لفظ الجلالة عاد إلى تقرير ما سبق أن بدأه من أن جملة الناس يؤمنون بتوحيد الربوبية ولم يدخلهم ذلك في الإسلام ولم ينفعهم؛ لأنهم لم يؤمنوا بلازمه وهو توحيد الألوهية، ثم أورد الآيات التي تحدث الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ فيها عن عدد من آياته ومخلوقاته الدالة على قدرته، وكلما ذكر جملة منها قال: ﴿أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾، كلما ذكر جملة من هٰذه الآيات العظيمة قال: ﴿أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾، لماذا ذكر هٰذه الآيات لأنه يعرف أنهم يؤمنون بأن الله هو خالق تلك الآيات وتلك المخلوقات: السمٰوات، الأرض، الحدائق، الجنات...إلخ، البشر، الليل، النهار، الشمس، القمر، ثم في كل هٰذا يقول: ﴿أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾، لو سئلوا هم من

([1]) **سنن الترمذي**: كتاب الدعوات، باب ما جاء في جامع الدعوات عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حديث رقم (٣٤٧٥).
سنن ابن ماجه: كتاب الدعاء، باب اسم الله الأعظم، حديث رقم (٣٨٥٧).
قال الشيخ الألباني: صحيح.

خلق هٰذه الأشياء سيقولون: الله، إذن ﴿أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾إذا سلمتم بأن الله – تَعَالىٰ – هو خالق هٰذه الأشياء فهل يجوز أن تعبدوا معه غيره؟ ولذلك قال تَعَالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)﴾ لماذا؟ ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)﴾[البقرة: ٢١-٢٢] وهو دائما خصوصا في الآيات المكية في الغالب يتكلم عن هٰذه القضايا مُوردا بعض آياته الكونية ليستدل بها عليهم ويحتج بها عليهم في أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ هو المستحق للعبادة ما دام هو المتفضل والمنعم والخالق لهٰذه الأشياء.

[المتن]

وبالجملة فهو – تَعَالىٰ– يحتج على منكري الإلـٰهية بإثباتهم الربوبية.

والمِلك هو الآمر النّاهي الذي لا يخلق خلْقا بمقتضى ربوبيته و[1]يتركهم سدىً معطلين لا يؤمرون ولا ينهون ولا يثابون ولا يعاقبون، فإنّ المِلك هو الآمر الناهي المعطي المانع الضار النافع المثيب المعاقب.

ولذلك، جاءت الاستعاذة في سورة الناس وسورة الفلق بالأسماء الحسنى الثلاثة: الرّب والملك والإلـٰه، فإنه لما قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾[الناس:٠١] كان فيه إثبات أنه خالقهم وفاطرهم، فبقي أن يقال: لَمَّا خلقهم: هل كلفهم وأمرهم ونهاهم؟ قيل: نعم، فجاء ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾[الناس:٠٢]، فأثبت الخلق والأمر [﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾[الأعراف:٥٤].][2] فلما قيل ذلك، قيل: فإذا كان ربًّا موجداً وملكاً مكلفاً، فهل يُحَبُّ وَيُرَغَّبُ إليهِ، ويكون التوجه إليه غاية الخلق والأمر؟ قيل: ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾[الناس:٠٣]، أي مألوههم ومحبوبهم الذي لا يتوجّه العبد المخلوق المكلف العابد إلا له، فجاءت [الإلـٰهية][3] خاتمة وغاية، وما قبلها كالتوطئة لها.

[الشرح]

هٰذه الجملة التي أوردها المصنف – رحمه الله – في توجيه ما جاء في سورة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣)﴾[الناس:٠٣]، من هٰذا الترتيب العظيم حيث بدأ بالربوبية

([1]) في المخطوط [ب]: **لا**.

([2]) غير موجودة في المخطوط [أ].

([3]) في النسخة [سج]: **الألوهية**.

وثنّى بأسماء والصفات التي تدل على تصرفه في الكون أيضا، وثلّث بذكر استحقاقه للعبودية والألوهية، ليبين أنه ما دام أنه هو رب الناس الذي رباهم بنعمه وخلقهم وأوجدهم ورزقهم وأحياهم وأماتهم وبعثهم من قبورهم، ما دام كذلك، وما دام هو مليكهم والمتصرف فيهم -وهٰذا إشارة إلى توحيد الأسماء والصفات-، إذن هو المستحق للعبادة وحده دون سواه ولذلك قال: ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾، فهو ربهم وهو مالكهم وهو إلٰههم.

يلزم من كونه ربا ومليكا أن يكون معبودا ومخصصا بالعبادة ومستحقا للعبادة وحده دون سواه، لذلك فإنّ في هٰذا تقريرا للمشركين الذي سبق أن بيّن أنهم يقرون بربوبيته وإلزام لهم بتوحيد الألوهية، فكأنه يقول: يا من اعترفتم بأن الله هو ربكم ورب كل شيء، وهو الذي يخلقكم ويرزقكم وهو مَالِكُكُم والمتصرف فيكم، إذن فاعبدوه ولا تعبدوا سواه.

[المتن]

وهاتان السّورتان أعظم عَوذَةٍ في القرآن، وجاءت الاستعاذة بهما وقت الحاجة إلى ذلك، وهو حين سُحر النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وخُيّلَ [إليه][1] أنه يفعل الشيء[2] [صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ][3] وما فعله، وأقام على ذلك أربعين يوما كما في الصحيح.[4]

([1]) في المخطوط [ب]: **له**.

([2]) وهو محمول على التخيل البصري، وليس على القلب أو العقل أو الاعتقاد، وجلّ هٰذا التخيل كان منصبًّا على أمر واحد فقط، وهو أنه يتخيل أنه كان يأتي أهله، وليس كذلك، وانظر ((زاد المعاد)) (١٢٤/٤)، وزاد المسير (٣٠٢/٥) والتعليق عليه، وقارن بتفسير المنار (٣٩٨/١)، وأحكام القرآن (٤٩/١) للجصاص. [ع]

([3]) غير موجودة في المخطوط [أ] و[ب] والنسخة [ر].

([4]) **البخاري**: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، حديث رقم (٣٢٦٨).

مسلم: كتاب السلام، باب السحر، حديث رقم (٢١٨٩).

وكانت عُقد السحر إحدى عشرة عقدة فأنزل الله [تَعَالىٰ][١] المعوذتين إحدى عشرة آية، فانحلت بكل آية عقدة.[٢]

وتعلّقت الاستعاذة في أوائل القرآن باسمه الإلـٰه، [وهو المعبود وحده لاجتماع صفات الكمال فيه ومناجاة العبد لهٰذا الإلـٰه][٣] الكامل ذي الأسماء الحسنى والصفات العليا، المرغوب إليه في أن يعيذ عبده الذي يناجيه بكلامه من الشّيطان الحائل بينه وبين مناجاة ربِّه.

ثم استُحب [التعليق][٤] باسم الإلـٰه في جميع المواطن التي[٥] يقال فيها: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» لأنّ [اسم الله][٦] [تَعَالىٰ][٧] هو الغاية للأسماء.

ولهٰذا كان كل اسم بعده لا [يُتعرّف][٨] إلا به، [فتقول][٩]: الله هو السلام المؤمن المهيمن، فالجلالة تُعَرِّفُ غيرها، وغيرها لا يُعَرِّفُها.

[الشرح]

مازال في بيان مدلول المعوذتين ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، وقد أنزلهما الله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ– على نبيه – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وأمره أن يستعيذ بهما وأن يتعوذ بهما عندما سحره اليهودي لبيد بن الأعصم وبناته، كما في الصحيحين[١٠] من حديث عائشة – رَضِيَ اللهُ عَنْها – وأنه كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء و لم يفعله، فأرسل الله له ملكين أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه، فقال أحدهما للآخر: ما به؟ فقال: مطبوب. أي مسحور قال: ومن طبّه؟ قال: لبيد بن

---

(١) زيادة من المخطوط [ب].

(٢) أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس، والبيهقي في الدلائل عن عائشة، وعبد بن حميد في مسنده عن زيد بن أسلم مرسلا بألفاظ مختلفة، كما في الدر المنثور (٦٨٧/٨) فعلّه حسن بمجموعها، والله أعلم. [ع]

(٣) غير موجودة في المخطوط [ب].

(٤) في المخطوط [أ] و[ب] والنسخة [ر]: **التعلق**. وهو الصواب.

(٥) في «الأصل»: **الذي!** [ع]، قلت: كذلك في المخطوط [أ] و[ب]: **الذي**. وفي [سج]: **الذي فيها**. دون لفظ (**يقال**).

(٦) في المخطوط [أ]: **اسمه**.

(٧) غير موجودة في المخطوط [ب] والنسخة [ر].

(٨) في النسخة [ر]: يتصرف. وهو خطأ واضح.

(٩) في المخطوط [أ] و[ب]: **فنقول**.

(١٠) تم تخريجه صفحة (٤٢).

الأعصم. قال: في ماذا؟ قال: في مشط ومشاطة؛ يعني في شعر وبعض أسنان المشط، قال: وأين؟ قال: في بئر ذي أروان. في جب طلع نخلة. فأوحى الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- إلى نبيه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وأخبر عائشة أن الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- قد شفاه مما به ومع ذلك لم ينتقم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وقال: ((**أما إن الله قد شفاني**)).

وهٰذا ينكره بعض أصحاب المدارس العقلية بدعوى أنه يتعارض مع عصمته، مع أنه من أعظم الأدلة على عصمته، فكون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أخبره بالوحي بذلك السحر ومن فعله وأين وضع وكيف وضع وكونه شفاه منه وكونه أبطله، كل ذلك من دلائل العصمة، ولا يتعارض هٰذا مع العصمة أبدا.

ثم يُرد عليهم بأن ما حصل لهم من تأثر وتخيل إنما هو في بعض التصرفات الدنيوية، كإتيان أهله مثلا، ولا علاقة لذلك بما بعثه الله به، فإن ذلك لم يؤثر في رسالته بإجماع المسلمين.

ولذلك من أنكر ذلك من أصحاب المدارس العقلية فإنه يرد عليهم، وإنه قد وقع له السحر فعلا، ولأن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بشر يصيبه ما يصيب البشر، ويجري عليه ما يجري على البشر، اللهم إلا في ما يتعلق بما جاء به من عند الله، فإن ذلك لا يدخل تحت ذلك، وأما ما عدا ذلك من الأمور الدنيوية وما يتعلق بها فإن ذلك قد يصيبه، وقد قتل بعض أنبياء الله مثل يحيى وزكريا عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ، وأما عيسى - عَلَيْهِ السَّلاَمُ - فقد رُفع ولم يقتل ولم يصلب؛ بل إنّ النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مات شهيدا حيث مات بالسم الذي وضعته له بنت الحارث اليهودية،[1] فمات به في نهاية المطاف وصار شهيدا - عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ - ونال الشهادة، وهٰذا لا يتعارض كما قلنا مع العصمة، فيما يتعلق بما جاء به من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم بين أهمية الاستعاذة بلفظ الجلالة ((أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)) فقد شرعت لنا في مناسبات كثيرة:

منها عند قراءة القرآن ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨)**﴾[النحل:٩٨].

ومنها عند وجود نزغات من نزغات الشيطان ﴿**وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦)**﴾[فصلت:٣٦].

---

(١) **سنن أبي داوود**: كتاب الديات، باب فيمن سقى رجلا سما أو أطعمه فمات أيقاد به؟ حديث رقم (٤٥١٣) قال الشيخ الألباني: صحيح الإسناد. واسمها: زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم، كما في زاد المعاد (١٩١/٤).

ومنها عند الغضب عندما قال النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - للرجل الذي جاء وقد احمر وجهه وانتفخت أوداجه فقال: «**إني أعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما به**»[١] وهي ماذا؟ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

ثم تقال أيضا عندما يرى الإنسان حلما مزعجا أو رؤيا مزعجة، فإنه ينقلب على جنبه الآخر ويتفل عن يساره ثلاثا ثم يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، فلا يضره شيء بعد ذلك.

فبذلك أمرنا أن نستعيذ بالله من الشياطين: ﴿**وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (٩٨)**﴾[المؤمنون:٩٧-٩٨]، ونحو ذلك من الآيات الكثيرة الواردة في هٰذا الباب.

[المتن]

والذين أشركوا به - تَعَالىٰ- في الربوبية منهم من أثبت معه خالقاً [آخر][٢] وإن لم يقولوا: إنه [إلـٰه][٣] مكافئ له. وهم المشركون ومن ضاهاهم من القدرية.

وربوبيته - سبحانه - للعالم الربوبية الكاملة المطلقة الشاملة تُبطل أقوالهم، لأنها تقتضي ربوبيته لجميع ما فيه من الذوات والصّفات والحركات والأفعال.

وحقيقة قول القدرية المجوسية أنه - تَعَالىٰ- ليس ربّا لأفعال الحيوان، ولا [تتناولها][٤] ربوبيته إذ كيف يتناول ما [لا][٥] يدخل تحت قدرته ومشيئته وخلقه.

[الشرح]

هنا تحدّث المصنف - رحمه الله - عن مسألة من مسائل القدر؛ وهي أنّ من المشركين من يشرك مع الله إلـٰها آخر، ومنهم من يشرك معه خالقا يزعم أنه خلق كخلقه أو خلق مثل خلق الله، وهؤلاء هم القدرية وقبلهم المجوس كما تأتي الإشارة إليهم في كلام المصنف بعد؛ لأن المجوس أثبتوا خالقين

---

(١) **البخاري**: كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب..، حديث رقم (٦١١٥).

مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب وبأي شيء يذهب الغضب، حديث رقم (٢٦١٠).

(٢) غير موجودة في النسخة [ر].

(٣) غير موجودة في المخطوط [ب]، والنسخة [سج] والنسخة [ر].

(٤) في المخطوط [ب]: يتناولها.

(٥) في المخطوط [أ]: لـــم.

النور والظلمة، من هنا، وزعموا أن هذين -النور والظلمة- واسطة بينهم وبين الله، والقدرية أشبهوا المجوس في أنهم أثبتوا خالقين لذلك سموا مجوس هٰذه الأمة كما ثبت ذلك في غير حديث موقوف على الصحابة، وهناك أحاديث مرفوعة متكلم فيها؛ ولكن الموقوف صحيح إلى جمع من الصحابة وهو أقرب إلى الرفع؛ لأنه مما لا مجال للاجتهاد فيه وهو أن القدرية مجوس هٰذه الأمة.

وقد سموا مجوسا لأنهم يشبهون المجوس في معتقدهم، فإن المجوس أثبتوا خالقين كما قلت النور والظلمة، والقدرية أثبتوا خالقين حيث سلبوا عن الله القدرة على خلق أفعال العباد، وقالوا: إن العبد هو الخالق لفعله، فأثبتوا خالقين الله خالق العبد، والعبد خالق أفعاله، بينما الله - تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ- يقول: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦)﴾[الصافات:٩٦]، وهؤلاء من شر البرية، ومنهم من ينكر العلم مطلقا، ومنهم من ينكر القدرة، ومنهم من ينكر العلم بالأشياء إلا بعد وقوعها، فهم درجات وكلهم على ضلال، وكلهم من الطوائف المنحرفة الضالة المنحرفةعن سواء السبيل.

والذي عليه أهل السنة والجماعة أن الله خالق العبد وخالق فعل العبد ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1] ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦)﴾، فالله خالق العباد وأفعالهم، وهو مقدّر الخير والشر؛ ذلك أنه:

أولا علمها؛ علم ما كان وما يكون وما لم يكن أن لو كان كيف يكون.[2]

ثانيا قدرها في الأزل.

ثالثا كتبها في اللوح المحفوظ.

رابعا شاءها كما قدرها، وشاء وقوعها في وقت معين.

([1]) سورة : الرعد (١٦)، الزمر (٦٢).

([2]) الإيمان يتضمن مرتبتين:

المرتبة الأولى قبل وقوع المقدر وهي تشمل أمرين:

الأول: العلم. الله عالم ما الناس عاملون إلى اليوم القيامة؛ بل يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن أن لو كان كيف يكون.

الثاني تقدير كل شيء وكتابته. كتب مقادي الخلائق في اللوح المحفوظ إلى قيام الساعة قبل خلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة.

المرتبة الثانية تقارن المقدر وهي بدورها تشمل أمرين:

الأول: أن كل شيء بمشيئة الله تَعَالىٰ لا يخرج عنه شيء. فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

الثاني أنه الله خالق كل شيء ومنها أفعال العباد.

هٰذه الدرجات لابد من إدراكها: العلم و الكتابة و المشيئة والخلق، العلم علم الأشياء قبل كونها، ثم قدرها وكتبها في اللوح المحفوظ قبل خلق السمٰوات و الأرض بخمسين ألف سنة، ثم بعد ذلك شاءها في أن تقع في وقت معين، ثم خلقها وَفْقَ ما قدر.

وبالمناسبة مسألة لغوية دائما الناس يقولون: (وِفْقَ) والحق (وَفْقَ) بفتح الواو، هٰذا هو الأفصح هٰذا الشيء وَفق هٰذا الشيء -ولا نقول: وِفْقَ-، هٰذا هو الأفصح والله أعلم؛ لكن المهم أن نعلم مراتب القدر.

والذي جعل القدرية يضلون في هٰذا الباب أنهم خلطوا بين الخلق والأمر، لم يفرقوا بين الخلق والأمر.

فالقدرية النفاة قالوا: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ يعني لم يقدر أفعال العباد و لم يخلقها خيرها وشرها، لم يقدرها و لم يخلقها، وإنما العباد هم الذين خلقوا أفعالهم، ومنهم من قال: إنه حتى العلم لم يعلم بها، ومنهم من قال إنه لا يعلم بها إلا بعد وقوعها، تَعَالىٰ الله عما يقولون علوا كبيرا.

والقدرية الجبرية عكسهم جعلوا الخلق هو عين الأمر، فجعلوا كل ما قدره الله وخلقه مأمورا به، نعم آمنوا بأن الله خلق الخير والشر وقدرهما؛ لكنهم جعلوا الشر مأمورا به.

وأهل السنة والجماعة يقولون: إن الله خالق كل شيء؛ ولكن هناك أشياء خلقها و لم يأمر بها بل نهى عنها وحذر منها، وهي ماذا؟ وهي المعاصي والذنوب والشرك وما تفرع عنه، فهي غير مرضية لله وغير محبوبة له، وغير مأمور بها من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ مع الإيمان بكونها مخلوقة مقدرة.

من هنا قسموا الإرادة إلى قسمين؛ قسم السلف الإرادة إلى قسمين:

إرادة كونية قدرية، وهي التي تتضمن الخلق والمشيئة العامة، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

والإرادة الدينية الشرعية الأمرية، وهي التي تتضمن ما أمر الله به وأحبه ورضيه.

فالأولى القدرية النفاة نفوا كل شيء وقالوا: إن الله لم يقدر أفعال العباد؛ فنفوا الخلق والأمر معا.

والقدرية الجبرية جعلوا الخلق عين الأمر، فجعلوا كل مخلوق لله محبوبا له، ومرضيا له، فخلطوا بين هذين الأمرين.

لذلك سميت الأولى مجوس هٰذه الأمة، وهم من شر الخليقة؛ لأنهم جعلوا خالقا غير الله، حيث نسبوا العبد إلى كونه هو الذي خلق فعله وأوجده، من هنا أشبهوا المجوس في إثبات خالقين.

[المتن]

وشرك الأمم كله نوعان: شرك في [الإلـٰهية][١]، وشرك في الربوبية..

فالشرك في الإلـٰهية والعبادة هو الغالب على أهل الإشراك، وهو شرك عُبّاد الأصنام وعُبّاد الملائكة وعُبّاد الجنّ وعُبّاد المشايخ والصالحين الأحياء والأموات الذين قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[الزمر:٣][٢] ويشفعوا[٣] لنا عنده، وينالنا بسبب قربهم من الله وكرامته لهم قرب وكرامة، كما هو المعهود في الدّنيا من حصول الكرامة والزلفى لمن يخدم أعوان الملك وأقاربه وخاصته.

والكتب الإلـٰهية [كلّها من أولها إلى آخرها][٤] تُبطل هٰذا المذهب وترده وتقبح أهله وتنصّ على أنهم أعداء الله – [تَعَالىٰ][٥]–، وجميع الرسل صلوات الله عليهم متّفقون على ذلك من أولهم إلى آخرهم، وما أهلك الله – تَعَالىٰ – [من أهلك][٦] من الأمم إلا بسبب هٰذا الشّرك ومن أجله.

وأصله[٧] الشرك في محبة الله [تعالى][٨]، قال تَعَالىٰ: ﴿[وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً][٩] يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّه﴾[البقرة: ١٦٥]، فأخبر – سُبْحَانَهُ [وَتَعَالىٰ][١٠]– أنه من أحبّ مع الله شيئا غيره كما يحبه فقد اتخذ ندًّا من دونه، وهٰذا على أصح القولين في الآية أنهم يحبونهم كما يحبون الله، وهٰذا هو العدل[١١] المذكور في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ

---

(١) في المخطوط [ب]: **الألوهية**.

(٢) في المخطوط [ب]: قالوا: نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى. وفي النسخة [ر]: إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى.

(٣) معطوفة على الآية الكريمة [ع]. وفي النسخة [ر]: يشفعون.

(٤) غير موجودة في المخطوط [ب].

(٥) غير موجودة في المخطوط [ب].

(٦) زيادة من المخطوط [أ] و[ب]. وهي في النسخة [سج].

(٧) في النسخة [ر]: **أصل الشرك في محبة غير الله تَعَالىٰ**.

(٨) غير موجودة في المخطوط [أ] و[ب] والنسخة [سج].

(٩) زيادة من المخطوط [أ] و[ب].

(١٠) غير موجودة في المخطوط [أ] و[ب].

(١١) التساوي [ع]

﴿كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[الأنعام:١]، والمعنى على أصح القولين أنهم يعدلون به غيره في العبادة فيسوون بينه وبين غيره في الحب والعبادة.

[الشرح]

هٰذا تقسيم للشرك الذي وقع في الأمم منه ما هو شرك في الربوبية ومنه ما هو شرك في الألوهية، والشرك في الألوهية هو أكثر أنواع الشرك وقوعا، وقد تقدم له أمثلة كثيرة، وذكر المصنف هنا عددا من الأمثلة كعبادة الأصنام والأوثان المنحوتة على هيئة إنسان أو على هيئة أيا كانت معينة، وعبادة الملائكة، وعبادة الكواكب كشأن الصابئة، وعبادة الجن، وكذا عبادة القبور والمشايخ والأضرحة كما هو الغالب على شرك هٰذا العصر.

هٰذا الشرك خطير الذي أنزل الله من أجله الكتب وأرسل من أجله الرسل، وهو الذي وقعت فيه الخصومة بين الأنبياء وبين الأمم، وهو الشرك في محبة الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– ولذلك قال: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾[البقرة:١٦٥]؛ أي يحبونهم كما يحبون الله، والمعنى الآخر يحبونهم كما يحب المؤمنون الله، ولعلّ المعنى الأول أظهر كما أشار المصنف – رحمه الله – مع أن المعنيين واردان في كتب التفسير، ولا تعارض بينهما ففي كلا الأمرين هم يحبونهم كحب الله؛ يعني يحبونهم كما يحبون رب العالمين، أو يحبونهم مثل ما يحب المؤمنون ربهم – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ–؛ بل هم أشد ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّه﴾ من محبة الكافرين لأندادهم أو من محبة الكافرين لله؛ لأن محبتهم لأندادهم موزعة ولأن محبتهم لله غير خالصة بل فيها شرك حيث أشركوا معه غيره، وهٰذا هو أعظم أنواع الشرك؛ لأن المحبة التي بيناها بالأمس التي تقتضي الخوف والرجاء والتعظيم هٰذه لا يجوز أن تكون إلا لله، فمن صرفها لغير الله فقد كفر وأشرك بالله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ–، ولا شك أنّ ما وقع فيه الناس من حبّ أصحاب القبور الآن والتعلّق بهم من دون الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– هو من هٰذا القبيل، فلا تكاد تجد بلدا –غير بلادنا ولله الحمد– إلا وفيه قبر يعبد من دون الله، يطاف به، وتقدم له النذور، وتذبح له الذبائح، وتجعل له الصناديق، ويقيم عليه السدنة، ويحضر أمامه البخور، ويدعى صاحبه من دون الله، ويتوسل به ويقال: أعطني يا فلان ومدد يا فلان وأغثني يا فلان، وأنا بجاهك يا فلان، وأنا بكنفك يا فلان، إذا كنت في هم وغم، فنادني يا فلان، وربما نسبوا أبياتا إلى بعض هؤلاء الذين منهم من يدعو إلى عبادة نفسه مثل قول قائلهم: إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور. وقول الآخر: ولو أني إذا ألقيت سري على

بحر لعاد البحر رملا، ولو أني ألقيت سري على ميت لعاد الميت حيا، ونحو ذلك من أباطيلهم وكفرياتهم وشركياتهم التي بلغت والله أعظم من شرك الأمم السابقة.

هناك شنشنة نعرفها من أخزم يرددها بعض الناس، وهو أنهم يقولون: الشرك هٰذا غير موجود الذي تقولون عنه، هٰذا ما هو شرك، إنما هو توسل وتقرب وليس المقصود الشرك، ولو سألت هؤلاء الذين يطوفون بالقبور وينذرون لها: من تعبدون؟ لقالوا: نعبد الله، ويقولون: إن الشرك انتهى من زمان، وفاتهم أن النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال: ((**لا تقوم الساعة حتى يلحق فئام من أمتي بالمشركين تصطفق إلياتهن**))[1] تصطفق إلياتهن يعني كناية عن كثرة التردد والتزاحم على عبادة هٰذا الصنم المسمى ذو الخلصة، وهٰذا موجود في بلاد دوس في زهران، موجود إلى ما قبل نحو خمسين أو ستين عاما، حيث هدم ذلك الصنم الذي عادت نساء دوس تعبده كما كانت، وقد هدم في عهد الملك عبد العزيز رحمه الله، بعد فترة طويلة كان ذلك الصنم قد عبد من دون الله، وعاد الناس إلى عبادته، بعد أن ذهب وقضي عليه في عهد النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ثم عاد الناس مرة أخرى يعبدونه وترددت عليه نساء دوس واصطفقت إلياتهن عنده كما أخبر الصادق المصدوق – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الذي لا ينطق عن الهوى، لذلك نقول لمن يزعم أن الشرك لا يمكن أن يقع، وأن هٰذا العمل ليس هو الشرك، كما سيأتي له زيادة التقرير في كلام المصنف – رحمه الله – بما يورده من نصوص أقول: إن هٰذا أعظم من شرك الأولين؛ لأن هؤلاء الناس يلجأون على هؤلاء الموتى في حال الرخاء والشدة معا، في أحلك الظروف يلجأون إلى هؤلاء الموتى في قبورهم يسألونهم قضاء الحاجات وكشف الكربات، يسألونهم الولد، والله لقد سمعنا بآذاننا في كثير من بلاد المسلمين من تطلب الولد من الميت، وسمعنا من يطلب الغوث والعون، وسمعنا من يطلب الشفاعة، وسمعنا من يطلب الرزق، وسمعنا من يطلب المدد.. ونحو ذلك، على مرأى ومسمع من بعض علماء الأمة في تلك البلاد الذين أصابهم الخوف من العامة، أو المداهنة فلم يحركوا ساكنا، والعجيب أن بعضهم ينتمي إلى الدعوة وينتسب إليها، وهو لا يدعو إلى توحيد الله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ– يوما من الأيام يدعو إلى جمع الكلمة، يدعو إلى السياسة، يدعو إلى إصلاح الاقتصاد، يدعو إلى كذا وكذا من الدعوات؛ ولكنه لا يدعو إلى

([1]) وروي **الترمذي** وغيره برقم (٢٢١٩): ((لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين))، وقال: حديث حسن صحيح، قال الشيخ الألباني: صحيح. روى أحمد في المسند برقم (٣٠٥٥) ((**كأني بنساء بني فهر يطفن بالخزرج تصطفق ألياتهن مشركات**)) بإسنادين أحدهما قال أحمد شاكر: إسناده حسن.

تصحيح التوحيد، فالناس يطوفون بالقبور أمامه في أكثر البلاد الإسلامية عدا هٰذه البلاد ولله الحمد، أكثر البلاد الإسلامية لا تكاد تجد مكان إلا وعليه قبة وفيه قبة يتعلق بها ويقسم بها ويتبرك بأعتابها ويتمسح بها؛ بل هناك من يسجد ويخنع ويخضع ويركع لهٰذا القبر، أو لذلك الشيخ، وإن كان حيا، من شيوخ الطرق الصوفية الذين استعبدوا الناس من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ.

فهٰذا الشرك قد وقع كما أخبر الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؛ بل وقع بحالة أشد مما كانت عليه من ذي قبل والله الهادي إلى سواء السبيل.

[المتن]

وكذلك قول المشركين في النار لأصنامهم: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء:٩٧-٩٨]، ومعلوم قطعا أن هٰذه التسوية لم تكن بينهم وبين الله في كونه ربهم وخالقهم، فإنهم كانوا كما أخبر الله عنهم مقرِّين بأن الله - تعالى - وحده هو ربّهم [وخالقهم وأن الأرض ومن فيها [لله][(١)] وحده][(٢)] وأنه رب السمٰوات السبع ورب العرش العظيم، وأنه سُبْحَانَهُ [وَتَعَالىٰ][(٣)] هو الذي بيده ملكوت كل شيء ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾[المؤمنون:٨٨].

وإنما كانت هٰذه التسوية بينهم [وبين الله][(٤)] تعالى في المحبة والعبادة.

فمن أحب غير الله - تَعَالىٰ - وخافه ورجاه وذلّ له كما يحب الله [تَعَالىٰ][(٥)] ويخافه ويرجوه، فهٰذا هو الشرك الذي لا يغفره الله، فكيف [بمن][(٦)] كان غير الله آثر عنده وأحب إليه وأخوف عنده، وهو في مرضاته أشدّ سعياً منه في مرضاة الله؟ فإذا كان المسوّي بين الله وبين غيرِه في ذلك مشركاً فما الظن بهٰذا؟

---

(١) في المخطوط [ب]: **له**.

(٢) غير موجودة في المخطوط [أ].

(٣) غير موجودة في المخطوط [أ] و[ب] والنسخة [ر].

(٤) في المخطوط [أ] و[ب]: **وبينه**.

(٥) غير موجودة في المخطوط [أ] و[ب] والنسخة [ر].

(٦) في المخطوط [ب]: **من**.

فعياذاً بالله من أن ينسلخ القلب من التوحيد والإسلام كانسلاخ الحية من قشرها وهو يظن أنه مسلم موحّد فهٰذا أحد أنواع الشرك.

[الشرح]

هٰذا الشرك الذي ما زال المصنف يوضحه وهو الشرك في الألوهية هو أعظم أنواع الشرك؛ لأن صاحبه يعظمه أعظم مما يعظم الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- ، ولذلك بين أنهم برهم يعدلون أي يسوُّونهم برب العالمين ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء: ٩٧-٩٨] ما هو وجه التسوية؟ هل قالوا: إنهم أرباب؟ هل قالوا: إنهم يخلقون؟ هل قالوا: إنهم يرزقون؟ هل قالوا: إنهم يحيون؟ هل قالوا: إنهم يموتون؟ الجواب: لا؛ ولكنهم جاؤوا فنذروا لهم، وذبحوا لهم، واستغاثوا بهم، واستعانوا بهم، ورجوهم وقدموا لهم القرابين، ودعوهم وتوسلوا بهم، وطلبوا منهم الشفاعة، هٰذا هو الإشراك بعينه، هٰذا هو الشِّرك العظيم الذي لا يغفره الله - تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ-، إلا بالتوبة، ولذلك ما نخدع أنفسنا، ونقول: هٰذه أعمال بسيطة، وهٰذا لا يسمى شركا، أو هم نياتهم طيبة، لِم لم يعذر الله المشركين الذين قال الله عنهم: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[الزمر:٠٣]؟ لِم لم يقبل اعتذارهم هٰذا ويتركهم ولم يرسل إليهم الرسل؟ ما قبل؛ لأن هٰذا لا قيمة له؛ بل لابد أن يوحدوه ويصرفوا جميع أنواع العبادة له وحده دون سواه، فإذا لم يوحدوه ولم يصرفوا جميع أنواع العبادة له فقد أشركوا به ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦)﴾[الأحقاف:٥-٦].

[المتن]

والأدلة الدّالة على أنه تعالى يجب أن يكون وحده هو المألوه [يبطل][1] هٰذا الشرك و[يدحض][2] حُجَج أهله، [وهي][3] أكثر من أن يحيط بها[4] إلا الله.. بل [كل ما][5] خلقه الله

---

(١) في المخطوط [أ]: **تبطل**. وهو الصواب.

(٢) في المخطوط [أ]: **وتدحض**. وهو الصواب.

(٣) في المخطوط [ب]: **وهو**.

(٤) في النسخة [ر]: به.

(٥) في المخطوط [أ] و[ب]: **كلما**.

تعالى فهو آية شاهدة بتوحيده، وكذلك [كل ما][١] أمر به، فَخَلْقُهُ وأمره وما فطر عليه عباده [وركّبه][٢] فيهم من [القوى][٣] شاهدٌ [بأنه][٤] الله [هو][٥] الذي لا إلـٰه إلا هو، وأن كل[٦] معبود سواه باطل، وأنه [الله][٧] هو الحقّ المبين تقدّس وتعالى.

[و][٨]واعجبا كيف يُعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريكة ... وتسكينة أبدا شاهد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد[٩]

[الشرح]

إذن هٰذا تقرير لما سبق من أن الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- مادام هو الذي أوجد الآيات العظام من خلق الإنسان وخلق السمٰوات والأرض والجبال والأشجار والنجوم والشمس والقمر وسائر المخلوقات؛ بل كل ذرة من ذرات النفس والجسم البشري، آية عظيمة على وحدانية الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ-، ولذلك ذكر الأبيات التي ختمها بقوله: (وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد) ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢)﴾[الذاريات:٢٢]، ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١)﴾[الذاريات:٢١]، ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾[الذاريات: ٢٠]، ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١)﴾[الغاشية:١٧-٢١].

إذن جميع هٰذا الكون وجميع ذراته وحركاته وسكناته دليل عظيم على وحدانية الله، وأنه وحده المستحق للعبادة دون سواه.

---

(١) في المخطوط [أ] و[ب]: **كلما**.
(٢) في المخطوط [ب]: وركب.
(٣) في المخطوط [أ] والنسخة [ر]: **العقول**. وفي المخطوط [ب]: **العقل**.
(٤) في المخطوط [ب]: **بأنّ**.
(٥) زيادة من المخطوط [أ].
(٦) توجد زيادة هنا في النسخة [ر]: **شيء**.
(٧) زيادة من المخطوط [أ].
(٨) في المخطوط [ب]: **فـ**.
(٩) هٰذا لأبي نواس كما قال ابن خلكان في وفياته (١٣٨/٧). [ع] قلت: وقد نسبه السيد أحمد الهاشمي في كتابه جواهر الأدب لأبي العتاهية، وهو المشهور. وفي [سج]: **الواحد**.

[المتن]

والنوع الثاني من [الشرك:][1] الشرك به تعالى في الربوبية كشرك من جعل معه خالقا آخر كالمجوس وغيرهم الذين يقولون [بأن][2] للعالم ربَّين، أحدهما خالق الخير، [[ويقولون له بلسان الفارسية: ((يزدان)).[3]][4] والآخر خالق الشر [ويقولون[5] له [المجوس][6] بلسانهم: ((أهرمن))[7][8].][9]

وكالفلاسفة ومن تبعهم الذين يقولون بأنه لم يصدر عنه إلا واحد بسيط، وأن مصدر المخلوقات كلها عن العقول [والنفوس][10]، وأن مصدر هٰذا العالم عن العقل الفعّال، فهو رب كل ما تحته ومدبِّره.

وهٰذا [أشر][11] من [شرك][12] عبّاد الأصنام والمجوس والنصارى، وهو أخبث شرك في العالم، إذ يتضمّن من التعطيل وجحد [الإلٰهية[13] والرّبوبية][14] واستناد الخلق إلى غيره [سُبْحَانَهُ وَتَعَالٰى][15] ما لم يتضمّنه شرك أمة من الأمم.

---

(١) غير موجودة في المخطوط [ب].

(٢) غير موجودة في المخطوط [ب].

(٣) معناه: الله، كما في هامش الأصل، [ع]

(٤) غير موجودة في المخطوط [ب].

(٥) هٰذا جائز في اللغة، وانظر ((فتح الباري)) (٢/٣٤). [ع]، وفي النسخة [ر]: **يقول**.

(٦) غير موجودة في [سج].

(٧) معناه: الشيطان كما في هامش الأصل. [ع]

(٨) غير موجودة في المخطوط [ب].

(٩) غير موجودة في المخطوط [أ].

(١٠) غير موجودة في المخطوط [ب].

(١١) في المخطوط [أ] والنسخة [سج] والنسخة [ر]: **شر**.

(١٢) غير موجودة في المخطوط [ب].

(١٣) في النسخة [سج]: **الألوهية**.

(١٤) في المخطوط [أ] و[ب]: **إلٰهيته سبحانه وربوبيته**.

(١٥) غير موجودة في المخطوط [أ] و[ب].

[الشرح]

النوع الثاني هو الشرك في الربوبية، والشرك في الربوبية أقل بكثير من الشرك في الألوهية، وعامة الكفار يقرون بأن الله رب كل شيء ومليكه؛ لكنهم يجحدون توحيد العبادة، ومع ذلك فقد وجد الشرك في الربوبية لدى طوائف منها المجوس، وقد سبق أن أشرنا إلى مذهبهم حيث أثبتوا خالقين خالق الخير وهو النور وخالق الشر وهو الظلمة، ومنهم من يقول: خالق الخير الذي هو ((يزدان)) ويعنون به الله، وخالق الشر وهو ((أهرمن)) بمعنى أنه هناك خالقين، وقد أشبههم القدرية كما أخبرنا كما بينا وجه الشبه فيما مضى لذلك سُمُّوا مجوس هٰذه الأمة.

كذلك الفلاسفة الذين قالوا: إنّ العالم كله نشأ عن العقل الفعال، وأن العقول الفعالة أو العقل الفعال هو الذي أفاض على هٰذا الخلق فوُجد، وما هو العقل الفعال؟ تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا سواء جعلوا ذلك العقل الفعال هو أمر خلقه الله، أم اعتبروا أنه الله، ففي كلا الحالين فإنه كفر ورد وإنكار لتوحيد الربوبية، وهو أن الله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ – رب كل شيء ومليكه، وهو من أعظم ومن أقبح أنواع الكفر؛ بل إن عبّاد الأصنام أحسن منهم حالا، على أنّ الكلُّ كافر ولكن كما يقال:

..... حَنانَيكَ بَعضُ الشَرِّ أَهوَنَ مِن بَعضِ[1]

لأن هؤلاء ينكرون الرب بالكلية ويجعلون العقل الفعال هو الذي أفاض هٰذه العلوم التي وجد بها الناس ووجد بها الخلق قاطبة، وهم أنفسهم يرون أنه لا يوجد رب ينادي ويتكلم ويرحم ويرزق ويُدخل الجنة ويُخرج من النار أن ذلك لا يوجد، إنما هي خيالات أريد منها إصلاح البشر، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

لذلك فإن هؤلاء هم من شر الخليقة، وهم الفلاسفة الذين يقولون حتى في الجنة والنار: أنها خيالات، ويقولون عن كثير من أمور الدين: إنها خيالات لا حقيقة لها، ولذلك فهم أبعد الناس عن المنهج الحق.

([1]) وهو بيت لطَرَفَة بن العبد الشاعر الجاهلي المعروف وتكملته:

أَبا مُنذِرٍ أَفنَيتَ فَاستَبقِ بَعضَنا حَنانَيكَ بَعضُ الشَرِّ أَهوَنَ مِن بَعضِ

[المتن]

وشرك القدرية مختصر من هٰذا، وباب يُدخل منه إليه، ولهٰذا شبّههم الصحابة – رَضِيَ اللهُ عَنْهُم – بالمجوس كما ثبتَ عن ابن عمر وابن عباس[١] -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم-، وقد روى أهل السنن فيهم ذلك مرفوعا[٢] أنهم مجوس هٰذه الأمة.

وكثيرا ما يجتمع الشِّركان في العبد، وينفرد أحدهما عن الآخر.

والقرآن الكريم؛ بل الكتب المنزّلة من عند الله تَعَالىٰ كلها مصرِّحة بالرّد على أهل هٰذا الإشراك كقوله تَعَالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فإنّه ينفي شرك المحبة والإلٰهية، وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإنه ينفي شرك الْخَلق والربوبية.

فتضمّنت هٰذه الآية تجريد التوحيد لرب العالمين [في][٣] العبادة وأنه لا يجوز إشراك غيره معه [لا][٤][في الأفعال][٥] ولا في الألفاظ ولا في الإرادات.

[الشرح]

هنا يؤكد أن الشرك لا يخرج عن هٰذين الأمرين وهو الشرك في الربوبية والشرك في الألوهية ولذلك رد الله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ– وبيّن أنه من أراد أن يخلص من هذين الأمرين أن يتأمل قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾[الفاتحة:٥]، فإنّ قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ردٌّ على شرك الألوهية، و﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ رد على شرك الربوبية؛ لأنّ الاستعانة يدخل فيها كل ما أنعم الله به علينا من خير نستعينه بها ونستعينه عليها أي على شكرها، فإذا قلت: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإنّ ذلك بين

---

(١) أنظر ((أصول الاعتقاد)) (١١٥٠ فما بعده) للإمام اللالكائي. [ع]

(٢) رواه عن ابن عمر أبو داوود (٤٦٩١)، والحاكم (٨٥/١)، والبيهقي في ((الاعتقاد)) (٣٣٦) بسند منقطع، وله طريق أخرى عند أحمد (٨٦/٢و١٢٥)، وابنه عبد الله في ((السنة)) (١٢٢)، وابن أبي عاصم (٣٣٩)، وابن الجوزي في ((العلل المتناهية)) (٢٢٧و٢٢٨)، وفيه ضعف، وفي الباب عن أنس وأبي هريرة وجابر وحذيفة، ونقل السيوطي في اللآلئ)) (٢٥٩/١) عن العلائي قوله: ينتهي بمجموع طرقه إلى درجة الحسن الجيد المحتج به إن شاء الله، وحسّنه الحافظ في ((أجوبة أحاديث المشكاة)) (١٧٧٩/٣)، وشيخنا الألباني في ((ظلال الجنة)) (٣٢٨و٣٢٩) و((تخريج الطحاوية)) (٢٤٢)، و((تخريج المشكاة)) (١٠٧). [ع] وجوّد إسناده الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة تحت رقم (٢٧٤٨)

(٣) في [سج]: مِنَ.

(٤) زيادة من النسخة [سج].

(٥) غير موجودة في النسخة [ر].

العبد وبين ربه كما دل على ذلك الحديث، فـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هٰذه للرب و﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هٰذه للعبد، فعلينا أن نتأمل هٰذه الآية الكريمة عندما نقرؤها ولا نمر بها مرور الكرام دائما ولا نتأملها ولا ندري ما هو معناها، ولذلك فإنّ تأمل القرآن وتدبره أمر واجب عظيم يجب على كل مسلم أن يفعله -التدبر والتأمل- ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)﴾[محمد:٢٤]؛ ولذلك يقول أبو عبد الرحمـٰن السلمي رحمه الله: كان الذين يقرئوننا القرآن أبيّ بن الكعب وزيد بن ثابت وعثمان بن عفان لا يتجاوزون بنا عشر آيات حتى نتعلم ونعمل بهن، فتعلّمنا العلم والعمل جميعا. أو كما قال رحمه الله تعالى.

فإن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي نخضع لك ونذل لك ونعبدك ولا نعبد سواك، وقد قدّم المعمول الذي هو ﴿إِيَّاكَ﴾ على الفعل الذي هو ﴿نَعْبُدُ﴾ ليفيد الحصر.

وكذا ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الذي هو إشارة إلى توحيد الربوبية، ومع ذلك فإنّه يدلّ أيضا على توحيد الألوهية؛ لأن توحيد الربوبية -كما نعلم- يستلزم توحيد الألوهية، وتوحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية.

فلذلك مثل بهٰذه الآية الكريمة التي جمعت بين التوحيدين.

[المتن]

فالشرك به في الأفعال كالسّجود لغيره سُبْحَانَهُ [وَتَعَالَىٰ][١]، والطواف بغير [بيته][٢] المحرّم، وحلق الرأس عبودية[٣] وخضوعاً لغيره،[٤] وتقبيل الأحجار غير الحجر الأسود الذي هو يمينه [تعالى][١] في الأرض[٢] أو تقبيل القبور واستلامها والسجود لها.

---

(١) غير موجودة في المخطوط [ب].

(٢) في المخطوط [أ]: **البيت**.

(٣) جاء في هامش المخطوط [أ]: خرّج أبو نعيم في الحلية من حديث فضيل بن عياض قال: سمعت عبد الملك بن جرير يقول: حدثني عطاء عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لا توضع النّواصي إلا لله تَعَالَىٰ في حج أو عمرة فما سوى ذلك فمثلة**)). قال أبو نعيم: غريب من حديث الفضيل لم نكتبه إلا من هٰذا الوجه.

(٤) حلق الرأس ثلاثة انواع (زاد المعاد ١٣٧/٣):

الأول: نسك وقربة وهو الحلق في الحج والعمرة.

الثاني: بدعة وشرك وهو حلق الرأس لغير الله كما يحلقها المريدون لشيوخهم.

الثالث: حاجة ودواءكأمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكعب بن عجرة بحلق رأسه لتناثر القمل على وجهه.

وقد لعن النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ [وَآلِهِ][٣] سَلَّمَ – من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد [يصلى [لله][٤] فيها][٥].. فكيف من[٦] اتخذ القبور أوثانا تُعبد من دون الله [تعالى][٧]؟ [فهٰذا لم يعلم معنى قول الله تعالى][٨]: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[الفاتحة:٥].

وفي الصحيح[٩] عنه – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ [وَآلِهِ][١٠] سَلَّمَ – أنه قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» [يُحَذِّر ما صنعوا][١١].

وفيه[١٢] عنه أيضا: «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد».

=

(١) غير موجودة في [سج].

(٢) فيه نظر إذ ورد هٰذا بحديث لا يصح عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رواه ابن عدي (٣٣٦/١) والخطيب (٣٢٨/٦)، وفي سنده الكاهلي وهو وضاع، وقد فصّل شيخنا العلامة الألباني الكلام على هٰذا الحديث في كتابه المفيد سلسلة الأحاديث الضعيفة (رقم ٢٢٣). [ع]

(٣) غير موجودة في المخطوط [أ] و[ب] والنسخة [ر]. وفي النسخة [سج]: **وعلى آله**.

(٤) زيادة من المخطوط [أ]. وفي النسخة [ر]: مساجد لله يصلى فيها.

(٥) غير موجودة في [سج].

(٦) في النسخة [ر]: **بمن**.

(٧) غيرموجودة في الخطوط والنسخة [ر].

(٨) غير موجودة في [سج].

(٩) **البخاري**: كتاب الجنائز، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور، حديث رقم (١٣٣٠)

مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، حديث رقم (٥٢٩)

وليس في الحديث (يحذر ما صنعوا) إنما هو في حديث آخر.

(١٠) غير موجودة في المخطوط [أ] و[ب] والنسخة [ر]. وفي النسخة [سج]: **وعلى آله**.

(١١) غير موجودة في المخطوط [أ] و[ب] والنسخة [ر]. وهي من المدرجات وهي في: **البخاري**: كتاب الصلاة، باب (٥٥)، حديث رقم (٤٣٥،٤٣٦).

مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، حديث رقم (٥٣١)

(١٢) ليس في الصحيح، إنما رواه أحمد (٤٣٥/١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٤٥/٣)، وابن خزيمة (٧٨٩)، وابن حبان (٣٤٠ و٣٤١-موارد)، والطبراني في الكبير (١٠٤١٣)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (١٤٢/١) عن بن مسعود بسند حسن كما قال الهيثمي في المجمع (٢٧/٢)، وجوّد إسناده شيخ الإسلام في «الاقتضاء» (٣٣٠).

=

وفيه[١] أيضا عنه- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ [وآله][٢] وَسَلَّمَ -: ((**[ألا و][٣]إنّ من كان قبلكم كانوا يتّخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإنّي أنهاكم عن ذلك**)).

[الشرح]

هنا المصنف - رحمه الله - أخذ يقرر ما يناقض أو يكون سببا في مناقضة قوله تَعَالىٰ: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾[الفاتحة:٥] وهو التعلق بأصحاب القبور والنذر لهم والذبح لهم والطواف بقبورهم ودعائهم من دون الله؛ لأن ذلك هو المنتشر لاسيما في عهده رحمه الله تَعَالىٰ -في عهد المقريزي- فقد تكاثرت القباب التي تعبد من دون الله، والتي ابتدأت من عهد ما يسمى بالدولة الفاطمية وهي العبيدية اليهودية أو المجوسية والباطنية التي تدين بدين الاسماعيلية ومن شاكلها، وهم العبيديون أتباع عبيد الله بن ميمون القداح يقال: إنه يهودي، ويقال: إنه مجوسي. ثم انتسب إلى أهل البيت زورا وبهتانا وظلما وعدوانا، ومن ذلك التّاريخ ومن عهده ومن عهد أبنائه انتشرت الفتنة بالقبور وبأصحاب القبور، وكأن الناس لم يسمعوا النهي الثابت عن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وقد أورد المصنف هنا منه عدة أحاديث منها حديث: ((**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**))، ((**ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك**))، وقوله- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : ((**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**))، وقوله- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : ((**إن شر الخلق عند الله الذين يتخذون قبور أنبيائهم مساجد**))، وقد فُتن الناس بذلك إلى هٰذا العصر، وحتى هٰذه البلاد قبل ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - ومؤازرة الإمام محمد بن مسعود - يرحمه الله - له، كلّ الناس كانوا آنذاك يعبدون القبور في بلاد نجد والحجاز والشرقية وغيرها؛ ولكن الله حفظهم وأنقذهم بدولة التوحيد التي قضت على تلك القِباب التي تُعبد من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ.

=

قلت: ولعل منشأ الوهم عند المصنف - رحمه الله - أن البخاري قد علق الشطر الأول من الحديث في ((صحيحه)) (١٣/١٤)، دون ذكر ((**الذين يتّخذون القبور مساجد**)) وقد بيّض الحافظ ابن حجر في ((تغليق التعليق)) (٥/٢٧٨) لهٰذا الحديث!!! وتكلم فيه في ((هدي الساري)) (٦٨) فليراجع. [ع]

(١) **مسلم**: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، حديث رقم (٥٣٢).

(٢) غير موجودة في المخطوط [أ] و[ب] والنسخة [ر].

(٣) زيادة من النسخة [ر].

إن عليا – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– قال لأبي هياج الأسدي: يا أبا الهياج ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، بأن لا تدع قبرا مشرفا إلا سويته ولا صورة إلا طمستها.[1]

والمقصود أنّ الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– قد حذّر على لسان رسوله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – من التعلق بالقبور وأصحاب القبور من دون الله، تلك القبور التي تحولت إلى أصنام وأوثان في كثير من البلاد، ولذلك تقول عائشة – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا – عندما ذكرت بعض هٰذه الأحاديث تقول: يحذر ما صنعوا. أي يحذر من صنيعهم عندما اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

طيب، فإن قال لنا قائل: كيف تقولون هٰذا والأحاديث الكثيرة كما سمعنا، وما بال قبر النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الآن جاء في المسجد؟

والجواب: أن ذلك العمل لم يفعله النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ولا أصحابه من بعده، وإنما فعله الوليد بن عبد الملك – رحمه الله – من باب التّوسعة لا لقصد إدخال القبر، فدخلت جميع حجرات أمهات المؤمنين في توسعة المسجد، رغم معارضة بعض الصحابة والتابعين له؛ لكنه فعل ذلك، وجاء الخلفاء بعده، فلم يغيروا من ذلك شيئا إلا أنهم حرصوا كل الحرص عبر التاريخ أن لا يجعلوه في وسط المسجد، ولذلك ما بنوا من الجنوب أبدا أية بناية، ما بُنيت أية بناية من الناحية الجنوبية على مرّ العصور والأزمان.

فحرص المسلمون على أن لا يتوسّع أكثر من هٰذا، فهٰذا ليس فيه حجة لأمرين:

الأمر الأول: أنه لم يأمر به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ و لم يفعله و لم يقره.

الأمر الثاني: أن الوليد قد نُصح من هٰذا التصرف.

وهناك **أمر ثالث** وهو أنه لم يكن قصده إدخال القبر لذاته، وإنما من باب توسعة المسجد.

وهناك **أمر رابع** وهو أن السلف قد اهتموا بأن لا يزيدوا على ذلك المبنى من الناحية الجنوبية وإلى يومنا هٰذا – ولله الحمد – ، حتى في التوسعة الجديدة توسعة خادم الحرمين وفقه الله وأعوانه، وحرصوا أن يبقى القبر بمعزل عن المسجد؛ بل أضيفت حواجز جعلت الطواف به مستحيلا كما كان يفعله الحجاج سلفا ولله الحمد.

([1]) **مسلم**: كتاب الجنائز، باب الأمر بتسوية القبر، حديث رقم (٩٦٩).

[المتن]

وفي «مسند» الإمام[١] أحمد و«صحيح» ابن حبان عنه – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ [وآله][٢] وَسَلَّمَ–: «لعن الله زوّارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج».[٣]

وقال: «اشتد غضب الله على [قوم][٤] اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».[٥]

وقال: «إن من كان قبلكم كانوا إذا مات فيهم الرجل الصّالح بنوا على قبره مسجداً وصوّروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله».[٦]

والناس في هٰذا الباب –أعني زيارة القبور–، [على][٧] ثلاثة أقسام[٨]:

- قوم يزورون الموتى فيدعون لهم، وهٰذه [هي][٩] الزيارة الشرعية.
- وقوم يزورونهم يدعون بهم، فهؤلاء [هم المشركون [في الألوهية والمحبة][١٠].

---

(١) غير موجودة في النسخة [ر].

(٢) غير موجودة في المخطوط [أ] و[ب] والنسخة [ر].

(٣) هو في المسند (٣٣٧/٢)، وفي ابن حبان (٧٨٨–موارد)، ورواه الترمذي (٣٢٠)، وأبو داوود (٣٢٣٦)، والحاكم (٣٧٤/١)، والبيهقي (٧٨/٤)، والطيالسي (١٧١/١)، والبغوي (٥١٠) عن ابن عباس بلفظ «..زوارات..»، وسنده ضعيف، وطرفه الأول ورد من حديث حسان بن ثابت، رواه أحمد (٤٤٢/٣ و٤٤٣)، وابن أبي شيبة (٣٤٥/٣)، وابن ماجه (١٥٧٤)، والطبراني في الكبير (٣٥٩١ و٣٥٩٢) والحاكم (٣٧٤/١)، والبيهقي (٧٨/٤) وفي سنده راوٍ مجهول، ومن حديث أبي هريرة عند الطيالسي (٨١٧–ترتيبه) ، وأحمد (٣٣٧/٢ و٣٥٦)، والترمذي (١٠٥٦)، وابن ماجه (١٥٧٦)، وابن حبان (٧٨٩)، والبيهقي (٧٨/٤) وفيه من تكلم فيه ورواه عبد الرزاق عن عكرمة مرسلا بإسناد صحيح.

فالحديث إن شاء الله حسن، وصححه البغوي في شرح السنة (٤١٧/٢)، وابن قدامة في الكافي (٢٧٥/١). [ع]

(٤) في المخطوط [أ] و[ب]: **أقوام**.

(٥) رواه مالك (١٧٢/١)، وعنه ابن سعد (٢٤٠/٢)، عن عطاء مرسلا بسند صحيح، ورواه عبد الرزاق (٤٠٦/١)، وابن أبي شيبة (٣٤٥/٣) بسند صحيح مرسل عن زيد بن أسلم، ووصله أحمد (٢٤٦/٢)، والحميدي (١٠٢٥)، وأبو نعيم (٢٨٣/٦) عن أبي هريرة بسند حسن. [ع]

(٦) **البخاري**: كتاب الصلاة، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد، حديث رقم (٤٢٧).

مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، حديث رقم (٥٢٨).

(٧) غير موجودة في المخطوط [ب] والنسخة [ر].

(٨) جاء في هامش المخطوط [أ]: **قف على الزيارة الشرعية والبدعية والشركية**.

(٩) غير موجودة في [سج].

(١٠) في المخطوط [أ] والنسخة [ر]: **وجهلة العوام والطغام من غلاتهم**.

- وقوم][1] يزورونهم فيدعونهم أنفسهم، وقد قال النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ [وآله][2] وَسَلَّمَ-: ((اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد)).[3] [وهؤلاء هم المشركون في الربوبية][4].

وقد حمى النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - جانب التوحيد أعظم حماية تحقيقا لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[الفاتحة:٥]، حتى نهى عن الصلاة في هٰذين الوقتين لكونه ذريعة إلى التشبيه بعبّاد الشّمس الذين يسجدون لها في هاتين الحالتين.

[وسدَّ الذريعة][5] بأن مَنَعَ الصلاة بعد العصر و[أول][6] الصبح لاتصال هٰذين الوقتين [اللذين][7] يسجد المشركون فيهما للشّمس.

وأما السّجود لغير الله فقد قال- عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: ((لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد إلا لله)).[1] و(لا ينبغي) في كلام الله ورسوله إنما تستعمل[2] للذي هو في غاية الامتناع كقوله

([1]) غير موجودة في المخطوط [ب].

([2]) غير وجودة في المخطوط [أ] و[ب] والنسخة [ر]. وفي النسخة [سج]: **وعلى آله**.

([3]) تقدم تخريجه ضمن حديث ((**إشتد غضب الله على**...)) فهو قطعة منه [ع] أنظر الصفحة (**٦١**).

([4]) غير موجودة في المخطوط [أ] و[ب] والنسخة [ر].

قلت: وأجاب أبناء شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب وحمد بن ناصر ضمن سؤال عن زيارة قبر النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فقالوا: وإن كانت الزيارة بغير شد رحل فهي مستحبة، كزيارته - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - القبور، وأمره بها؛ وفي الحديث عنه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أنه سن للزائر أن يقول: ((**السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون. يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين. نسأل الله لنا ولكم العافية. اللهم لا تحرمنا أجرهم، ولا تفتنا بعدهم، واغفر لنا ولهم**)). هٰذه هي الزيارة الشرعية التي فعلها - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وأمر بها، وهي دعاء الله للميت المسلم لا دعاء الميت نفسه.

ولا يتحرى الدعاء عند قبره؛ فإن دعاء الزائر صاحب القبر شرك أكبر يخرج من ملة الإسلام، وهو شرك عابدي الأصنام قبل بعث الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وتحري دعاء الله عند القبر ذريعة إلى ذلك، ولكن لا يكون شركاً. والنبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سد الذرائع إلى ذلك، حذراً من فعل هؤلاء القبوريين المفتونين بعبادة أهل القبور قديماً وحديثاً، إما أن يدعوهم، وإما أن يوهمهم الشيطان أن دعاء الله عندهم مستجاب، حتى يوقعهم في الشرك بهم، وفي عكس المراد من الزيارة للقبور، وهي: الاتعاظ، ودعاء الله لأهلها. وهذا هو دعاء أهل القبور لا دعاء لهم. الدرر السنية (ج٥ ص٣٩٢-٣٩٣)

([5]) في المخطوط [ب] والنسخة [سج]: وسدّا للذريعة.

([6]) زيادة من المخطوط [ب].

([7]) في المخطوط [أ]: **الذي**. وفي المخطوط [ب] والنسخة [ر] والنسخة [سج]: **بالوقتين اللذين**.

تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً﴾[مريم:٩٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾[يس:٦٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾[الشعراء:٢١٠-٢١١]، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾[الفرقان:١٨].

[الشرح]

تكلم المصنف على حديث «**لعن الله زوارات القبور من النساء والمتخذين عليها المساجد والسُّرج**» وهٰذا اللفظ الذي أورده المصنف هو أصح ألفاظ هٰذا الحديث، وهو حديث أبي هريرة - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - ، وهناك حديث بلفظ زائرات عن ابن عباس ولكنه ضعيف، والحديث الصحيح ما جاء بلفظ «**لعن الله زوارات**...» ويتعلق بهٰذا مسألتان:

المسألة الأولى: حكم زيارة القبور.

والمسألة الثانية: التقسيم الذي ذكره المصنف هنا.

نبدأ بالمسألة الأولى وهو حكم زيارة القبور، حكم زيارة القبور مستحب للرجال بالإجماع، وأما النساء ففي حكم زيارتهن خلاف، ويتلخص أن للعلماء فيها ثلاثة أقوال:

المنع مطلقا. أعني منع النساء مطلقا

والجواز مطلقا للرجال والنساء.

والتفصيل بأنه يجوز للنساء زيارة القبور إذا أُمِنت الفتنة بشرط عدم الإكثار والتردد، أخذا من لفظة «**زوارات**».

والذين منعوا مطلقا قالوا: إنه لا فرق بين مترددات وغير مترددات، سواء قال: زائرات أو زوارات، علما بأن فيه لفظ زائرات وإن كان فيه كلاما، وأيضا يستدل بأنهن منهيات عن اتباع الجنائز، فمن باب أولى النهي عن زيارة المقابر.

=

(١) صحيح ابن حبان، كتاب النكاح، باب في حق الزوج على المرأة، حديث رقم (١٢٩١) وأصله في الترمذي: كتاب الرضاع باب ما جاء في حق الزوج على المرأة، حديث رقم (١١٥٩)، قال الشيخ الألباني: حسن صحيح. أنظر إرواء الغليل حديث رقم (١٩٩٨) وهو في زاد المعاد (١٣٨/٣).

(٢) في النسخة [ر] والنسخة [سج]: **يستعمل**.

والذين أجازوا مطلقا استدلوا بأمرين:

الأمر الأول عموم قوله- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها تذكر الآخرة**»[1] فالخطاب وإن كان للذكور إلا أن النساء يدخلن في هٰذا على سبيل التغليب؛ لأنه كثيرا ما تأتي الخطابات يخاطب بها الرجال دون النساء والنساء يدخلن ضمنا، فتدخل في عموم «**فزوروها**».

الأمر الثاني أنه ثبت عن عائشة – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا – أنها زارت قبر أخيها عبد الرحمـٰن بن أبي بكر فسألها عبد الله بن أبي مليكة: ألم ينه رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عن زيارة القبور؟ قالت: نهى ثم أمر.

وبتأمل هٰذه الأقوال الثلاثة، يظهر لي –والله أعلم– أن القول بالمنع المطلق أولى بالنسبة للنساء، القول بالمنع مطلقا –منع النساء من زيارة المقابر مطلقا– هو القول الأولى، ولعدة أمور:

منها أن النهي عام «**لعن الله زوارات**» فكيف نقصره على فئة منهن بسبب لفظة «**زوارات**» وهو ضعيف هٰذا التمسك ضعيف.

الأمر الثاني أن فيه حديث بلفظ «**زائرات**» وإن كان ضعيفا إلا أنه يُعاضِد هٰذا المعنى الذي دل عليه الحديث الآخر.

والأمر الثالث أنهن منهيات عن اتّباع الجنائز، فمن باب أولى زيارة المقابر.

الأمر الرابع أنه أدى إلى اختلاط في كثير من المساجد لاسيما المساجد التي توجد بها القبور فأدى ذلك إلى وقوع فتن ومآسي خطيرة.

الأمر الخامس سد الذريعة فإنه إذا خشي أن يفضي ذلك إلى الجزع والتسخط منهن، فالواجب منعهن ولو من باب سد الذريعة.

فأرجح الأقوال فيما يظهر لي –والله أعلم– هو المنع المطلق بالنسبة للنساء.

وأما تفصيل المصنف رحمه الله هنا أن الناس تجاه هٰذه الزيارة ثلاثة أقسام:

قسم يزورون ويدعون للميت، وهٰذا مشروع لاسيما في حق الرجال –كما بيّنّا– بدون شد رحال وبدون انتقال من بلد إلى بلد من أجل زيارة المقابر، وما يفعله بعض العوام في كثير من البلدان، من أنه إذا أراد أن يأتي إلى الحج لابد أن يشد الرحال أولا إلى شيخه صاحب الطريقة ليستأذنه في الحج،

([1]) **مسلم**: كتاب الجنائز، باب استئذان النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ربه عز وجل في زيارة قبر أمه، حديث رقم (٩٧٧).

فيذهب إليه في قبره ويكلمه ويتبرك به ثم يأتي إلى الحج، وهٰذا من أعظم الضلال وإن دعاه من دون الله فهو الشرك الأكبر؛ لأن الغرض من زيارة القبور أمران:

الأمر الأول الدعاء للميت والسلام عليه.

والأمر الثاني التذكر والاعتبار «**كنت نهيتكم على زيارة القبور ألا فزوروها فإنها تذكر الآخرة**»، والدعاء نقتصر على الدعاء الوارد، لا نقرأ الفاتحة عند الموتى، ولا نقرأ القرآن، ولا نمد أيدينا نحوهم، ولا نربط الخرق ولا نتمسح بأعتابهم؛ بل نقول: السلام عليكم أهل الديار من المسلمين والمؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين، نسأل الله لنا ولكم العافية. ثم ننصرف.

الأمر الثاني دعاؤهم والتوسل بهم والدعاء بهم، وهٰذا يحتمل أمرين:

إن قصد مجرد التوسل، فهو توسل بدعي محرم، وربما نلقي كلمة خاصة عن التوسل في وقت لاحق إن شاء الله.

وإن كان المراد التعلق بهم ودعاؤهم، وإن كان بلفظ التوسل؛ لكن يعتقد أنهم يقربونه إلى الله زلفى، فهٰذا هو الشرك بعينه.

والأمر الثالث هو دعاؤهم مباشرة، فطلب الشفاعة منهم مباشرة، كما هو حال كثير من الناس مع أصحاب القبور في هٰذا الزمان، كما قلنا يسأله قضاء الحاجات والغوث والعون والتوفيق، ويستأذنه في كل شيء، ويطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله، ويدعوه من دون الله، فإنه لا يستجيب له؛ بل هو شرك لا يستجيب له؛ بل قد أشرك بالله غيره ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦)**﴾[الأحقاف:٥-٦]، ﴿**وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣)**﴾[فاطر:١٣]، قطمير اللفافة التي على نوى التمر، ﴿**إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤)**﴾[فاطر:١٤] تضمن هٰذا الأمر أربع مقامات أو تضمنت هٰذه الآية أربعة مقامات:

المقام الأول أنهم لا يملكون من دون الله من شيء مطلقا، وعبر بالقطمير كناية عن أحقر الأمور، فهم لا يملكون شيئا من دون الله ولو ملكوا لأخرجوا أنفسهم من هٰذه الحفرة؛ لكنهم لا يملكون وفاقد الشيء لا يعطيه.

الأمر الثاني أنهم لا يسمعون الدعاء ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢)﴾[فاطر:٢٢].

الأمر الثالث لو فرضنا جدلا أنهم يسمعون، فإنهم لا يقدرون على الإجابة؛ لأن الإجابة لا يقدر عليها إلا الله.

الأمر الرابع أنهم يتبرؤون منهم يوم القيامة: ﴿رَبَّنَا هَؤُلاء الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣)﴾[القصص:٦٣].

هٰذا والله أعلم وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.[1]

(1) انتهى الشريط الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

المجلس الثالث

[المتن]

ومن الشرك بالله تعالى المباين[١] لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ الشرك به في اللفظ كالحلف بغيره، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود[٢] عنه – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أنه قال: «من حلف بغير الله فقد أشرك» صححه الحاكم وابن حبان.[٣]

قال ابن حبان: أخبرنا الحسن بن سفيان[٤]، حدثنا عبد الله بن عمر الجعفي حدثنا عبد الرحيم[٥] بن سليمان عن الحسن بن عبيد[٦] الله النخعي عن سعد[٧] بن عبيدة قال: كنت عند ابن عمر [رَضِيَ اللهُ عَنْهُما][٨] فحلف رجل بالكعبة فقال ابن عمر [رَضِيَ اللهُ

---

(١) المناقض [ع]

(٢) **مسند أحمد (تحقيق أحمد شاكر)** حديث رقم (٥٣٧٥)، قال احمد شاكر: صحيح الإسناد.

سنن أبي داوود: كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء، حديث رقم (٣٢٥١)،

سنن الترمذي: النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، حديث رقم (١٥٣٥).

قال الشيخ الألباني: صحيح.

(٣) الحاكم (١/١٨ و٤/٢٩٧)، وابن حبان (١٧٧-موارد). [ع]

(٤) في ((الأصل)): **الحسن وسفيان**، والتصحيح من الموارد!![ع]، وكذلك في المخطوط [أ] والنسخة [ر] و[سج]: الحسن وسفيان.

(٥) في ((الأصل)): **عبد الرحمـٰن**، والتصحيح من الموارد !! [ع]، وكذلك في المخطوط [أ] و[ب] والنسخة [ر] و[سج]: عبد الرحمـٰن.

(٦) في ((الأصل)): **الحسن بن عبد الله**، والتصحيح من الموارد! [ع]، وكذلك في المخطوط [أ] و[ب] والنسخة [ر] و[سج]: الحسن بن عبد الله.

(٧) في ((الأصل)): **سعيد**، والتصحيح من الموارد! [ع] وأيضا في النسخة [سج].

(٨) غير موجودة في المخطوط [أ].

عَنْهُما][1]: وحيك! لا تفعل، فإني سمعت رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – [يقول][2]: «من حلف بغير الله [تَعَالَىٰ][3] فقد أشرك».

ومن الإشراك قول القائل لأحد من الناس: ما شاء الله وشئت. كما ثبت عن النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أنه قال له رجل: ما شاء الله وشئت، فقال: «[أجعلتني][4] لله ندًّا؟ قل: ما شاء الله وحده»[5] هٰذا مع أن الله [تعالى][6] قد أثبت للعبد مشيئة كقوله تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾[التكوير:٢٨]، فكيف بمن يقول: أنا متوكّل على الله وعليك، وأنا في حَسَبِ الله وحَسَبِكَ، وما لي إلا الله وأنت، وهٰذا من الله ومنك، وهٰذا من بركات الله وبركاتك، والله لي في السماء وأنت لي في الأرض.

[وزن][7] بين هٰذه الألفاظ الصادرة من غالب الناس اليوم وبين ما نهى [الله][8] عنه من: [ما][9] شاءَ الله وشئت، ثم انظر أيها أفحش، يتبيّن لك أن قائلها أولى بالبعد من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وبالجواب من النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – [لقائل تلك][10] الكلمة، وأنه إذا كان قد جعل رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ندّاً فهٰذا قد جعل من لا يدانيه [لله][11] نداً.

---

(١) غير موجودة في المخطوط [أ] و[ب] والنسخة [ر].

(٢) غير موجودة في النسخة [ر].

(٣) زيادة من المخطوط [أ] و[ب] والنسخة [ر]..

(٤) في المخطوط [ب]: **جعلت**.

(٥) **مسند أحمد (تحقيق أحمد شاكر)**: حديث رقم (١٨٣٩)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.
سنن البيهقي: كتاب الجمعة، باب ما يكره من الكلام في الخطبة، حديث رقم (٥٨١٢).
أورده الشيخ الألباني في **السلسلة الصحيحة** برقم (١٣٩) وقال: إسناده حسن.

(٦) في المخطوط [أ]: **سبحانه**. وفي النسخة [ر]: **وحده سبحانه**.

(٧) في المخطوط [أ] والنسخة [ر]: **فوازن**. في المخطوط [ب]: **وازن**.

(٨) زيادة من النسخة [ر].

(٩) غير موجودة في المخطوط [ب] والنسخة [ر].

(١٠) في النسخة [ر]: **للقائل لتلك**.

(١١) في النسخة [ر]: **لك**.

[الشرح]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

هٰذا الموضوع الذي تعرّض له المصنف من الحلف بغير الله وما أشبهه من الألفاظ الشركية من الموضوعات التي يمكن أن يقال: إنها موضوعات الساعة؛ لأنها تنتشر في كثير من المجتمعات عن قصد أو عن غير قصد.

فهٰذه الألفاظ التي ذكرها المصنف يقع فيها كثير من الناس، أو في ما يشبهها من الألفاظ الأخرى، وقد بدأها المصنّف رحمه الله ببيان حكم الحلف بغير الله، وأخبر أنه شرك يتعارض مع قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وأنه ينقضه، وللعلماء فيه تفصيل سأبينه بعد قليل؛ لكن هناك أحاديث أشار إليها المصنف، وهناك أحاديث أخرى لعلنا نُذَكر ببعضها.

فقد أورد حديث ابن عمر الصحيح: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**» وفي رواية عن عمر نفسه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من حلف بغير الله فقد كفر**» وهما روايتان صحيحتان ولعل ذلك شك من الراوي فقال كفر أو أشرك، وإذا أشرك فقد كفر.

ومما ورد في ذلك قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تحلفوا بآبائكم**»،[1] ومن ذلك قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما قال أحد الصحابة لرجل يهودي: إنكم لأنتم القوم لو لا أنكم تقولون: وعزير والمسيح، فقال اليهودي: وإنكم لأنتم القوم لو أنكم تقولون: والكعبة وتقولون: ما شاء الله وشاء محمد. فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تقولوا: والكعبة ولكن قولوا: ورب الكعبة، ولا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد؛ ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء محمد**»[2] وقال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت**»،[3] وقال عبد الله بن مسعود- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - : **لأن أحلف بالله كاذبا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقا**.[1]

([1]) **البخاري**: كتاب الأيمان والنذور، باب لا تحلفوا بآبائكم، حديث رقم (٦٦٤٦).

مسلم: كتاب الإيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تَعَالىٰ، حديث رقم (١٦٤٦).

([2]) **سنن النسائي**: كتاب الأيمان والنذور، باب الحلف بالكعبة، حديث رقم (٣٧٧٣). وأورده الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٣٦) وذكره مخارجه. وقال أخرجه النسائي بإسناد صحيح.

([3]) **البخاري**: كتاب الأيمان والنذور، باب لا تحلفوا بآبائكم، حديث رقم (٦٦٤٦).

=

وذلك لأن الحلف بالله على الكذب معصية وهي معصية خطيرة ولا شك وهي اليمين الغموس لكنها مع هٰذا أقل شأنا وأقل خطورة من الحلف بغير الله؛ لأن الحلف بغير الله شرك والحلف بالله على الكذب من المعاصي التي هي دون الشرك.

ويدخل في حكم ذلك ما أشار إليه المصنف ببعض الأمثلة كقولهم: ما شاء الله وشئت، أو لو لا الله وأنت، أو أنا بالله وبك، أو كما يقولون عندنا الآن العامة: أنا داخل على الله وعليك، أو أنا في حمى الله وحماك، أو نحو ذلك من الألفاظ الشركية؛ ذلك أن الواو تفيد التشريك وهي تفيد مطلق الجمع فتحتمل التشريك، لذلك حذر منها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما سمع الرجل الذي يقول: ما شاء الله وشئت فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أجعلتني لله ندا**» أي شبيها ومثيلا ونظيرا وفي رواية: «**أجعلتني لله عِدْلاً؟ قل ما شاء الله وحده**».[٢]

ولذلك فإن هٰذه الأشياء من ألوان الشرك، وتحتمل أمرين:

تحتمل أن تكون شركا أكبر إذا اعتقد أن المحلوف به في مترلة الله، أو يقدر على ما لا يقدر عليه إلا الله، أو اعتقد إن الذي قال: ما شاء الله وشئت، أو لو لا الله وأنت، أو أنا بالله وبك أن ذلك الذي شركه مع الله بحرف الواو أنه يقدر على ما لا يقدر عليه إلا الله، ففي هٰذه الحال يكون شركا أكبر ينقل عن ملة الإسلام، وصاحبه خالد مخلد في النار.

أما إذا قالها مع اعتقاده أن الأمور كلها بيد الله، وأن المحلوف به لا يداني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ، ولا يقدر على شيء مما لا يقدر عليه إلا الله، وإنما أمر جرى على لسانه بحكم العادة والتقاليد، فإن ذلك شرك أصغر، والشرك الأصغر هو أعظم الذنوب بعد الشرك الأكبر، وهو قد يجر إلى الشرك الأكبر.

إذن المسألة فيها تفصيل، إن اعتقد أن المحلوف به أو الذي نطق به مشرّكا مع الله بحرف الواو يقدر على ما لا يقدر عليه إلا الله، فهٰذا شرك أكبر، ينقل عن ملة الإسلام، وصاحبه كافر خالد مخلد في النار، ولا يغفر الله له إن فعل ذلك.

=

مسلم: كتاب الإيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تَعَالىٰ، حديث رقم (١٦٤٦).

(١) أورده الشيخ الألباني في **الإرواء** برقم (٢٥٦٢) وقال: أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢/١٧/٣)، وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) تم تخريجه في الصفحة (٦٨).

وإن اعتقد أن كل شيء بيد الله وأن هٰذا المحلوف به ليس في منزلة الله ولا يقدر على شيء مما لا يقدر عليه إلا الله؛ لكن غلبت عليه العادة والهوى والتقاليد، فصار يردد هٰذه الكلمة، فإنه أقل ما يقال فيه: إنه شرك أصغر والشرك الأصغر، وإن كان أعظم الذنوب؛ لكنه لا ينقل من ملة الإسلام إلا أنه خطير لأنه بريد الشرك الأكبر، وقد يوصل إلى الشرك الأكبر، وقد تنتشر بين الناس ألفاظ مماثلة، كقول بعض الناس: وحياتي وحياتك، وأمانتي والكعبة أو كما يقولون في الحجاز: وحياة القبة الخضراء، أو نحو ذلك من الألفاظ الشركية الأخرى، أو شرفي والكعبة، ولا أدري إذا كانت منتشرة هنا مثل هٰذه الألفاظ، على كل حال أي مسألة تماثل هٰذا فهي مسألة شركية، ولاسيما إذا كان المحلوف به يعتقد الحالف أنه يعني يعظّمه تعظيما خاصا بحيث يعتقد أن له بعض التصرف.

على أية حال، إذا وجد شيء من هٰذا فهو الشرك بعينه الذي بعث الله من أجله الرسل، وأنزل من أجله الكتب، لذلك يجب الحذر والتحذير منه خصوصا النساء؛ لأنهن قد لا تبلغهن أحيانا الدروس والمواعظ، فيجب أن يذكّرن، كذلك الحلف بالزهد أو بالنيات أو بالحلال أو بالعيال أو بالأمانة أو بالشرف أو بالحياة أو النعمة.. كل هٰذا من الشرك بالله، أو النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أو أي مخلوق كان ولو كان نبيا مرسلا أو ملَكا مقربا، فيجب أن نحذر من هٰذه الأمور، وأن نبتعد عنها لأنها قد تكون شركا أكبر كما فصلنا، وقد تكون على الأقل شركا أصغر، فينبغي أن نحذر منها بل يجب أن نحذر منها كل الحذر، وأن ننكر على من سمعناه يقول ذلك، وقد نبه المصنف إلى أنّ حلف الناس بغير الله، أو قول: أنا بالله وبك، وأنا بالله وفلان، أو نحو ذلك، أقل شأنا من قول: ما شاء الله وشئت، فإذا كان العبد له مشيئة ومع ذلك أنكر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التشريك بالواو؛ لأن العبد له مشيئة كما قال تعالى: ﴿**لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨)**﴾[التكوير:٢٨] بخلاف الجمادات والنباتات وما إلى ذلك، ومع ذلك حذر وقال: «**قل: ما شاء الله وحده**»[1] فما بالكم بمن يتعلق بشجر أو حجر ويقول: أنا بالله وبك يا صاحب هٰذا المقام.. أو نحو ذلك مما قد نسمعه أو يشاهد في كثير من الأماكن.

فإذا كان شيء من هٰذه العادات موجودا، فينبغي أن نحذر منه الناس وأن ننبههم على خطورته وأنه لا يتفق مع التوحيد؛ بل قد ينافيه بالكلية، وقد ينافي كماله على الأقل إذا كان من أنواع الشرك الأصغر.

---

(1) تم تخريجه في الصفحة (٦٨)

[المتن]

وبالجملة، فالعبادة المذكورة في قوله [تَعَالىٰ][١]: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [وبالجواب من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ][٢] هي السُّجود، والتوكل، والإنابة، والتقوى، والخشية، والتوبة، و[النذر][٣]، والْحَلِفُ، والتسبيح، والتكبير، والتهليل، والتحميد، والاستغفار، وحلق الرأس خضوعاً وتعبّداً والدعاء.. كل ذلك محض حق الله تَعَالىٰ.

وفي مسند[٤] [الإمام][٥] أحمد أن رجلاً أُتي به النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ [وآله][٦] وَسَلَّمَ – قد أذنب ذنباً، فلما وقف بين يديه قال: اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد. فقال– صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «عرف الحق لأهله». [وأخرجه][٧] الحاكم من حديث الحسن عن الأسود بن سريع، وقال: حديث صحيح.[٨]

[الشرح]

هنا مثّل المصنف رحمه الله ببعض أنواع العبادة فإن العبادة التي يتضمنها قوله –تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ–: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لا يمكن حصرها وما ذكره المصنف هو أمثلة من أنواع العبادة وإلا فإن أنواع العبادة كثيرة وتعلمون أنه قد عرفها شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – بأنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، فكل ما يدخل تحت هٰذا التعريف هو نوع من أنواع العبادة من الصلاة والزكاة و الصوم و الخشية والإنابة والاستعانة والاستغاثة والسجود والركوع والخضوع والخشوع والرجاء والاستعاذة.. وغير ذلك من أنواع العبادة، وحتى في الحركات مثل الركوع والسجود وحني الرأس.. وما إلى ذلك مما قد يفعله بعض الناس مع بعض الخبراء أو بعض

---

(١) غير موجودة في المخطوط [ب].

(٢) زيادة من النسخة [ر].

(٣) في النسخة [سج]: النذور.

(٤) (٤٣٥/٣)، والطبراني في ((الكبير)) (٨٣٩ و٨٤٠)، والحاكم (٢٥٥/٤)، عن الأسود بن سريع، وسنده ضعيف، فيه عنعنة الحسن، ومصعب القرقساني صدوق كثير الغلط، ونقل العجلوني في ((كشف الخفاء)) (٥٩/٢)، عن النجم أنه ضعيف![ع]

(٥) غير موجودة في النسخة [ر].

(٦) غير موجودة في المخطوط [أ] والنسخة [ر]..

(٧) في المخطوط [أ] و[ب] والنسخة [ر]: **خرّجه**.

(٨) واستدرك عليه الذهبي في تلخيصه بقوله: مصعب ضعيف! [ع]

الشيوخ الذين يرون أنهم أولياء فيحنون رؤوسهم إليهم ويركعون لهم من دون الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- وهٰذا من أخطر الأعمال التي ما زال كثير من الناس يقع فيها خصوصا مع مشايخ الطرق الصوفية الطواغيت الذين فتنوا الناس وأغروهم بعبادتهم من دون الله.

وفي بعض البلاد ممن ينتسب إلى الدعوة ويزعمون أنهم من أهل الدعوة، ويشتغلون بالخروج وما أدراك ما الخروج، نجدهم في بعض البلاد يخنعون ويخضعون لمشايخهم كما يُركع لله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ-؛ يعني يركعون لهم تماما، ويفعلون أشياء لا تجوز، ولعل من سافر إلى بعض البلاد يرى هٰذه المناظر الشركية الخطيرة، بعضهم يزحف زحفا حتى يصل إلى الشيخ، وبعضهم إذا أقبل عليه ركع؛ بل لاحظنا ونحن نشارك في دورة تقيمها الجامعة الإسلامية في بعض البلاد أنهم من استعباد مشايخ الطرق لهم إذا أقبلوا علينا نحن ركعوا أيضا، حتى أننا أنّبناهم ووبخناهم وقلنا لهم: هٰذا لا يجوز ولا ينبغي وهٰذا لا يجوز إلا لله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- فلما سألناهم قالوا: مشايخنا عوّدونا على هٰذا وللأسف تعلمون أن من رؤوس الطواغيت من دعا الناس إلى عبادة نفسه أو من عُبد وهو راضٍ من دون الله فهؤلاء مشايخ الطرق الصوفية أو مشايخ بعض الجماعات الدعوية المزعومة التي تنتسب إلى الدعوة وهي أبعد ما تكون عن منهج الدعوة الصحيح رأيناهم والله ووقفنا عليهم وهم يُخضع لهم ويُركع لهم كما يركع لله، ولا يحركون ساكنا ولا ينكرون منكرا.

وهٰذا من أنواع العبادة الذي لا يجوز تركه إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ.

والمسلم لا يخنع رأسه إلا لله، ولا يركع إلا لله، ولا يسجد إلا لله، ولا يستغيث إلا بالله ولا يستعين إلا بالله ولا يستجير إلا بالله، ولا يُعلق حوائجه إلا بالله، وأما من أعرض عن الله، فإنّ الله ربما يكِله إلى ما تعلق به والعياذ بالله فإذا وكَله فمن الذي يؤويه.

ولذلك ثبت في الحديث الصحيح من حديث عبد الله بن عُكيم - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال: «**من تعلق شيئا وُكِلَ إليه**»،[1] سواء تعلق بصنم أو وثن أو علق تميمة أو علق حجابا أو تعلق بشيخ أو تعلق بإنسان، مخلوقا كائنا من كان، تعلق العابد بمعبوده، فإن ذلك من الشرك بالله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ-، وهٰذا استعباد والعبودية لا تكون إلا لله، فمن ذهب يضاهي الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- في العبودية ودعا الناس إلى عبادة نفسه مثل ما يفعل شيوخ الطرق الصوفية وشيوخ بعض الجماعات الذين يُركع لهم وربما أنهم لا يشهدون لا جمعة ولا جماعة كما هو معروف

([1]) **سنن الترمذي**: كتاب الطب، باب في كراهية التعليق، حديث رقم (٢٠٧٢)، قال الشيخ الألباني: صحيح.

من شيخ أصحاب تلك الدعوة المزعومة في بلاد الهند وغيرها، نعم هو لا يحضر الرئيس العام لا يحضر جمعة ولا جماعة طاغوت قبحه الله جالس في مقصورته والناس يأتونه ويقبلون يديه ويركعون له، يطل عليهم فقط من طرف خفي، وهكذا شأن الطواغيت في كل مكان من أصحاب الطرق الصوفية ومشايخ الطرق ومن نهج نهجهم، فهٰذا الخبيث ولا أجد غضاضة من تسميته الذي يسمى نفسه إنعام الحسن، هٰذا الرجل الآن طاغوت يمثل الطواغيت الذين كانوا قبله ويبايعه الناس على الطرق الصوفية الأربعة المعروفة وهي الجشتية والنقشبندية والقادرية والسهروادرية، ومع ذلك فُتن به من فُتن وللأسف حتى في بلادنا أليس كذلك؟ نسأل الله العافية والسلامة.

فعلى المسلم الذي يريد أن يكون عمله خالصا لله أن لا يتعلق بأحد من دون الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ–، ولو كان ملكا مقربا أو نبيا مرسلا؛ لأنهم لا يملكون من دون الله شيئا، الرسول – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لما نزل عليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤)﴾[الشعراء:٢١٤]، نادى أقرب الناس إليه إلى أن قال: «**يا فاطمة** –وهي بنته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– **سليني من مالي ما شئت لا أغنيك من الله شيئا**».[1] هٰذا وهو من؟ وهو رسول الله سيد الأولين والآخرين فما بالكم بمن يتعلق بمن دونه أو يتمسح به وهؤلاء قد ينكرون يقولون: هٰذه الأشياء ما هي صحيحة؛ لكن نحن نؤكد لكم أنها صحيحة، وقد ذهبنا إليهم وشوهدت تلك الأشياء عن كثب وعن قرب، فهٰذه الشركيات التي الآن بعضنا يقع فيها وهو لا يدري، يتعلق بغير الله، يُجَرّ إليها وهو لا يدري، وربما طيف به في القبر وهو لا يدري أنه قبر يلفون به وهو لا يعلم ما هٰذا الذي يطاف به. فلنتنبّه لهٰذا لأن الشرك هو أعظم الذنوب لا يغفره الله كما تعلمون لمن مات عليه.

[المتن]

وأما الشرك في الإرادات والنيات، فذلك البحر الذي لا ساحل له، وقلّ من [ينجو][2] منه، فمن نوى بعمله غير وجه الله [تَعَالَىٰ][3] فلم يقم بحقيقة قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فإنّ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾

---

(١) **البخاري**: كتاب الوصايا، باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب؟ حديث رقم (٢٧٥٣).

مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله تَعَالَىٰ ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾، حديث رقم (٢٠٦).

(٢) في المخطوط [أ]: ينجوا. وهو خطأ واضح.

(٣) غير موجودة في المخطوط [ب].

هي الحنيفية ملة إبراهيم -[عليه السلام][١]- التي أمر الله بها عباده كلهم، ولا يُقبل من أحد غيرها، وهي حقيقة الإسلام ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[آل عمران:٨٥].

[فاستمسك][٢] بهٰذا الأصل، وَرُدَّ ما أخرجه المبتدعة والمشركون إليه، [تحقق][٣] معنى كلمة الإلٰهية.

فإن قيل: المشرك إنما قصد تعظيم جناب الله - تعالى -، وإنه لعظمته لا ينبغي [الدخول][٤] عليه إلا بالوسائط والشفعاء، كحال الملوك، فالمشرك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبية، وإنما قصد تعظيمه وقال: [﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾،][٥] وإنما أعبد هٰذه الوسائط لتقربني إليه، وَتَدخُلَ بي عليه، فهو الغاية، وهٰذه وسائل، فَلِمَ كان هٰذا القدر موجباً لسخط الله - تعالى - وغضبه، ومخلّداً في النار وموجباً لسفك دماء أصحابه واستباحة حريمهم وأموالهم؟ وهل يجوز في العقل أن يُشَرِّع الله تعالى لعباده التقرب إليه بالشفعاء والوسائط، فيكون تحريم هٰذا إنما استفيد بالشرع فقط، أم ذلك قبيح في الشرع والعقل [وهل][٦] [يمنع][٧] أن [تأتيَ][٨] به شريعة من الشرائع؟ وما السر في كونه لا يُغفر من بين سائر الذنوب كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[النساء:٤٨، ١١٦]؟

---

(١) زيادة من المخطوط [ب].

(٢) في المخطوط [ب]: **واستمسك**.

(٣) في النسخة [سج]: **تتحقق**.

(٤) ساقطة من المخطوط [ب].

(٥) غير موجوة في المخطوط [ب].

(٦) استدركتها لتصحيح السباق، فلعلها ساقطة.[ع]، قلت: بل بزيادة لفظة (هل) يتغير المعنى، فإن الجملة: فيكون تحريم هٰذا إنما استفيد بالشرع فقط، أم ذلك قبيح في الشرع، والعقل يمنع أن تأتيَ به شريعة من الشرائع؟

فيكون القبح من الشريعة والمنع من العقل.

(٧) في المخطوط [ب]: يمتنع.

(٨) في المخطوط [ب]: يأتي.

[الشرح]

المصنف – رحمه الله تعالى – بيّن هنا أولا أنّ من أعظم أنواع الشرك، الشرك في الإرادات والشرك في النيات؛ لأنّ تلك أعمال قلبية لا يطّلع عليها إلا الله، ولذلك يقول الله– تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ–: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦)﴾[يوسف:١٠٦]؛ لأنه قد يتعلق بغير الله بقلبه، ربما قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾[الفاتحة:٥] بلسانه؛ لكنه يستعين بغير الله ويتعلق بغير الله بقلبه، وقد ثبت أن النية هي الأساس؛ بل هي مناط صحة العمل، فإذا سلمت النية صح العمل مع العمل لقول النبي– صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا لأجسامكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[١] وقد قال الله – تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ– مبينا ذلك وخطورة النيات وصرفها لغير الله عز وجل قال تَعَالَىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩)﴾[الإسراء:١٨-١٩] وقال– تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ–: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠)﴾[الشورى:٢٠]، والآيات كثيرة في هٰذا الباب.

ومن الأحاديث قول النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «**إنّما الأعمال بالنيات، وإنّما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»[٢] وهٰذا من أعظم الأحاديث التي يدور عليها صحة الدين وينبني عليها، ولذلك قال تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)﴾[آل عمران:٨٥]، فالقلوب وأعمال القلوب من أعظم الأمور التي فيها الخطورة، قد يقع فيها الرياء، قد يقع فيها التعلق بغير الله بأي شكل من أشكال التعلق المعروفة.

ثم إن المصنف – رحمه الله تَعَالَىٰ– بعد أن بين خطورة الشرك في النيات والإرادات والقصود رتّب على هٰذا سؤالا قد يخطر ببال بعض الناس؛ فقد يقول قائل: إذا كنتم تقولون: إن النية معتبرة وإن

---

(١) **مسلم**: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، حديث رقم (٢٥٦٤).

(٢) **البخاري**: كتاب بدأ الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. حديث رقم (٠١) ومواضع.
مسلم: كتاب الإمارة باب قوله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إنما الأعمال بالنية وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال. حديث رقم (١٩٠٧).

القصد معتبر وإن الإرادة معتبرة، فكيف نقول أو ماذا نقول للذي يتعلق أو يعبد الأصنام والأوثان والشيوخ والأولياء والموتى في قبورهم من أجل أن يوصلوه إلى الله؛ ليتخذهم وسائط بينه وبين الله؛ وليتخذهم شفعاء عند الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى[1]-؟ فهو يقول: أنا نيتي أنني أعبد الله لأني أعرف أن الله هو الخالق الرازق المالك المتصرف، ولا يمكن أن أعبد غيره، وليس قصدي أن أعبد هٰذه الأصنام، وإنما يقول: إنه يريد أن يتقرب بها إلى الله ويجعلها وسائط بينه وبين الله، فلماذا يقال عنه: إنه مشرك؟ ولماذا يخلّد في النار؟ ولماذا لا يغفر الله له؟ ولماذا توعده الله بأشد أنواع الوعيد وأشد أنواع العقوبات، مع أنه في الحقيقة فيما يظهر للناس لا يقصد إلا الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى[1]-، وإنه عندما قصد هٰذه المعبودات إنما كان ليتوسل بها وليتوسط بها عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى[1]؟

فما هو الجواب على ذلك الجواب سيبينه المصنف الآن بتفريع أرجو أن نتفطن له.

[المتن]

[قلنا: الشرك شركان.

شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله.

وشرك في عبادته ومعاملته، وإن كان صاحبه يعتقد أنه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى[1]- لا شريك له في ذاته ولا في صفاته.

وأما الشرك الثاني فهو الذي فرغنا من الكلام فيه وأشرنا إليه [الآن][1]، وسنُشبع الكلام فيه إن شاء الله تعالى.][2]

أما الشرك الأول فهو نوعان:

أحدهما: شرك التعطيل، وهو أقبح أنواع الشرك، كشرك فرعون في قوله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء:٢٣]؟ وقال: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَاب (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً﴾[3][غافر٣٦-٣٧].

([1]) غير موجودة في المخطوط [ب].

([2]) ساقطة من النسخة [ر].

([3]) في المخطوط [أ] و[ب]: [**وقال لهامان:** ﴿ابن] لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾. قلت: وهو خلط بين سورة غافر والقصص، ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨)﴾[القصص:٣١]. ولعله لم يقصد استشهاد بالآية.

والشرك والتعطيل متلازمان، فكل مشرك معطّل، وكل معطّل مشرك؛ لكن الشرك لا يستلزم أصل التعطيل، بل قد يكون المشرك مقراً بالخالق – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ – وصفاته، ولكنه [مُعَطِّلُهُ حقَّ [التَّوحد][1]][2]

[الشرح]

هنا المصنف أجاد ليجيب على هٰذا السؤال الذي طرحه وفرع عليه عدة أسئلة، وهو لماذا يكون من يتعلق بغير الله ويعبد غير الله في هٰذه المنزلة الخطيرة وهي الخلود في النار، مع أنه لا يقصد إلا الله ويريد أن يتخذ هٰذه وسائط بينه وبينه، ثم بين أن الشرك نوعان: شرك يتعلق بذات الرب – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– وأسمائه وصفاته، وشرك يتعلق بعبادته وصرف ما يستحقه من العبادة.

وهٰذا هو الذي تكلّم عنه كثيرا فيما مضى أعني الشرك فيما يتعلق بالعبادة، وصرف شيء لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ، وبين أنه في حقيقة الأمر عندما يقدِّم هٰذا الأمر إنما لأمر وقع في قلبه ووقر في قلبه وهو أنّ تلك المخلوقات قد خُصّت بهٰذا الأمر وهي القدرة على ما لا يقدر عليه إلا الله، وكأنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ لا يسمعه ولا يعلم بحاله؛ يعني الملحظ الذي يريده هنا وسيتكلم عنه أيضا بالتفصيل في ما بعد أن المشرك الذي يعبد هٰذه الأصنام ويعبد الأولياء والشيوخ من دون الله –كما هو أصحاب الطرق– إنما صار عمله شركا أكبر لماذا؟ لأنه في حقيقة الأمر يصرف حق الله لغيره، وكأنه يقول: إن الله لا يسمعني، ولا يعلم بي، ولا يحس بحالي، ولا يمكن أن يسمعني إلا وسّطت عنده تلك المحسوبيات والعياذ بالله، وسيأتي له زيادة بيان.

ثم بدأ المصنف ببيان الشرك الأول وهو الشرك في التعطيل، والتعطيل هو أصل الشرك، وإن لم يكن كل تعطيل شركا؛ لكن التعطيل هو أول ما عُرِف من الشرك وضرب له مثلا بقول فرعون: ﴿**أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى (٢٤)**﴾[النازعات:٢٤]، ﴿**وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣)**﴾[الشعراء:٢٣]، ﴿**مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِي**﴾[القصص:٣٨]، ﴿**يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَاب (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً**﴾[غافر٣٦-٣٧] وغير ذلك ممن ادعوا الربوبية والألوهية من الطواغيت، فهؤلاء عطلوا ما يستحقه الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ، ونسبوه لأنفسهم أو نسبه لهم أتباعهم.

---

(١) في النسخة [سج]: **التوحيد**.

(٢) في المخطوط [أ] و[ب] والنسخة [ر]: **معطل حق التوحيد**.

وأيضا فإنّ هٰذا التعطيل أيضا من جانب آخر: قد يكون الشخص مقرا بالله وبأسمائه وصفاته؛ ولكنه يعطّل ما يستحقه فيصل بذلك إلى درجة التعطيل، عندما لا يوجد في قلبه غير تلك الأصنام ينسى ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ فيلجأ إليها في السرّاء والضراء، ويتقرب إليها بألوان القُرَب حتى يصبح طول حياته لا يسمع ولا يبصر ولا يرى أمامه إلا تلك المعبودات التي يتعلق بها من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ.

[المتن]

وأصل الشرك وقاعدته التي يرجع إليها هو التعطيل، وهو ثلاثة أقسام:

أحدها: تعطيل المصنوع عن صانعه.

الثاني: تعطيل الصانع عن كماله الثابت له.

الثالث: تعطيل معاملته عمّا يجب على العبد من حقيقة التوحيد.

ومن هٰذا: شرك أهل الوحدة، ومنه: شرك الملاحدة القائلين بِقَدَم العالم وأبديته وأن الحوادث بأسرها [مستندة][1] إلى أسباب ووسائط اقتضت إيجادها، [و][2]يسمونها: العقول والنفوس.

ومنه شرك [معطلة][3] الأسماء والصفات كالجهمية[4] والقرامطة وغلاة المعتزلة.

[الشرح]

هنا المصنف ذكر أن التعطيل هو أصل كل شرك وقع، وهو أنواع، وضرب أمثلة تدخل فيها كل هٰذه الأنواع الثلاثة:

فمنها تعطيل المصنوع عن صانعه؛ كنسبة خلق أفعال العباد إلى غير الله، وكنسبة خلق العالم إلى النّور أو الظلمة.

ومنه تعطيل الخالق – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– عن خلقه كإنكار وجوده سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ.

ومنه ما يتعلق بمعاملة الرب – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– وصرف ما يستحقه، وإن كان ذلك داخلا في النوع الثاني ويدخل في هٰذا أمور كثيرة.

---

(١) في المخطوط [ب]: **مسندة**.

(٢) غير موجود في المخطوط [ب].

(٣) في المخطوط [ب]: **معطّل**.

(٤) جاء في هامش المخطوط [أ]: **قف على أن الجهمية من معطلة الصفات**.

بالمناسبة قبل أن نبين كلمة الصانع كثير من السلف يكره التعبير بها عن رب العزة والجلالة سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ؛ لأنها كلمة دخيلة؛ لكن السلف أحيانا يضطرون إلى التعبير ببعض الكلمات من أجل الرد على الخصوم، ومن أجل الرد على المعطلة، فتجد كلمات غير مقصودة، ولذلك عندما يأتون يقررون الأسماء والصفات لا يذكرون منها ذلك؛ لكن عندما يأتون ليردون على الفلاسفة قد يعبرون بهٰذه العبارات.

ويمثّل هٰذه الأنواع الثلاثة الفلاسفة الذين يقولون: إن الخالق والموجد هو العقل الفعال أو النفوس الفعالة التي تفيض على العالم هٰذه الفيوضات التي أدّت على إيجاد العالم، على اختلاف كبير بينهم في مفاهيم هٰذه العقول الفعالة أو النفوس الفياضة، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، ويقولون بقدم العالم، وأن العالم قديم أي ليست له بداية، ومنهم من يجعله سلسلة لا تنتهي أو حلقات تدور ثم تعود من جديد من حيث بدأت، أو نحو ذلك، وهؤلاء هم الفلاسفة الدهرية الذين ينسبون الهلاك إلى الدهر وينسبون الموت إلى الدهر، ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾[الجاثية:٢٤]، كما قال الله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ– عنهم، ومن هؤلاء أسباب وحدة الوجود كابن عربي وابن الفارض وابن سبعين والفارابي والحلاج وابن سينا، وغيرهم من الملاحدة والفلاسفة، هؤلاء وقعوا في القول بوحدة الوجود، وبعضهم يسمون الفلاسفة الإسلاميين والإسلام ليس فيه فلسفة، وهؤلاء وصل بهم القول أنهم لا يفرقون بين العبد وبين الرب، فيقول قائلهم: كل ما ترى أمامك هو الرب فالرب عبد والعبد رب، وما في الجبة إلا الله. ويقولون: إن كل ما يُرَى هو عين وجود الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– السمٰوات والأرض و الجبال والشجر...إلخ. وعندهم ألفاظ خطيرة جدا، حتى أن ابن عربي صرح بأن أعظم حالات الوحدة بين الرب والعبد هي لحظات معاشرة الرجل لزوجته – تعالى الله علوا كبيرا –، فهٰذه الكفريات واضحة لا تحتاج إلى تفسير، وراجعوا في هٰذا كتب الشيخ ابن تيمية وابن القيم والنونية نونية ابن القيم تكلم فيها عن هٰذا كثير حتى قال:

يَـــا أُمَّـــةً مَعبُودُهَـــا مَوطُوؤُهَـــا أيـــنَ الإِلَـــهُ وثُغـــرَةُ الطَّعَّـــانِ

الشطر الأول يقول: (يَا أُمَّةً مَعبُودُهَا مَوطُوؤُهَا) لأنهم قالوا: إن الله موجود في كل الوجود، وأن الله هو عين الوجود، وأن الله هو كل شيء، وأن كل شيء في هٰذا الوجود هو الله لا فرق بين الخالق والمخلوق، – تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا –، ومنهم الجهمية الذين أنكروا جميع الأسماء والصفات؛ حيث عطلوا الخالق – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– من كل صفة واسم، وإذا لم توجد الأسماء والصفات فالمتحدث عنه يكون معدوما وغير موجود، وكذلك بعض غلاة المعتزلة، وأكثر المؤولة منها

يدخلون في هٰذا الباب والعياذ بالله، فهٰذا من أنواع الشرك في الألوهية والربوبية معا؛ لأنها أعمال مختلطة؛ يعني الذين أنكروا جميع الأسماء والصفات والذين قالوا بوحدة الوجود والفلاسفة الدهريون الذين قالوا بقدم العالم.. ونحو ذلك هؤلاء جمعوا بين المساوئ كلها؛ بين الشرك في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، فأشركوا بالله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ في أنواع التوحيد الثلاث، وجمعوا كل المساوئ:

مَساوٍ لَو قُسِمنَ عَلى الغَواني ... لَما جُهِّزنَ إِلّا بِالطَلاقِ[1]

[المتن]

[[النوع][2] الثاني: شرك التمثيل،][3] وهو شرك من جعل معه [تَعَالىٰ][4] إلٰها آخر، كالنّصارى في المسيح واليهود في عزير، والمجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور وحوادث الشر إلى الظلمة.

وشرك القدرية المجوسية مختصر منه، وهؤلاء [أكثر][5] مشركي العالم، وهم طوائف جمة:

[منهم من يعبد أجزاء سماوية.][6]

ومنهم من يعبد أجزاء أرضية.

ومن هؤلاء من يزعم أن معبوده أكبر الآلهة.

ومنهم من يزعم [أن إلٰهه][7] من جملة الآلهة.

ومنهم من يزعم أنه إذا خصه بعبادته والتبتل إليه أقبل [إليه][8] واعتنى به.

ومنهم من يزعم أن معبوده الأدنى يقربه إلى الأعلى الفوقاني، والفوقاني يقربه إلى من هو فوقه، حتى تقربه تلك الآلهة إلى الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ–، فتارة تكثر الوسائط وتارة تقل.

---

(١) لأبي تمام حبيب بن أوس بن الحارث الطائي المتوفي سنة (٢٣١هـ٨٥٤م).

(٢) في المخطوط [ب]: القول.

(٣) غير موجود في النسخة [ر].

(٤) زيادة من مخطوط.

(٥) في المخطوط [ب]: أكبر.

(٦) غير موجودة في [سج].

(٧) في المخطوط [أ] و[ب]: **أنه إلٰه**.

(٨) في المخطوط [أ] والنسخة [سج]: **عليه**.

فإذا عرفت هٰذه الطوائف وعرفت اشتداد [نكير][١] الرسول – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على من أشرك به تعالى في الأفعال[٢] والأقوال[٣] والإرادات[٤] –كما تقدّم ذكره– انفتح لك بـــاب الجواب عن السؤال:

فنقول: اعلم أن حقيقة الشرك:

▫ تشبيه الخالق بالمخلوق.

▫[[وتشبيه][٥] المخلوق بالخالق.

أما [الخالق][٦] فإن المشرك شبّه المخلوق بالخالق][٧] في [خصائص][٨] الإلـــٰهية، وهي التفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع، فمن علّق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق [تَعَالىٰ][٩]، وســـوّى بين التراب ورب الأرباب، فأيّ فجور [وذنب][١٠] أعظم من هٰذا؟.

واعلم [أن][١١] من خصائص [الإلـــٰهية][١٢]: الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب[١٣] أن تكون العبادة له وحده عقلا وشرعاً وفطـــرة، فمـــن جعل ذلك لغيره، فقد شبّه الغير بمن لا شبيه له، ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم، أخبر من كتب على نفسه الرحمة أنه لا يغفره أبداً.

---

(١) في المخطوط [ب]: **تنكير**.

(٢) أنظر الصفحة (٥٧).

(٣) أنظر الصفحة (٦٧).

(٤) أنظر الصفحة (٧٤).

(٥) في المخطوط [ب]: **تشبّه**.

(٦) في المخطوط [أ] و[ب]: **الأول**.

(٧) غير موجودة في النسخة [ر].

(٨) في المخطوط [ب]: **خالص**.

(٩) غير موجودة في المخطوط [ب].

(١٠) غير موجودة في النسخة [سج].

(١١) زيادة من المخطوط [ب] والنسخة [سج].

(١٢) في النسخة [سج]: **الألوهية**.

(١٣) في النسخة [ر]: **بموجب**.

[ومن خصائص [الإلـــٰهية][١]: العبودية التي لا تقوم[٢] إلا على [ساق][٣] الحب والذل، فمن أعطاهما لغيره، فقد [شبهه][٤] بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ في خالص حقه، وقبحُ هٰذا مستقر في العقـــول والفطر، [و][٥]لكن لما غيّرت الشياطين فِطر أكثر الخلق [واجتالتهم][٦] عن دينهم وأمـــرهم أن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً –كما رَوى [ذلك][٧] عن الله أعرف الخلق بـــه وبخلقـــه[٨] – عَمُوا عن قبح الشرك حتى ظنوه حسناً.][٩]

ومن خصائص الإلـــٰهية: السجود، فمن سجد لغيره فقد شبّهه[١٠] به.

ومنها التوكل، فمن توكل على غيره فقد شبهه به.

ومنها التوبة، فمن تاب لغيره فقد شبهه به.

ومنها الحلف باسمه [تعظيما][١١]، فمن حلف بغيره فقد شبهه به.

ومنها الذّبح له، فمن ذبح لغيره فقد شبّهه به.

ومنها حلق الرأس.. إلى غير ذلك.

[الشرح]

الآن جاء الجواب أو جاء دور الجواب الذي كان قد طرح سؤاله المصنف قبل قليل؛ وهو لمـــاذا كان هٰذا الشرك لماذا اعتبر هٰذا الشرك صرفا لحق الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– إلى غيره؟ ولماذا مع أن ذلك

---

(١) في النسخة [سج]: **الألوهية**.

(٢) جاء في هامش المخطوط [أ]: **قف على ركني العبودية: غاية الحب ونهاية الذل**.

(٣) في المخطوط [أ] و[ب]: **ساقي**.

(٤) في المخطوط [أ] والنسخة [ر]: **شبه**.

(٥) زيادة من المخطوط [أ] و[ب] والنسخة [ر].

(٦) في المخطوط [ب]: وأجالتهم.

(٧) غير موجودة في النسخة [سج].

(٨) **مسلم**: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، حديث رقم (٢٨٦٥).

(٩) ساقطة من المخطوط [ب].

(١٠) في النسخة [ر]: **شبه**.

(١١) زيادة من المخطوط [أ].

الذي أشرك يعترف بوجود الله ويقول: إنه لا يعبد إلا الله ولا يقصد إلا الله؛ لكنه قصد هٰذه المعبودات لتوصله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ.

وقبل أن يبيّن هٰذا الجواب أشار إلى ما سبق أن تكلمنا عنه وهو خطورة عبودية غير الله وخطورة مذاهب الفلاسفة الدّهريين، وخطورة من يتعلق بغير الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ–، وخطورة سائر الطوائف المنحرفة التي ضلت في هٰذا الباب، والتي منها من يعبد غير الله ومنهم من يشبه الخالق بالمخلوق، ومنها من يشبه المخلوق بالخالق ونحو ذلك، مثل اليهود الذين قالوا: عزير ابن الله ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ**﴾[التوبة:٣٠].

فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدنيا وضَرَّتَها وَمِنْ عُلُومِكَ عِلمَ اللَّوْحِ والقَلَمِ[1]

ونحو ذلك من الألفاظ الشركية؛ كأنه جعل علوم اللوح والقلم التي استأثر الله بعلمها كلها مستمدة من ماذا؟ من علم الرسول – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وأن الدنيا والآخرة –ضرتها يعني الآخرة– كلها مستمدة من جود رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، فماذا بقي للخالق – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ–، وما الفرق حينئذ بين هٰذه المقالة وبين مقالة اليهود والنصارى الذين قالوا: عزير ابن الله والذين قالوا: إن المسيح ابن الله، أو قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، أو قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء؟ ما الفرق بين هٰذا وذاك؟ يعني لا فرق؛ بل إن هؤلاء جعلوا الآلهة ثلاثة الأب والابن وروح القدس، وجعلوا الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ أحد هٰذه الآلهة بينما الذي قال:

يا أَكْرَمَ الرُّسْلِ مالِي مَنْ أَلُوذُ بِه سِواكَ عندَ حلولِ الحادِثِ العَمِمِ

ما ترك لله شيئا مطلقا، والذي قال: و إن من جودك الدنيا وضرتها، ما ترك لله شيئا؛ بل جعل كل شيء بيده – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ –، وكذلك من يزعم أن الأولياء يتصرفون في الكون مثلما تزعم الرافضة وأصحاب الطرق الصوفية الذين يجعلون أولياءهم يقدرون على ما لا يقدر عليه إلا الله؛ بل يزعمون أن أولياءهم أفضل درجة من الأنبياء والمرسلين؛ بل يقول بعض أصحاب الطرق الصوفية: إن الولي هو الذي يتصرف في الكون، وأنه هو الذي يتصرف في السمٰوات والأرض، وأنه لا يموت أحد إلا بإذنه وأنه يأتي يوم القيامة وينصب خيمته على متن جهنم ليخرج أتباعه من النار.. ونحو ذلك من المقالات الخطيرة التي تبلغ حد الكفر والإلحاد وإنكار ما لا يجوز نسبته إلا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ.

([1]) لشرف الدين البوصيري من قصيدة البردة توفي سنة (٦٩٦هـ–١٢٩٦م).

بعد هٰذا دخل في الجواب، وذكر بعض خصائص الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ–، وكيف أن هٰذه الأعمال تناقض تلك الخصائص:

منها أن الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– له الكمال المطلق؛ أن الله له الكمال في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته، فمن شبه أحدا به أو أنكر أسماءه وصفاته، أو صرف حقه لغيره، فقد أنكر هٰذا الكمال.

ومنها أنه مخصوص بالعبادة والعبودية والدعاء والتضرع والخوف والرجاء والذبح والنذر والحلف، وهٰذه كلها قد تقدمت لنا؛ ولكن المصنف يعيدها بطريقة عظيمة جدا لترسخ في أذهان من يقرأ مثل هٰذا الكتاب العظيم، فهٰذا تقرير لما سبق.

الملحظ هو ما ذكرته لكم قبل قليل أنّ من صرف هٰذه الأشياء لغير الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– فإنه وإن لم يشعر هو بذلك؛ يعني هو قد صرف ملك الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ لغيره، قد صرف ما لا يستحقه إلا الله لغير الله– سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ–:

الذبح لا يجوز إلا لله ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)**﴾[الأنعام:١٦٢-١٦٣].

النذر لا يجوز إلا لله ﴿**وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٢٧٠)**﴾[البقرة:٢٨٠].

الاستغاثة لا تجوز إلا بالله ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ**﴾[الأنفال:٩].

الاستعاذة لا تجوز إلا بالله ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣)**﴾[الناس:١-٣]، ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ(٢)** ﴾[الفلق:١-٢]، إلى آخر السورتين.

الدعاء، السجود، الركوع، الخضوع، الخشوع، الإنابة، كل هٰذه والتي يجمعها كما سبق أن ذكرنا كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة من صرفها لغير الله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ– فهو في حقيقة أمره اعتدى وأخذ ما يجب لله وصرفه لغيره، وإن لم يدرك هو ذلك، أنت لو سألته يقول لك: أنا ما أقصد إلا الله، فإذا كنت لا تقصد إلا الله كيف تصرف حقه لغيره حتى يصبح ما في قلبك إلا هٰذه المخلوقات تتعلق بها من دون الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– وتنسب إليها ما لا تجوز نسبته إلا لله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ– وتطلب منها ما لا يُطلب إلا من الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– وترجو منها ما لا يُرجى إلا من الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ–؟

إذن ماذا أبقيت لله – تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ – ؟

يشير بهٰذا – حلق الرأس – لأن من عادات المشركين أنهم كانوا يحلقون رؤوسهم عند آلهتهم تقربا لها، فحلق الرأس بهٰذا الاعتبار عبادة، ونحن عندنا حلق الرأس عبادة متى؟ في الحج والعمرة، الحلق أو التقصير؛ لكن هؤلاء يحلقون رؤوسهم، الآن لو ذهبت إلى بعض البلاد أول ما يأتي عند صاحب القبر الذي يعبده من دون الله وقد ربى له خروفا كبيرا ليقدمه له يتركه حتى يبلغ خمس سنين أو ست سنين أو ثورا أو جملا أو نحو ذلك، فيأتي به ليذبحه للشيخ أول ما يصل يحلق رأسه، فحلق الرأس يتخذونه عبادة، كما أنه عبادة عندنا في الحج والعمرة.

البوذيون وغيرهم؛ بل من المنتسبين إلى الإسلام، من المنتسبين إلى الإسلام الآن يحلقون رؤوسهم عند أصحاب المقابر تقربا إلى أصحاب المقابر ظنا منهم أنهم يقربونهم إلى الله.

[المتن]

هٰذا في جانب التشبيه، وأما في جانب التشبّه، فمن تعاظم وتكبّر ودعا الناس إلى اطرائه ورجائه ومخافته فقد تشبه بالله ونازعه في ربوبيته(١) وهو حقيق بأن يهينه الله غاية الهوان، ويجعله كالذر(٢) تحت أقدام خلقِهِ.

[وفي](٣) الصحيح(٤) عنه – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أنه قال: «يقول الله عز وجل: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني [في واحد](٥) منهما عذبته [ولا أبالي](٦)».

---

(١) في المخطوط [ب] العبارة السابقة: (**ومن خصائص الإلـٰهية: العبودية التي لا تقوم... حتى ظنوه حسناً**) جاءت في هٰذا الموضع.

(٢) هو صغار النمل. [ع].

(٣) في المخطوط [ب]: **كما في**.

(٤) **سنن أبي داوود**: كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر، حديث رقم (٤٠٩٠).

سنن ابن ماجه: كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر والتواضع، حديث رقم (٤١٧٤).

وأورده الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٥٤١). قال الشيخ الألباني: صحيح.

(٥) في المخطوط [ب]: واحدا.

(٦) زيادة من المخطوط [ب].

وإذا كان المصور الذي يصنع الصور بيده من أشد الناس عذاباً [يوم القيامة لتشبهه بالله في مجرد الصنعة][١]، فما الظن بالمتشبه بالله في الربوبية و[الإلـٰهية][٢]؟ كما قال– صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : «أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون يقال لهم: أحيوا ما خلقتم».[٣]

وفي الصحيح[٤] عنه – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أنه قال: «يقول الله– عز وجل –: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، فليخلقوا شعيرة» فنبّه بالذرة والشعيرة على ما هو أعظم منهما.

وكذلك من تشبه به – تعالى – في الاسم الذي لا ينبغي إلا له كملك الملوك وحاكم الحكام وقاضي القضاة ونحوه..

وقد ثبت في الصحيح[٥] عن النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أنه قال: «إن أخنع الأسماء عند الله رجل تسمى بشاهان شاه ([أي][٦]: ملك الملوك) لا مالك إلا الله»، وفي لفظ: «أغيظ رجل عند الله رجل تسمى ملك الأملاك».[٧]

[الشرح]

هٰذا الذي تقدم أكثره فيما يتعلق بتشبيه الخالق بالمخلوق بصرف حقه إليه، وهٰذا يتعلق بالتشبيه.

وأما التشبه وهو التعاظم والتعالي من بعض الناس الذي يبلغ درجة الكبرياء، ومن ذلك من يدعون الناس إلى عبادة أنفسهم؛ كحال أصحاب الطرق الذين قد ذكرناهم غير مرة الذين عندما ينصبون

---

(١) غير موجودة في المخطوط [أ].

(٢) في النسخة [سج]: **الألوهية**.

(٣) **البخاري**: كتاب للباس، باب عذاب المصورين يوم القيامة، حديث رقم (٥٩٥٠).

مسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان وتحريم اتخاذ ما فيه صورة غير ممتهنة بالفرش.. حديث رقم (٢١٠٩).

(٤) **البخاري**: كتاب اللباس، باب نقض الصور، حديث رقم (٥٩٥٢).

مسلم: كتاب اللباس والزينة، باب باب تحريم تصوير صرة الحيوان...، حديث رقم (٢١١١).

(٥) **البخاري**: كتاب الأدب، باب أبغض الأسماء إلى الله ، حديث رقم (٦٢٠٦).

مسلم: كتاب الآداب، باب تحريم التسمي بملاك االأملاك وملك الملوك، حديث رقم (٢١٤٣)

(٦) زيادة من المخطوط [ب].

(٧)**مسلم**: كتاب الآداب، باب تحريم التسمي بملاك االأملاك وملك الملوك، حديث رقم (٢١٤٣).

أنفسهم مشرّعين أو ينصبون أنفسهم وكأنهم هم الذين يوصلونهم إلى الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ–، ويرضون بذلك؛ كمن يدعو إلى عبادة نفسه ولذلك يقول بعض شيوخ المرغنية: إذا كنت في همّ وغمّ فنادني آتيك بسرعة. من الذي يدعى عند الهم والغم؟ الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– هو الذي قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠)﴾[غافر:٢٠]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة:١٨٦]، فأصحاب تلك الطرق والطواغيت الذين يدعون الناس إلى عبادة أنفسهم كل ذلك من أجل أن يأكلوا أموالهم بالباطل، ويدخل فيهم الكهان الذين ينصبون أنفسهم يداوون الناس، والسحرة والمشعوذون ويدخل في ذلك كل من دعا الناس لعبادة نفسه.

وإذا كان الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ قد أنكر ما هو أقل من أن ينصب الإنسان نفسه معبودا من دون الله كحال المصوّرين، وهي أقل شأنا من أن ينصب نفسه معبودا من دون الله وتوعّدهم بألوان الوعيد الشديد، ويكلفون يوم القيامة أن ينفخوا الروح فيما صوروه وفيما نحتوه، وأنكر الله عليهم لأنهم يضاهون بخلق الله، ويريدون أن يتشبهوا بالله، ويزعمون أنفسهم أنّهم يقدرون على ما لا يقدر عليه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ وأنكر عليهم، الأحاديث في هٰذا كثيرة «**من ذا الذي ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا حبة فليخلقوا شعيرة**»[1] وليس معنى ذلك أن المصورين على ما هم فيه من معاصي أنهم يبلغون درجة هؤلاء، الذين بينهم المصنف وهم الذين يدعون الناس إلى عبادة أنفسهم؛ لكنه يريد من إيراد هٰذه الأحاديث ماذا؟ أن يقول: إذا كان هؤلاء المصورون وهم لا يقصدون مضاهاة خلق الله متوعدين بهٰذا الوعيد، فما بالكم بمن يضاهي الله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ– قصدا، ويتعمد ذلك، ويفعل ذلك، ويدعو الناس إلى عبادة نفسه.

وبهٰذه المناسبة نتكلم بشيء من الإيجاز عن مسألة التصوير، أنتم تعلمون – أيها الإخوة – أن الناس قد فُتِنوا الآن بالصور والتصوير، ولا شك أن التصوير محرم بجميع أنواعه وأشكاله؛ أعني تصوير ذوات الأرواح، سواء نحت بشكل تمثال، أو رسم باليد، أو خط باليد، أو رسم بالآلة، كما يسمونه ويزعمون أنه مجرد حبس الظل وهي الصور الفوتوغرافية، لا شك أن التّحايل على إباحة الصور الفوتوغرافية، والتماس الفتاوى التي ترخص فيها من قبل بعض الناس من باب التّحايل على تحليل الحرام، على قاعدة اليهود عندما حرم الله عليهم شحوم الميتة عمدوا إلى تلك الشحوم فجملوها يعني

([1]) تقدم تخريجه في الصفحة (٨٧).

فأذابوها وأخذوا يدَّهنون بها ويستصبحون بها ويأكلونها، وقالوا: هٰذا ليس شحما وإنما هو أصبح دهنا وأصبح سائلا.[1] والله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩)﴾[غافر:١٩]، وإني أقول لبعض من يفتي من المنتسبين إلى العلم بجواز الصور الفوتوغرافية أقول: ما الفرق بين الرسم باليد وبين الرسم بالآلة؟ ما الذي يدير الآلة؟ اليد؛ بل إن الرسم بالآلة أكثر شغلا باليد، إذ أننا لو تتبعنا صنعة الآلة من أولها إلى أن يخرج الفيلم محمّضا يدخل فيه عمل اليد ثنتا عشرة مرة، تتبعوا الخطوات من بداية الصنعة، هل يمكن تشغل نفسها هٰذه الكاميرا تشغل نفسها هي لا تشغل نفسها إنما تدار، طيب الذي يديرها يقال له مصور أو لا يقال له مصور؟ أي واحد بالدنيا يقول: سأذهب إلى من؟ إلى المصور.

فإذن علينا أن لا نتحيل على أمور الشرع، سواء كانت تمثالا أو رسما باليد أو رسما بالآلة، المهم تصوير جميع ذوات الأرواح محرم، والملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب أو صورة.

بقي شيء واحد وهو ما دعت إليه الضرورة في هٰذا العصر من صور الشهادات والبطاقات والجوازات وما إلى ذلك. أقول: إن فعل هٰذا الأمر من باب ارتكاب أخف الضررين، وهٰذه قاعدة مقررة عند أهل العلم، فأنت بين أن تضيع مصالحك ويتعطل عملك، وتجلس معزولا عن العالم، وإما أن ترتكب هٰذا الأمر، وقاعدة ارتكاب أخف الضررين مع اعترافك بأنه ذنب ومعصية وتستغفر الله وتتوب إليه، هنا هٰذه القاعدة أمر مقرر في الفقه الإسلامي، فهو من باب ارتكاب أخف الضررين؛ لكن علينا أن نقتصر على ماذا؟ على ما دعت إليه الضرورة في الحفيظة أو البطاقة أو الجواز أو نحو ذلك، أو العمل الذي تطلب الأمر فيه ذلك، وأما التوسع في هٰذا كالتصوير في الحدائق ونحوها، وأخذ صور للذكريات، وما إلى ذلك فلا شك أن هٰذا لا يجوز ولا ينبغي للمسلم فعله، هٰذا ما يتعلق بالتشبه الذي حذر الله منه وحذر منه رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أما لماذا؟ فهٰذا مما لا خلاف فيه بين أهل العلم، والتعمق في مسألة الحكمة أو العلة الأوْلى عدم الخوض فيها إلا ما ظهر؛ لكن إذا أردنا أن نلتمس حكمة في هٰذا، فالحكمة هي أن ذوات الأرواح؛ يعني الافتتان بها أكثر من غيرها، وأيضا هي أدق صنعة من سائر الأمور الأخرى، وهٰذا مما لا خلاف فيه، وهو تخصيص ذوات الأرواح.

([1]) **البخاري**: كتاب البيوع ، باب بيع الميتة الأصنام، حديث رقم (٢٢٣٦).

مسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام، حديث رقم (١٥٨١).

أما رسم ما عدا ذلك فلا إشكال فيه عند أهل العلم قاطبة؛ يعني هٰذا مما لا خلاف فيه كما بينت بين أهل العلم.

[المتن]

وبالجملة، فالتشبيه والتشبّه هو حقيقة الشرك، [ولذلك][1] كان من ظن أنه إذا تقرب إلى غيره بعبادة ما يقربه ذلك الغير إليه – تعالى – فإنه يخطئ لكونه شبهه به وأخذ ما لا ينبغي أن يكون إلا له، [فالشرك [مَنْعُهُ][2] سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ حقه][3] فهٰذا قبيح عقلا وشرعاً، ولذلك لم يُشْرَع ولم يغفر [لفاعله][4].

واعلم أن الذي ظن أن الرب – سُبْحَانَهُ [وَتَعَالىٰ][5]– لا يسمع له أو لا [يستجيب][6] له إلا بواسطة تطلعه على ذلك أو تسأل ذلك منه، فقد ظن بالله ظن السَّوء، فإنه إن ظن أنه لا يعلم أو لا يسمع إلا بإعلام غيره له وإسماعه، فذلك نفيٌ لعلم الله و[سمعه][7] وكمال إدراكه وكفى بذلك ذنباً.

وإن ظن أنه يسمع ويرى ولكن يحتاج إلى من يُعَطِّفُهُ[8] ويُلَيِّنُهُ عليهم، فقد أساء الظن بإفضال ربه وبره وإحسانه وسعة جوده.

وبالجملة، فأعظم الذّنوب عند الله – تعالى – إساءة الظنّ به، ولهٰذا يتوعّدهم [الله][9] في كتابه على إساءة الظن به أعظم وعيد، كما قال الله تعالى: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾[الفتح:٦]، وقال تعالى عن خليله إبراهيم– عليه السّلام – : ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ

---

(١) في المخطوط [أ]: وكذلك.

(٢) في النسخة [ر]: **منحه**.

(٣) في المخطوط [أ] و[ب]: **فأشرك معه سبحانه [فيه غيره فبخسه سبحانه] حقه**. وما بين المعقوفين ساقطة من [ب].

(٤) في المخطوط [أ] و[ب]: **فاعلمه**. وفي النسخة [ر]: لفاعله واعلمه.

(٥) غير موجودة في المخطوط [أ] و[ب].

(٦) في المخطوط [ب]: يجيب.

(٧) في المخطوط [أ] و[ب]: **لسمعه**.

(٨) في النسخة [سج]: يعطف.

(٩) زيادة من المخطوط [ب].

الْعَالَمِينَ (٨٧)﴾[الصافات٨٦-٨٧] أي: فما ظنكم أن يجازيكم إذا عبدتم معه غيره، وظننتم أنه يحتاج في الإطلاع على ضرورات عباده لمن يكون بابا للحوائج إليه ونحو ذلك.

وهٰذا بخلاف الملوك، فإنهم [محتاجون][١] إلى الوسائط ضرورة لحاجتهم وعجزهم وضعفهم وقصور علمهم عن إدراك حوائج المضطرين.

[فأما][٢] من لا يشغله سمعٌ عن سمع، وسبقت رحمتُه غضبَه وكتب على نفسه الرحمة فما تصنع الوسائط عنده؟ فمن اتخذ واسطة بينه وبين الله تعالى فقد ظنّ به أقبح [الظن][٣]، ومستحيل أن يَشرعه لعباده؛ بل ذلك [يمتنع][٤] في العقول والفطر.

واعلم أنّ الخضوع والتألّه الذي يجعله العبد لتلك الوسائط قبيح في نفسه، كما قرّرناه لا سيّما إذا كان المجعولُ له ذلك عبداً للملك العظيم الرحيم القريب المجيب ومملوكاً له كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾[الروم:٢٨] أي: إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكُه شريكَه في رزقه، فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا منفرد به، وهو [الإلٰهية][٥] التي لا تنبغي لغيري ولا تصلح لسواي؟ فمن زعم ذلك فما قدَرني حق قدري ولا عظَّمني حق تعظيمي.

وبالجملة، فما قدَر [الله][٦] حق قدره من عَبَد معه من ظن أن يوصل إليه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾[الحج:٧٣] الآية.. إلى أن قال: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[الحج:٧٤] وقال

---

(١) في المخطوط [ب]: **يحتاجون**.

(٢) في المخطوط [ب]: **وأما**.

(٣) في المخطوط [ب]: **ظنّ**.

(٤) في المخطوط [أ] و[ب]: **ممتنع**.

(٥) في النسخة [سج]: **الألوهية**.

(٦) زيادة يقتضيها السياق. [ع]، وهي موجودة في المخطوط [أ] و[ب] والنسخة [سج].

[تعالى][1]: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧].

فما قَدَرَ القويَّ العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل.

[الشرح]

هٰذه العبارات كلها تقرير لشيء واحد يريد المصنف – رحمه الله – أن يرسخه في ذهن المخاطَب، وهٰذا الشيء هو أن التشبيه والتشبه بالله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– بأي تصرّف من التصرفات التي سبق وأن نص عليها وبينها، إنما يعني أن من كان هٰذا شأنه فإنه صرف حق الله لغيره، وإنه بهٰذا الصرف عندما أعطى حق الله لغيره كأنما ظنّ بربه ظنا سيئا؛ بل إنه ظن بربه ظنا سيئا، عندما توقع أو خشي أن لا يقبل الله عمله إلا أن يجعل بينه وبينه واسطة، لماذا؟ لأنه يتصور أنه لا يمكن أن يسمعه الله أو يراه أو يجيب دعاءه إلا إذا جعل هٰذا الوسيط بينه وبينه، أو أنه يعلم أنه يراه ويسمعه؛ ولكنه يحتاج إلى من يُلَيِّنُهُ ومن يُعَطِّفُهُ على الداعي وعلى المسؤول.

فهٰذا تقرير لما أورده قبل ذلك من بيان السبب الذي من أجله كان الشرك أعظم الذنوب، فالذي جعله أعظم الذنوب لأنه حق لله، فمن صرف حق الله لغيره فقد ارتكب أعظم الذنوب، ولذلك سماه ظلما؛ بل هو أعظم الظلم كما قال– تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ–: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾[لقمان:١٣]، وأخذ يقرر هٰذا الأمر بأساليب متنوعة مفيدة كلها تؤدي هٰذا المعنى؛ لأن الذي يصرف أو يعطي حق الله لغيره فإنه إما أنه قد يكون قد ظن به سوءا كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ عن المشركين والمنافقين: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾[الفتح:٦]، وإما أن يعتقدوا أنه لا يسمعهم ولا يراهم أو يعتقدوا أنه يسمعهم ويراهم لكن الله لا يستجيب لهم إلا إذا وسطوا عنده غيره لِيُلَيِّنَهُ أو لِيُعَطِّفَهُ أو ليشفع عنده، وهٰذا شأن المخلوق مع المخلوق، شأن الرعية مع ملوك الدنيا، هم الذين يحتاجون لعجزهم ونقصهم وبشريتهم وعدم إحاطتهم، أما الله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ– الذي أحاط بكل شيء علما، ووسعت رحمته كل شيء، ولا يحيط أحد بشيء من علمه، فإن من ادعى أنه يحتاج إلى أن يوسط عنده أحد فهٰذا قدح في إحاطة الله بكل شيء علما، وهٰذا اعتراض على كمال علم الله، واعتراض على كمال قدرة الله، واعتراض على كمال رحمة الله، واعتراض على كمال صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ.

([1]) غير موجودة في المخطوط [ب].

[المتن]

واعلم أنك إذا تأمّلت جميع طوائف الضلال والبدع وجدت أصل ضلالهم [راجعًا][١] إلى شيئين:

أحدهما: [الظن][٢] بالله ظن السوء.

والثاني[٣]: [أنهم][٤] لم يَقْدُروا الرب حق قدره.

فلم يقدره حق قدره من ظن أنه لم يرسل رسولاً ولا أنزل كتابا؛[٥] بل ترك الخلق سدىً وخلقهم عبثاً.

ولا قدره حق قدره من نفى عموم قدرته وتعلقها بأفعال عباده من [طاعتهم][٦] ومعاصيهم وأخرجهما عن خلقه وقدرته.[٧]

ولا قدر اللهَ حقّ قدره أضداد هؤلاء الذين قالوا: إنه يعاقب[٨] عبده على ما لم يفعله؛ بل يعاقبه على فعله [هو][٩] – سُبْحَانَهُ [وَتَعَالَىٰ][١٠]–، وإذا استحال في العقول أن يجبر السيد عبده على فعلٍ ثم يعاقبه عليه فكيف يصدر هٰذا من أعدل العادلين؟[١١] وقول هؤلاء شر من أشباه المجوس القدرية الأذلين.

---

(١) في المخطوط [أ] و[ب]: راجع.

(٢) في المخطوط [أ] و[ب]: ظنهم.

(٣) في النسخة [سج]: وثانيهما.

(٤) زيادة من المخطوط [ب] والنسخة [ر].

(٥) جاء في حاشية المخطوط [أ]: قف على ذم منكري النبوات.

(٦) في المخطوط [أ]: طاعاتهم.

(٧) جاء في حاشية المخطوط [أ]: قف على ذم القدرية المعتزلة.

(٨) في ((الأصل)): يعاقبه. [ع].

(٩) زيادة المخطوط [ب].

(١٠) غير موجودة في المخطوط [أ] و[ب].

(١١) جاء في حاشية المخطوط [أ]: قف على ذم الجبرية الجهمية.

ولا قدره [حق قدره][١]، من نفى رحمته ورضاه ومحبته وغضبه وحكمته مطلقا وحقيقة فعله، ولم يجعل له فعلا اختياريا، بل أفعاله [مفعولات][٢] منفصلة عنه.[٣]

[الشرح]

هنا المصنف يوضح هٰذه المسألة أكثر ويقول: إنها ترجع إلى أمرين:

إما أنهم يظنون بالله ظن السوء؛ بأنه لا يسمع ولا يجيب ولا يبصر ولا يدرك ولا يحيط.

وإما أنهم يتنقصونهم وما قدروه حق قدره سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ، كما قال - عز وجل -: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ**﴾[الزمر:٦٧].

ثم أخذ يبين بعض هٰذه الطوائف التي ما قدّرت الله حق قدره، وأُولى تلك الطوائف من صرف حق الله لغيره؛ يعني من عبد غير الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- وصرف حقّه لغيره من المشركين وعبدة الأصنام والأوثان الذين سلبوا الله حقه وأعطوه لغيره.

ثم ذكر طائفة أخرى ما قدروا الله حق قدره؛ فأنكروا أسماءه وصفاته من الجهمية والمعتزلة ومن سار في فلكهم، الذين أنكروا أسماء الله وصفاته.

ثم بيّن أن من الذين لم يقدروا الله حق قدره أولئك الذين ينفون قدرته على خلق أفعال العباد، وهم القدرية النفاة؛ أشباه المجوس، الذين قالوا: إن الله لم يعلم الأشياء قبل كونها، أو أنه لم يقدرها في الأزل، أو أنه لا يعلمها إلا بعد أن توجد، أو أن العبد هو الخالق لفعله، سواء قالوا: إنه خالق الخير أو قالوا: أنه خالق الشر، والذين شبههم السلف بالمجوس؛ لأن المجوس كما تقدم لنا يثبتون خالقين: النور خالق الخير والظلمة خالق الشر.

ثم بالمقابل ذكر أنه لم يقدر لها حق قدره الطائفة التي جاءت تضاد هٰذه القدرية وهم الجبرية؛ الذين قالوا: إن الإنسان كالغصن في مهب الريح، حيث ما تميله يميل، وأنه لا تصرف له ولا اختيار له، ولا تصرّف له مطلقا؛ بل زعموا أن الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- إنما كلفهم بأعمال هو الذي عملها وهو الذي فعلها، فجعلوا فعل العبد فعلا للرب - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ-، ثم أنكروا كونه يعاقبهم عليها باعتبار أنه فعله وهو الذي فعله فكيف يعاقب على فعله تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

---

(١) ساقطة من المخطوط [ب].

(٢) غير موجودة في [سج].

(٣) جاء في حاشية المخطوط [أ]: **قف على ذم ما هو مشترك بين الجهمية والقدرية.**

وهؤلاء شرّ من القدرية النفاة، القدرية النفاة يوجبون الأعمال ولا يسقطونها، وأما الجبرية فإنهم يرون أنه لا اختيار للعبد ولا تصرف له، ولذلك فكيف يعاقب على أمر لم يفعله؛ بل هو فعل غيره تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، وهٰذه الطائفة الجبرية وتسمى القدرية أيضا؛ لأن القدرية نوعان القدرية النفاة والقدرية الجبرية.

وأما أهل السنة -فكما تعلمون- ولعلنا بينا هٰذا بالأمس أنهم يثبتون لله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ القدرة التامة وأنه خالق العبد وفعله، وأنه المقدر لكل شيء، ومع ذلك فقد أعطى العبد اختيارا وهيأ له الأسباب التي تعينه على فعل الخير وتبعده عن الشر، وجعل له مشيئة كما قال تَعَالىٰ: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾[التكوير:٢٨]، فلذلك فإن عملهم من شر الأعمال -أعني الجبرية-.

وأيضا ذكر طائفة أخرى وهم الذين سلبوا الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ الأفعال الاختيارية كالرضى والغضب والفرح والضحك والمجيء والنزول.. وما إلى ذلك من صفات الرب - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- التي يسميها أهل العلم الصفات الاختيارية أو الصفات الفعلية، وهي الصفات المتعلقة بالإرادة والمشيئة، عكسها الصفات الذاتية وهي الملازمة للخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ القائمة بذاته أبدا وأزلا.

والصفات الفعلية هي التي تتعلق بالمشيئة التي يفعلها متى شاء إذا شاء كيف شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ، فقال: إن هؤلاء الطوائف كلها ما قدرت الله حق قدره لكن هٰذه الطوائف طبعا منها الكافرة كالفلاسفة والمشركين والجهمية الأولى، ومنها ما هو متوقف في أمره كأمر المعتزلة، ومنها طوائف لا تخرج من الإسلام ولكن ما قدرت الله حق قدره وهي طوائف الكلابية والأشعرية والماتريدية الذين هم مع أهل السنة في الجملة إلا في باب الأسماء والصفات وفي بعض أمور القدر كالكسب والأسباب وما يتعلق بها، فلذلك جعلهم المصنف ممن لم يقدر الله حق قدره وهم لا يشعرون بذلك؛ لكنهم عندما نفوا عن الله ما أثبت لنفسه من الصفات العُلى فإنهم بذلك ما قدروا الله حق قدره.

[المتن]

ولا قدره[1] حق قدره من جعل له صاحبة وولداً أو جعله يَحِلُّ في مخلوقاته أو جعله عين هٰذا الوجود[2].

([1]) في النسخة [سج]: **قدروا**.

([2]) جاء في حاشية المخطوط [أ]: **قف على ذم النصارى وأهل الحلول العام والوحدة المطلقة**.

ولا قدره حق قدره من قال: إنه رفع أعداء رسوله وأهل بيته وجعل فيهم الْمُلك ووضع أولياء رسوله وأهل بيته، وهٰذا يتضمّن غاية القدح في الربّ – تعالى [الله][١] عن قول الرافضة –،[٢] وهٰذا مشتق من قول اليهود والنصارى[٣] في قول رب العالمين: إنه أرسل ملكا ظالما فادعى النبوة وكذب على الله، ومكث [زمناً][٤] طويلاً يقول: أمرني بكذا ونهاني عن كذا. ويستبيح دماء [أبناء][٥] الله [وأوليائه][٦] وأحبائه، والربّ تعالى يظهره ويؤيده ويقيم الأدلة والمعجزات على صدقه، ويقبل بقلوب الخلق وأجسادهم إليه، ويُقيم دولته على الظهور والزيادة، ويذل أعداءه أكثر من ثمانمائة عام. فوازن بين قول هؤلاء وقول إخوانهم من الرّافضة، تجد القولين سواء.

[الشرح]

أيضا استرسل المصنف في بيان من لم يقدر الله حق قدره، فذكر منهم من جعل له صاحبة وولدا وهم المشركون الأوائل من الذين قالوا: الملائكة بنات الله، أو الذين قالوا: إن الله اتخذ ولدا، أو الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، أو قول اليهود والنصارى قبلهم عندما قالوا: عزير ابن الله، والمسيح ابن الله.

وأيضا لم يقدر الله حق قدره من زعم أن الله حلّ في خلقه وهم أهل الإتحاد الذين يقولون: إن الله حل في عيسى، والباطنية الذين قالوا: إنّ الله حلّ في علي ثم حلّ في أبنائه ثم حل في فلان وفلان ونحو ذلك من عقائد الحلولية الإتحادية، أو من قال: إنه عين الوجود كعقيدة ابن عربي وقد سبق أن فصلناها، وهم القائلون بوحدة الوجود والقائلون إن كل شيء يرى في الوجود هو الله تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

ثم ضرب مثلا أيضا ممن لم يقدر الله حق قدره بالرافضة الذين اتهموا النّبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في حقيقة أمرهم بأنه لم يبلّغ الرسالة على الوجه الصحيح عندما لم يبين أحقية علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأهل البيت بالوصية بعده أو زعموا أنه بينها وأنه مع ذلك لم يبين حقيقة أمر الصحابة الذين زعموا أنهم قد ارتدوا، قاتل الله من كانت هٰذه عقيدته.

---

(١) غير موجودة في المخطوط [ب].

(٢) جاء في حاشية المخطوط [أ]: **قف على ذم الرافضة.**

(٣) جاء في حاشية المخطوط [أ]: **قف على ذم اليهود والنصارى.**

(٤) في المخطوط [ب]: **زمانا.**

(٥) في المخطوط [أ] و[ب]: **أنبياء.**

(٦) زيادة من المخطوط [أ].

ثم إن هٰذا اتهام للرب جل وعلا بأنه قد أرسل رسولا، وهٰذه المدة الطويلة التي مضت على إرساله ومكث هٰذه المدة ثلاثا وعشرين سنة يدعو إلى الله، ثم توفي وفتح الله على يد أصحابه مشارق الأرض ومغاربها، إلى أن وصل ملك المسلمين من الصين شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا ومع ذلك كله كان ذلك على أيدي الصحابة الذين يتهمونهم بالارتداد والكفر وهم أولى بهٰذه الحقيقة.

لذلك فإنهم أشبه ما يكون كما ذكر المصنف بإخوانهم اليهود إخوان القردة والخنازير؛ لأن اليهود زعموا أن النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ملك ظالم، وأنه جلس يستبد ويفعل ويفعل، وفاتهم، فات هؤلاء الملاحدة أنه كيف يمكّنه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ هٰذا التمكين لو لم يكن رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ويمكّنه على مدى ثمانمائة عام والشيخ رحمه الله يشير إلى ماذا؟ إلى عصره هو؛ حيث توفي هو في القرن التاسع، بينما الآن مضى ولله الحمد ألف وأربع مائة وأربع عشرين سنة إذا نظرنا إلى بداية البعثة.

إذن كل هؤلاء ما قدروا الله حق قدره، ولذلك يقول بعض السلف: إنك لو سألت –من خطورة أمر الرافضة وبعدهم عن الدين وانسلاخهم منه– أنك لو سألت يهوديا عن أفضل أمّتهم أو أفضل أقوامهم لقالوا: أصحاب موسى ولو سألت النصارى من أفضل الناس لقالوا: أصحاب عيسى، ولو سألت هؤلاء الرافضة عن شر الأمة لقالوا: أصحاب محمد– صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –. ولا شك أن هٰذا من الإلحاد والبعد عن دين الله نعوذ بالله من الزيغ والضلال.

[المتن]

ولا قدره حق قدره من زعم أنه لا يحيي الموتى ولا يبعث من في القبور؛ ليبين لعباده [الذي][1] كانوا فيه يختلفون وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين.[2]

[الشرح]

هٰذه فقرة أخيرة مما ضربه المصنف – رحمه الله – من الطوائف التي لم تقدر الله حق قدره، وهم الذين ينكرون البعث سواء في ذلك الفلاسفة الذين تقدم ذكرهم أو الدهريون الذين قالوا: ما هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وأن الله لا يبعث من في القبور، فإن هؤلاء يغالطون أنفسهم، ومن شر الطوائف أيضا؛ لأنهم أنكروا حقيقة هم أنفسهم يعلمون وغيرهم يعلمون أن الله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ–

---

(١) في المخطوط [أ] و[ب]: **الذين**.

(٢) قال تَعَالىٰ في سورة النحل: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَاذِبِينَ (٣٩)﴾.

قادر على كل شيء، وأنه كما أوجد الخلق من العدم فإنه قادر على إعادتهم مرة أخرى، وهو أهون عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.[1]

(1) انتهى الشريط الثالث.

بسم الله الرحمن الرحيم

المجلس الرابع

[المتن]

وبالجملة، فهٰذا باب واسع، والمقصود أن كل من عبد مع الله غيره فإنما عبد شيطاناً. قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠)﴾[يس:٦٠]، فما عبد أحدٌ [أحداً][(١)] من بني آدم كائناً من كان إلا [وقد][(٢)] وقعت عبادته للشيطان فيستمتع العابد بالمعبود في حصول غرضه، ويستمتع المعبود بالعابد في تعظيمه له وإشراكه مع الله تعالى، وذلك غاية رضى الشيطان. ولهٰذا قال [الله][(٣)] تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإِنْسِ﴾[الأنعام:١٢٨] أي من إغوائهم [وإضلالهم][(٤)]: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[الأنعام:١٢٨].

فهٰذه إشارة لطيفة إلى السّر الذي لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله وأنه لا [يُغفر][(٥)] بغير التوبة منه، وأنه موجب للخلود في العذاب العظيم، وأنّه ليس تحريمه وقبحه [بمجرّد][(٦)] النهي عنه فقط، بل يستحيل على الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– أن يشرع [لعباده][(٧)] [عبادة][(٨)] إلٰهٍ غيره كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله ونعوت جلاله.

---

(١) غير موجودة في المخطوط [ب] والنسخة [ر].

(٢) غير موجودة في المخطوط [أ] و[ب].

(٣) زيادة من المخطوط ب[ي].

(٤) في النسخة [سج]: **ضلالهم**.

(٥) في النسخة [ر]: يغفره.

(٦) في المخطوط [أ]: **لمجرد**.

(٧) غير موجودة في المخطوط [أ].

(٨) غير موجودة في المخطوط [ب].

[الشرح]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

بعد أن ذكر المصنف – رحمه الله تعالى – أصنافا من الطوائف المنحرفة في هٰذا الباب –أعني في باب الشرك– بيّن أن حقيقة الشرك إنما هي عبادة للشيطان الذي قطع عهدا على نفسه أن يغوي بني آدم ما دامت أرواحهم في أجسادهم، وقد أخبر الله تعالى أنه ليس له سلطان على عباد الله الذين يعبدونه حق عبادته، وإنما سلطانه على من ضعفت عبادتهم وضعف إيمانهم، واتبعوا أهواءهم، وبعدوا عن منهج الله الحق لما اجتالتهم الشياطين، فصاروا عبّادا للشياطين من هٰذا الوجه؛ ولذلك قال تَعَالىٰ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠)﴾[يس:٦٠] وقال تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾[الأنعام:١١٢]، فعبدوهم من دون الله وتعلقوا بهم لأن عبادة الصنم أو الوثن هي إغواء من الشيطان الذي تعهد أن يغوي بني آدم ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧)﴾[الأعراف:١٧]، فتعهد بإغوائهم ونجّى الله عباده المخلصين المتقين الخاشعين المخبتين له – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ–، لذلك فإن حقيقة العبادة إنما هي اجتناب الشيطان الذي أخذ على نفسه أن يغوي بني آدم ولذلك فإن التقرب إلى هٰذه الأصنام والأوثان بشتى أشكالها وألوانها وأنواعها من بشر أو حيوان أو حجر أو شجر أو مدر كل ذلك من إضلال الشيطان الذي قطع عهدا على نفسه بذلك.

فينبغي أن نتخذه عدوا كما أمرنا الله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ– وأن نحذر منه؛ لأنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، وربما أوقعه في الشرك الخفي القلبي الذي لا اطلاع لأحد عليه إلا الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ–، فلذلك وجب الحذر منه.

ومن هنا كانت هٰذه العبادة بمثابة استمتاع كل من المعبود والعابد بعضهم ببعض كما قال– تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ–: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨)﴾[الأنعام:١٢٨]، والاستثناء هنا هو بمعنى أنه لا يخرج شيء عن مشيئة الله، وإلا فالمشركون خالدون مخلدون في النار لا يغفر الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ لهم ذنوبهم أبدا؛ لأن

المشرك خالد مخلد في النار لا يغفر الله له إذا مات على ذلك، ولا يستشكل أحدا الاستثناء فان المقصود به -فيه أقاويل كثيرة-؛ لكن أصح تلك الأقوال هو أنه لبيان أنه لا يخرج شيء عن مشيئة الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- لبيان أنه لا يخرج أي أمر عن مشيئة الله عز وجل، وهو نظير قوله - تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَٰوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨)﴾[هود:١٠٨]، فليس المقصود أن هٰذا العطاء ينتهي أو أنهم لا يخلدون في الجنة وإنما المراد أنه لا يخرج شيء عن مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكذلك الآية التي قبلها بالنسبة لوصف النار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَٰوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧)﴾[هود:١٠٧]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ يقوي هٰذا المعنى الذي رجحه كثير من أهل العلم ومن علماء التفسير.

[المتن]

واعلم[١] أن الناس في عبادة الله تعالى والاستعانة به [على أربعة][٢] أقسام: أجلها وأفضلها أهل العبادة والاستعانة بالله عليها، فعبادة الله غاية مرادهم، وطلبهم منه أن يعينهم عليها ويوفِّقهم للقيام [بها][٣] نهاية مقصودهم، ولهٰذا كان أفضل ما يسأل الرب تعالى الإعانة على مرضاته، وهو الذي علمه النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لمعاذ بن جبل فقال: «يا معاذ، والله إني أحبك فلا تدع أن تقول في كل دبر صلاة: اللهم أعنِّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[٤] فأنفع الدعاء[٥] طلب العون على مرضاته تعالى.[١]

---

(١) من هٰذا الموضع حتى إلى آخر الكتاب فهو نقل من مدارج السالكين لابن القيم بتصرف يسير جدا، بل لا يكاد يغير إلا الكلمة أو الكلمتين، وأما التقاسيم فهي تقاسيم ابن القيم رحمه الله.

(٢) زيادة من المخطوط [أ] و[ب]. وفي المدارج: **إذا عرفت هٰذا فالناس في هذين الأصلين -وهما العبادة والاستعانة- أربعة أقسام.**

(٣) ساقطة من المخطوط [ب].

(٤) **مسند أحمد (تحقيق أحمد شاكر وحمزة الزين)**، حديث رقم (٢٢٠١٨).

سنن أبي داوود: كتاب الصلاة، باب في الاستغفار حديث رقم (١٥٢٢).

سنن النسائي: كتاب السهو، نوع آخر من الدعاء حديث رقم (١٣٠٣).

قال الشيخ الألباني: **صحيح**.

(٥) جاء في حاشية المخطوط [أ]: **قف على أفضل الأدعية.**

[الشرح]

المصنف هنا بدأ يبين مواقف الناس من عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ، وقد ذكر هنا المؤمنين الخلص الذين يعبدون الله طلبا لمرضاته، وطمعا في ثوابه وخوفا من عقابه، كما قال الله - تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾[الذاريات:٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[الأنبياء:٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[الأعراف:٥٦]، هؤلاء هم المؤمنون الذين يعبدونه امتثالا لأمره وطلبا لمرضاته وطمعا في ثوابه وخوفا من عقابه، فهؤلاء يجدون حلاوة من هٰذا الإيمان ولتلك العبادة ولذلك يقول النبي- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يقذف فيه وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**»،[٢] ولذلك دائما يدعون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ بأن يعينهم على تلك العبادة، وأن ييسرها لهم، وأن يزيل كل عقبة تعترض سبيلهم، لذلك أورد المصنف الحديث الذي قاله النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لمعاذ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -: «**يا معاذ و لله إني لأحبك فلا تدعن أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»،[٣] وهٰذا من أجلّ أنواع الأدعية ومن أعظمها، المسلم يلجأ إلى ربه قبل كل شيء أن يوفقه للعمل الصالح وأن يوزعه شكر نعمته ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥)﴾[الأحقاف:١٥]، من أجل أنواع القربات أن تسأل الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- أن يعينك عن عبادته، هٰذا من أجل أنواع القربات، وهٰذا قل من يتفطن له نحن نسأل الله - تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ- دائما كثيرا من الأمور؛ لكن كثيرا من الناس قد لا يتنبه إلى سؤال الله عز وجل أن يعينه على عبادته وأن يوفقه لأدائها على الوجه الذي يرضيه وأن يتقبلها منه.

فينبغي التنبه لهٰذا وأن نسأل الله دائما العون على العمل بما يرضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ.

=

(١) نقل ابن القيم في المدارج: **قال شيخ الإسلام ابن تيمية: قدس الله روحه: تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال العون على مرضاته ثم رأيته في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾**.

(٢) تقدم تخريجه في الصفحة (٣٣).

(٣) تقدم تخريجه في الصفحة (١٠١).

[المتن]

ويقابل هؤلاء القسم الثاني، المعرضون عن عبادته والاستعانة به، فلا عبادة لهم ولا استعانة؛ بل إن سأله تعالى أحدهم واستعان به فعلى حظوظه وشهواته، والله – سُبْحَانَهُ [وَتَعَالىٰ][1] – يسأله من في السمٰوات والأرض ويسأله أولياؤه وأعداؤه فيمد هؤلاء وهؤلاء.

وأبغض [خلق الله][2] إبليس، ومع هٰذا أجاب سؤاله وقضى حاجته ومتّعه بها، ولكن لما لم تكن عوناً على مرضاته كانت زيادة في شقوته وبعده.

وهكذا كل من سأله – تَعَالىٰ – [و][3]استعان به على ما لم يكن عوناً له على طاعته كان سؤاله مبعداً له عن الله، فليتدبر العاقل هٰذا، وليعلم أن إجابة الله لسؤال بعض السائلين ليست لكرامته عليه؛ بل قد يسأله عبده الحاجة فيقضيها له وفيها هلاكه، ويكون منعه منها حماية له وصيانة، والمعصوم من عصمه الله. والإنسان على نفسه بصيرة.

وعلامة هٰذا أنك ترى من صانه الله من ذلك وهو يجهل حقيقة الأمر إذا رآه – سُبْحَانَهُ [وَتَعَالىٰ][4]– يقضي حوائج غيره يسيء ظنه به – تَعَالىٰ – وقلبه محشو بذلك وهو لا يشعر.

وأمارة ذلك حمله على الأقدار وعتابه في الباطن لها، ولقد كشف الله – تَعَالىٰ – هٰذا المعنى غاية الكشف في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلاَّ﴾[الفجر:١٥-١٧]، أي: ليس كل من أعطيته ونعمته وخوّلته فقد أكرمته وما ذاك لكرامته [عليّ][5]؛ ولكنه ابتلاء مني وامتحان له؛ أيشكرني فأعطيه فوق ذلك، أم يكفرني فأسلبه إياه وأحوّله عنه لغيره، وليس كل من ابتليته فضيّقت عليه رزقه وجعلته بقدر لا يفضل عنه [فذاك][6] من هوانه عليّ [ولكن][1] ابتلاء وامتحانا [له][2] مني، أيصبر فأعطيه أضعاف ما فاته أم يسخط فيكون حظه السخط.

---

(١) غير موجودة في المخطوط [أ].

(٢) في المخطوط [أ] و[ب]: **وأبغض خلقه إليه**. في المدارج: **وأبغض خلقه عدوه إبليس**.

(٣) زيادة من المخطوط [أ] و[ب]. في المدارج: **وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه**.

(٤) غير موجودة في المخطوط [أ] و[ب].

(٥) في النسخة [ر]: **عليه**.

(٦) في المخطوط [أ]: **فذلك**.

[الشرح]

هٰذا الصنف الثاني الذين لم يعبدوا الله حق عبادته؛ بل أعرضوا واستحوذهم الشياطين ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩)﴾[المجادلة:١٩]، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى (١٢٦)﴾[طه:١٢٤-١٢٦]، والعياذ بالله، فمثل هٰذا المعرض دائما معرض عن الله مقبل على شهواته وملذاته مقبل على الدنيا وحطامها الزائل ظنا منه أن هٰذا هو الذي خلق من أجله ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى (٤٠)﴾[القيامة:٣٦-٤٠]، ثم إنه إن سأل الله شيئا فإنه يسأله بعض حظوظه الدنيوية وما يتعلق بشهواته وملذاته، وربما أجيب على سؤله من باب الاستدراج - والعياذ بالله -، ولذلك لا يجوز لمسلم أن يغتر بكون فلان من الناس قد أعطي سؤله وقد أُعطي ما أُعطي من هٰذه الحياة الدنيا ومفاتنها الزائلة، ونسي هٰذا أن الدنيا لو كانت تزن عند الله جناح بعوضه ما سقى الكافر منها شربة ماء، ولذلك يعطي الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ منها من يحب و من لا يحب وليس عطاء الله - تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ- لشخص شيئا من حظوظ الدنيا وحطامها الزائل ليس ذلك دليلا على محبة الله له بل ربما يعطيه وهو يكرهه وهو يبغضه وهو يسخط عليه، وربما ليس له من هٰذه الحياة الدنيا إلا ما تحصل عليه في هٰذه الحياة وماله في الآخرة من نصيب، لذلك تجده إذا حُرم حمّل القدر هٰذا الحرمان أو حمل الغير أو لام غيره وضع ذلك على القدر ويقول: إن حظه تعيس، وإن قدره تعيس، وإنه لم يوفق، وإنه.. وإنه.. ويأخذ يسب ويسخط و يدعو على نفسه بالويل والثبور وعظائم الأمور ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦)﴾[الفجر:١٥-١٦]؛ فيحمل القدر ما يجري له من مصائب، إذا أوتي نصيبا من الدنيا قال: إنما أوتيته على علم عندي كما قال ذلك سلفه قارون.

=

(١) في المخطوط [ب]: **ولكنه**.

(٢) غير موجودة في النسخة [ر].

فإذن المقصود أن الإنسان لا يغتر بكونه قد أعطي شيئا من هٰذه الدنيا وحطامها، بل يجب عليه أن يشكر الله على السراء، وأن يصبر على الضراء، وهٰذا شأن المؤمن كما قال رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير؛ إن أصابته السراء شكر فكان خيرا له، وإن إصابته ضراء صبر فكان خيرا له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن**»،[1] ويقول الله -تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ-: ﴿**وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً**﴾[الأنبياء:٣٥]، ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢)**﴾[الملك:٢]، أي أخلصه وأصوبه.

فلا نغتر بهٰذه الدنيا ومفاتنها ويقول: كيف فلان أعطي، وفلان حظه سعيد، وفلان كذا، وهو بعيد، حظه تعيس، ويبدأ يلوم نفسه ويلوم القدر وإلى آخره.

ولذلك يقول السلف: يُحتج بالقدر في باب المصائب لا في باب المعائب. يعني من باب المصائب التي قدرها الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ بعد بذل العبد جهده واستفراغه وُسْعَهُ في عمل الأسباب التي تقربه إلى الله عز وجل والأسباب الواقية، عندها يصبر ويسلم ويذعن و يقول: الحمد الله على كل حال، والحمد لله على ما قدّر، ولا يحتج بالقدر في باب المعائب، في باب ما يقترف الشخص ويجنيه من جرائم ومخالفات وذنوب، فيحتج بالقدر على فعل تلك المخالفات كما هو شأن الجبرية، ولذلك لو احتج أحد بالقدر على ما جرى له من ضيق الحال ونحو ذلك، قل له: لو الآن ضربتك أو لطمتك على وجهك، هل تحتج بالقدر وتأخذ هٰذه اللطمة وتمشي؟ لن يقبل هٰذا الكلام، ولذلك لما احتج سارق على عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بأنه قد قدر الله ذلك عليه قال: وقد قدّر الله علينا أن نقطع يدك، فمثلما احتج بالقدر يُحتج عليه بالقدر.

وعلى أية حال الخلاصة أن ما يجد الإنسان من ضيق أو سعة في هٰذه الحياة الدنيا ليس علامة على محبته الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ للشّخص أو عدم محبته، وإنما علامة محبته اتباع هدي رسوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - والسير على منهجه قولا وعملا واعتقادا.

([1]) **مسلم**: كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، حديث رقم (٢٩٩٩).

[المتن]

وبالجملة، فأخبر تعالى أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق [وتقديره][١] فإنه سُبْحَانَهُ [وَتَعَالَىٰ][٢] يوسّع على الكافر لا لكرامته ويقتر على المؤمن لا لهوانه عليه، وإنما يكرم سُبْحَانَهُ [تَعَالَىٰ][٣] من يكرم من عباده بأن يوفقه لمعرفته ومحبته وعبادته واستعانته.[٤]

[فغاية][٥] سعادة الأبد في عبادة الله والاستعانة به [عليها][٦].

[الشرح]

هٰذا تأكيد لما بدأه المصنف رحمه الله من أن التضييق في الرزق أو التوسيع فيه ليس علامة على محبة الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ– للشخص أو عدم محبته إياه؛ بل إن توسيع الرزق قد يكون فتنة والعياذ بالله وقد يكون ابتلاءً، وأحيانا ربما وُجد عبد لا يصلحه إلا الفقر وربما وُجد عبد لا يصلحه إلا الغنى، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هو الذي يختصّ برحمته من يشاء.

فلذلك ما نغتر هٰذا فقير وهٰذا غني، هٰذا لا يعني شيئا بالنسبة لكون الإنسان محبوبا عند الله أو غير محبوب، وإنما المهم هو أن يعبد ربه حق عبادته، وأن يؤدي حقوقه من فعل المأمورات واجتناب المنهيات، ويكل بقية الأمور إلى الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ– فهو الذي يتولى العواقب مع أخذه بالأسباب المشروعة في طلب الرزق الحلال من طريقه الذي أباحه الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ–؛ ولكن المهم أن يتخذ هٰذه الدنيا مطية إلى الآخرة ولا يعتبرها غاية وإنما هي وسيلة يستعين بها على طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

[المتن]

القسم الثالث من له[٧] نوع عبادة بلا استعانة. وهؤلاء نوعان:

---

(١) في المخطوط [أ]: **وتقتيره**. وهو الصواب. وفي المدارج: وتقديره. والله أعلم.

(٢) غير موجودة في المخطوط [أ] و[ب].

(٣) غير موجودة في المخطوط [أ] و[ب].

(٤) جاء في حاشية المخطوط [أ]: **قف على إكرام الله لعبده.**

(٥) في المخطوط [أ] و[ب]: **فعادت**. وهو الصواب، والله أعلم. ووجدت في المدارج: **فعادت سعادة الدنيا والآخرة إلى** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. والحمد لله على توفيقه.

(٦) غير موجودة في النسخة [ر].

(٧) في النسخة [ر] زيادة: من.

أحدهما: أهل القدر[١] القائلون بأنه سُبْحَانَهُ [تَعَالىٰ][٢] قد فعل بالعبد جميع مقدروه من الألطاف، وأنه لم يبق في مقدوره إعانة [له][٣] على [الفعل][٤]، فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها، وتعريف الطريق، وإرسال الرسول، وتمكينه من الفعل، فلم يبق بعدها إعانة مقدورة [يسأله][٥] إياها. وهؤلاء مخذولون [موكّلون][٦] إلى أنفسهم، مسدود عليهم [طريقة][٧] الاستعانة والتوحيد.

قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُما: الإيمان بالقدر نظام التوحيد فمن آمن بالله وكذّب بقدره نقض توحيده.[٨]

النوع الثاني: من لهم [عبادة][٩] وأوراد ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة [فلم][١٠] تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر، وأنها بدون [المقدور كالموت][١١] الذي لا تأثير له بل كالعدم الذي لا وجود له، وأن القدر كالروح المحرك لها، والمعول على المحرك الأول، فلم تنفذ بصائرهم من السبب إلى المسبِّب ومن الآلة [إلى الفاعل][١٢] فقلّ نصيبهم من الاستعانة. وهؤلاء

---

(١) جاء في حاشية المخطوط [أ]: **قف على ذم القدرية والمعتزلة.**

(٢) غير موجودة في المخطوط [ب].

(٣) غير موجودة في النسخة [سج].

(٤) في المخطوط [ب]: **الفاعل.**

(٥) في النسخة [سج]: يسأل.

(٦) في المخطوط [أ] و[ب]: **موكولون.** وهو الصواب. وجاء في المدارج: **فهم موكولون إلى أنفسهم مسدود عليهم طريق الاستعانة والتوحيد.**

(٧) في المخطوط [أ] و[ب] والنسخة [ر]: **طريق.**

(٨) في المدارج: **نقض تكذيبُه توحيدَه.**

(٩) في المخطوط [أ]: **عبادات.** وأيضا في المدارج.

(١٠) في المخطوط [أ] و[ب] والنسخة [سج]: **لم.** وأيضا في المدارج.

(١١) في المخطوط [أ] و[ب]: **القدر كالموات.** وأيضا في المدارج.

(١٢) في المخطوط [أ] و[ب]: **للفاعل.** في المدارج: **إلى الفاعل.**

لهم نصيب من التصرّف بحسب استعانتهم وتوكّلهم، [ونصيب][1] من الضعف والخذلان بحسب قلة استعانتهم وتوكّلهم، ولو توكل العبد على الله حق توكّله في إزالة جبل عن مكانه[2] لأزاله.

فإن قيل: ما حقيقة الاستعانة عملا؟

قلنا: هي التي يعبر عنها بالتوكل، وهي [حالة][3] [للقلب][4] تنشأ عن معرفة الله تعالى وتفرده بالخلق والأمر والتدبير والضر والنفع، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فتوجب اعتماداً عليه وتفويضاً إليه وثقة به فتصير نسبة العبد إليه تعالى [كنسبة][5] الطفل إلى أبويه، فيما ينوبه من رغبته ورهبته، فلو دهمه ما عسى أن يدهَمَهُ [إلى][6] الآفات [لم يلتجئ][7] إلى غيرهما. فإن كان العبد مع هٰذا الاعتماد من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (٠٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[الطلاق:٢-٣] أي كافيه.

[الشرح]

هنا المصنف – رحمه الله تعالى – بيّن القسم الثاني والثالث، وهم أهل القدر بنوعيه القدرية النفاة والقدرية الجبرية، ولعلنا تكلمنا عن بعض أمورهم في ما مضى، ونشير إشارة إلى مذهبهم، فهو بيّن أن هناك من الناس من يفهمون القدر على أن العبد هو الخالق لأفعاله بما أن الله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ– أعطاه القدرة والاختيار وهيأ له الأسباب وذلل له السبل فإنه لا يحتاج أن يعتمد على الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– في هٰذا الباب، وإنما هو الموجد لأفعاله والمستقلّ بها وهؤلاء هم الذين قلنا بالأمس كما قال الصحابة بأنهم مجوس هٰذه الأمة؛ لأنهم أثبتوا خالقين خالقا للخير وهو النّور وخالقا للشر وهو الظلمة وهؤلاء هم المجوس.

---

(١) غير موجودة في النسخة [سج].

(٢) في المدارج زيادة هنا: **وكان مأمورا بإزالته**.

(٣) في المخطوط [ب]: **حال**.

(٤) في المخطوط [أ]: **في القلب**.

(٥) في المخطوط [ب]: **نسبة**.

(٦) في المخطوط [ب]: **من**.

(٧) في المخطوط [ب]: **لا ينتجي**.

وقد أشبهتهم القدرية لأنهم جعلوا الله خالقا للعبد والعبد هو الخالق لفعله، وهؤلاء أيضا عملهم هٰذا والعياذ بالله من الخذلان، حتى أدى ببعضهم إلى نفي علم الله بالأشياء قبل كونها، وأدّى ببعضهم إلى نفي التقدير بالكلية، وأدى ببعضهم إلى نفي الكتابة وإلى نفي العلم وإلى نفي التقدير، فجعلوا العبد هو المستقل بأفعال وأنه لا يحتاج أن يرجع إلى الله بالاستعانة به على هٰذه الأعمال وهم من شر الخليقة.

والفئة الثانية الجبرية وهي التي سلبت العبد التصرّف وأن وضعه كوضع الغصن في مهب الريح حيثما تميله يميل، وأنه ليس له تصرف وليست له قدرة، وليست له استطاعة في أن يفعل أو يترك؛ لأنه سلب كل شيء سلب القدرة على فعل الأشياء، وسلب العقل وسلب التصرف وسلب الاختيار، فجعلوه لا اختيار له وهؤلاء ضَعُفَ عندهم باب الاستعانة من هٰذا الوجه بأنهم جعلوا الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ هو الفاعل للأشياء كلها، ومن هنا تخلّوا عن أوامر الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ، وعلقوه على القدر وعلى الجبر وأنهم مجبورون على أفعالهم.

ثم وجّه المصنف – رحمه الله تعالى – طريقا إلى المَخْلص من هٰذا وهو التوكل على الله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ– مع الأخذ بالأسباب المشروعة.

هٰذه حقيقة الاستعانة العظيمة بالله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ– أن يتوكل عليه ويفوض أمره إليه مع الأخذ بالأسباب التي شرعها الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ–، وأن يعتمد عليه في كل شيء مع أخذ الأسباب المشروعة، ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾[الطلاق:٣]، ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢)**﴾[الطلاق:٢]، ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤)**﴾[الطلاق:٤]، ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥)**﴾[الطلاق:٥]، ولذلك يقول النبي– صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِمَاصا وتروح بِطَانا**».[1]

ومعلوم أن الطير لم تقبع في أعشاشها تنتظر الرزق يأتيها من كل مكان، وإنما تسرح عند الصباح الباكر تطلب رزق الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ فلم ترجع إلا وقد ملأت حواصلها وأتت بما يكفي لصغارها.

([1]) **سنن الترمذي**: كتاب الزهد ، باب في التوكل على الله، حديث رقم (٢٣٤٤)..

سنن ابن ماجه: كتاب الزهد، باب التوكل واليقين، حديث رقم (٤١٦٤).

وقد أورده الشيخ الألباني في **السلسلة الصحيحة** برقم (٣١٠)، وقال هو صحيح على شرط مسلم.

من هنا فإن حقيقة التوكل ليس هو التواكل، وليس هو أن يعتقد أنّ الإنسان مجبور عن فعل كل شيء ومن ثم يفسر التوكل بغير معناه، ولا أنه يعتقد أن الإنسان له الحرية المطلقة في فعل كل شيء، وأنه مستقل في أفعاله، ومن ثم أيضا يذهب عنه التوكل لأن حقيقة التوكل هو الاعتماد على الله وربط الأسباب بمسبباتها؛ لأن مشكلة الجبرية أنها فصلت السبب عن المسبب وألغت الأسباب ووافقتهم الأشعرية على ذلك، قالوا: الأسباب لا تأثير لها.

أما المؤمنون فيقولون: إنّ لها تأثير؛ لكن بإذن الله، لها تأثيرا بإذن الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ-؛ فهؤلاء يلغون الأسباب بالكلية، فلا يرون السبب مترتبا على المسبب، أو لا يرى المسبب مترتبا على حصول السبب؛ لكن يلغون الأسباب بالكلية.

وأما أهل السنة فإنهم يرون أن الأسباب لها تأثير بإذن الله؛ لكن لا يتم تأثيرها ولا يكون إلا بقدر الله وبإذن الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ-؛ ومن هنا يتوكلون على الله ويفوّضون أمورهم إليه مع الأخذ بالأسباب المشروعة التي تنفعهم، ولذلك يقول النبي- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**استعن بالله ولا تعجزن**»، أنظر إلى كلمة (**استعن**) مضمومة إلى كلمة ماذا (**ولا تعجزن**)؛ يعني ملحظ عظيم جدا أن تعتمد على الله؛ لكن لا تجعل هٰذا الاعتماد أن تقبع في بيتك وتجلس تنتظر الرزق يأتيك من السماء، وإنما اعمل الأسباب، اعتمد على الله أولا ثم خذ بالأسباب، هٰذا المراد «**استعن بالله وتعجزن ولا تقل لو أني فعلت كذا وكذا لكان كذا وكذا، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان؛ ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل**»،[1] فإذا بذلت الأسباب فلم توفق إلى فعل الشيء فاعلم أنه لم يرده الله لك، وعليك أن تسلم لقضاء الله وقدره وأن تصبر وتحتسب لما عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ.

[المتن]

القسم الرابع: من له استعانة بلا عبادة وتلك حالة من شهد [تفرّد][2] الله بالضر والنفع، [ولم يَدْرِ بما][3] يحبه ويرضاه فتوكَّل عليه في حظوظه، فأسعفه بها. وهٰذا لا عاقبة له سواء كانت أموالاً أو رياسات أو جاهاً عند الخلق أو نحو ذلك، فذلك حظه من دنياه وآخرته.

---

(١) **مسلم**: كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، حديث رقم (٢٦٦٤).

(٢) في النسخة [سج]: **بتفرّد**.

(٣) في المخطوط [أ] و[ب]: **ولم يدر ما**. والصواب ما في المدارج: **وَلَمْ يَدْرِ مَعَ مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ**.

واعلم أن العبد لا يكون متحققا بعبادة الله – تعالى – إلا بأصلين:

أحدهما: متابعة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والثاني: إخلاص العبودية.

[الشرح]

يعني هٰذا الموضوع الرابع تكملة للموضوع الأول وهو الإنسان الذي لا يأخذ بالأسباب التي توصله إلى الله ولا همّ له إلا أن يطلب حظوظ الدنيا ومفاتنها أعطاه الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ من هٰذه الدنيا وربما أغدق عليه منها وماله من الآخرة من نصيب، لأنه ليس له إلا ما طلب، فهو طلب هٰذه الدنيا ومفاتنها ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ﴾[الإسراء:١٨]، ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩)﴾[الإسراء:١٩].

فإذن الذي يقتصر أمره على طلب الدنيا وحطامها الزائل يعطيه الله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ؛ – لأن الله يعطي منها من يحب ومن لا يحب.

[المتن]

والناس في هذين الأصلين [علىٰ][(١)] أربعة أقسام:

أهل الإخلاص والمتابعة.. فأعمالهم كلها لله، وأقوالهم ومنعهم و[إعطاؤهم][(٢)] وحبهم وبغضهم كل ذلك لله – تعالى – لا يريدون من العباد جزاءً ولا شكوراً، عدُّوا[(٣)] الناس كأصحاب القبور لا يملكون ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، [فإنه لا يعامل أحداً من الخلق إلا لجهله بالله وجهله بالخلق.][(٤)]

---

(١) غير موجودة في المخطوط [أ] و[ب].

(٢) في المخطوط [أ] و[ب]: **وعطاهم**. وفي المدارج: **عطاؤهم**.

(٣) في النسخة [ر]: أعدوا.

(٤) قال ابن القيم في المدارج: فالعمل لأجل الناس وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم ورجائهم للضر والنفع منهم لا يكون من عارف بهم ألبتة؛ بل من جاهل بشأنهم، وجاهل بربه. فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم، ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله، وعطاءه ومنعه وحبه وبغضه، **ولا يعامل أحد الخلق دون الله إلا لجهله بالله وجهله بالخلق**، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله على معاملتهم.

والإخلاص هو العمل الذي لا يقبل الله من عاملٍ عملاً صواباً عارياً منه، وهو الذي ألزم عباده [به][١] إلى الموت، قال [الله][٢] تَعَالىٰ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[الملك:٢]، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[الكهف:٧]، وأحسن العمل أخلصه وأصوبه.[٣] فالخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على وفق سنة رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، [و[هٰذا][٤] هو العمل الحسن المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[النساء:١٢٥]][٥] وهو العمل في الصالح قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحا﴾[الكهف:١١٠]، وهو الذي أمر به النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في قوله: «كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد»[٦]، وكل عمل بلا متابعة فإنه لا يزيد [عامله][٧] إلا بعداً من الله تعالى، فإن الله –[تعالى][٨]– إنما يُعبد بأمره لا بالأهواء والآراء.

[الشرح]

هنا المصنف رحمه الله ذكر شروط العمل التي تحدثنا عنها في ما مضى وهي التي تضمنها قوله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)﴾[الكهف:١١٠]، حيث قال فيهما أهل العلم: إنهما ركنا العمل؛ أعني الإخلاص والمتابعة.

---

(١) ساقطة من المخطوط [ب].

(٢) غير موجودة في الخطوط [أ] و[ب].

(٣) قال ابن القيم في المدارج: **قال الفضيل بن عياض: العمل الحسن هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا ابا علي ما أخلصه وأصوبه، قال: إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل، حتى يكون خالصا صوابا، والخالص ما كان لله والصواب ما كان على السنة.**

(٤) غير موجودة في المخطوط [أ].

(٥) موضعه من المخطوط [أ] و[ب] والنسخة [سج] بعد: وهو العمل الحسن في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحا﴾[الكهف:١١٠].

(٦) **البخاري**: كتاب البيوع، باب النجش، تعليقا.

مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، حديث رقم (١٧١٨).

(٧) في المخطوط [أ] و[ب]: **عمله**. وفي المدارج: **عامله**.

(٨) غير موجودة في المخطوط [أ].

والإخلاص هو أصل كل عبادة نريد أن نتقرب بها إلى الله وأصل كل عمل نريد أن نتقرب به إلى الله لابد أن يكون خالصا صوابا، ولذلك قال الفضيل بن عياض – رحمه الله – في تفسير قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[الملك:٢] أي أخلصه وأصوبه، وهما ركنا كل عمل نريد أن نتقرب به إلى الله.

ثم قسّم الناس اتجاه هٰذا الإخلاص والصواب إلى أقسام:

فالقسم الأول: هم الذين صدقوه أي أخبتوا لله وخضعوا له وابتغوا وجهه الكريم، وكانت أعمالهم موافقة لرسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بلا إفراط وتفريط وبلا زيادة ولا نقصان، وهؤلاء هم عباد الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ المخلصين الذين قال الله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ– فيهم: ﴿إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)﴾[الصافات:٤٠]، والذين قال الله فيهم: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[النساء:١٢٥] وهم الذين قال الله – تعالى – فيهم: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (٧)﴾[الكهف:٧].

فالمقصود أن أهل الإخلاص والمتابعة هم أهل السنة والجماعة، وهم الفرقة الناجية، وهم الطائفة المنصورة، وهم أهل التقوى والاستقامة، وهم أهل الإيمان والإسلام، كل هٰذه الأسماء تنطبق عليهم، وهم الجماعة؛ أي جماعة المسلمين مهما قلوا، ولا يُنظر إلى الكثرة فإن الكثرة لا عبرة بها؛ لأن الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– يقول: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ﴾[الأنعام:١١٦].

والمقصود أن هذين الأمرين –أعني الإخلاص والمتابعة– لا ينفك أحدهما عن الآخر، فلا إخلاص بلا متابعة ولا متابعة بلا إخلاص.

وخلاصة معنى الإخلاص أن تبتغي بعملك وجه الله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ–، لا تريد من أحد جزاء ولا شكورا، ويتنافى معه الشرك بنوعيه الأكبر والأصغر، ويتنافى معه الرياء وإرادة الإنسان بعمله الدنيا، فإذا تجرد من ذلك كله فقد أخلص عمله لله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ–، والمتابعة معناها الاقتداء بالرسول – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في أقواله وأفعاله وتقريراته كما قال الله– عز وجل –: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١)﴾[الأحزاب:٢١]،

ولذلك حذر من مخالفة أمره فقال – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[١] أي ليس من ديننا، فمن ابتدع في دين الله ما ليس منه فهو مردود على صاحبه.

والمهم أن نعلم أن الإخلاص والمتابعة يعني ركنان عظيمان لابد من توفرهما في عمل نتقرب به إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ.

[المتن]

الضرب الثاني: من لا إخلاص له ولا متابعة [له][٢]، وهؤلاء شرار الخلق، وهم المتزيّنون بأعمال الخير يراؤون بها الناس، وهٰذا الضرب يكثر فيمن انحرف عن الصراط المستقيم من المنتسبين إلى الفقه والعلم والفقر والعبادة فإنهم يرتكبون البدع والضلال والرِّياء والسمعة ويحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا. وفي أضراب هؤلاء نزل قوله تَعَالىٰ: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[آل عمران:١٨٨].

[الشرح]

هٰذا الضرب الذي أشار إليه المصنف – رحمه الله – يغلب وهو الذي فقد الإخلاص والمتابعة رغم انتسابه إلى الإسلام ينطبق على فئتين:

الفئة الأولى: المنافقون الذين يظهرون الإسلام ويبطنون خلافه، فهؤلاء ما أخلصوا في عبادتهم وما تابعوا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في طاعته.

والفئة الثانية: هم من أشار إليهم المصنف هنا، وهم بعض من ينتسب إلى الإسلام من أهل الفقه وأدعياء العلم والفقر، كلمة (الفقر) هٰذا اصطلاح عند الصوفية، يسمون المتصوف أو شيخ الطريقة يسمونه بالفقير، وهؤلاء يظهرون التنسك أيضا، وهم على غير هدى –إما عن قصد أو عن غير قصد– يظهرون التنسك والتعبد، وهم إما يقصدون مُرَاءاة الناس وإما أنهم يفعلون ذلك على غير هدى فيستنون بغير سنة الرسول – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ويهتدون بغير هدي النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؛ بل لا يطبقون من سنته شيء، وأكثر هؤلاء هم الصوفية وغلاة أهل التصوف الذين حولوا عبادة الله إلى طقوس معينة يرددونها بين الناس، وإلى أن أصبحوا طواغيت يعبدون من دون الله ويُتعلق

---

(١) تقدم تخريجه في الصفحة (١١٢).

(٢) غير موجودة في المخطوط [ب].

بهم من دون الله ويسبح بحمدهم من دون الله، ويركع لهم ويسجد لهم، وهم يرضون بذلك – والعياذ بالله –، فمثل هؤلاء أيضا لا خير فيهم ومن أهل الشقاء؛ بل هم من شر خلق الله؛ لأنهم يُغرون الناس بما يظهرون من تنسك وهم أبعد ما يكون عن منهج الله الحق.

[المتن]

الضرب الثالث: من هو مخلص في أعماله؛ لكنّها على غير متابعة الأمر، كجهّال العبّاد والمنتسبين إلى الزهد والفقر وكل من عبد الله على غير مراده.

والشأن ليس في عبادة الله [فقط؛ بل في عبادة الله][1] كما أراد الله. ومنهم من يمكث في [خلواته][2] تاركاً للجمعة، ويرى ذلك قربةً ويرى مواصلة صوم النهار، [والقيام][3] بالليل قربة، [وأن صيام][4] يوم الفطر قربة وأمثال ذلك.[5]

[الشرح]

هٰذا الضرب هو جزء من الضرب الثاني وهم غلاة الصوفية، والحمد لله أنهم في بلادنا قلة، وإن كانت هناك دعوة تمثّلهم اكتسحت كثيرا من شبابنا وشيبنا، هٰذه الدعوة الصوفية التبليغية التي اغترّ بها من اغتر هي تدعو إلى هٰذا المسلك في نهاية المطاف؛ لأن زعماء تلك الدعوة في خارج بلادنا هٰذا هو مسلكهم، وهو أنهم لا يشهدون جمعة ولا جماعة، ومنهم من لا يشهد إلا الجمعة أحيانا، ويرون أن ذلك قربة.

وهم على قسمين:

قسم منهم يعلمون كذب أنفسهم يعني يعلمون ضياعهم؛ ولكنهم يستفيدون من ذلك اكتساب أموال الناس، وقد أوقفت عليهم الأموال الكثيرة وصُرفت لهم من دون الله، ولذلك يصعب عليهم أن يتركوا هٰذا الأمر لأن هٰذا ثدي يرتضعون منه، فإذا تركوا هٰذه العقيدة وهم يعرفون بطلانها انقطع ذلك الثدي.

---

(١) سقطت من المخطوط [ب]، فاختل المعنى.

(٢) في المخطوط [ب]: **خلوته**.

(٣) غير موجودة في المخطوط [ب]. ولعل الصواب أن تحذف.

(٤) في المخطوط [أ]: **وإن صام**.

(٥) فعبارة المدارج: **كمن يظن أن سماع المكاء والتصدية قربة، وأن الخلوة التي يترك فيها الجمعة والجماعة قربة، وأن مواصلة النهار بالليل قربة، وأن صيام يوم فطر الناس كلهم قربة. وأمثال ذلك.**

وهٰذا يدخل في الضرب الثاني الذي تقدم لنا.

وأما الذي أشار إليه المصنف في الضرب الثالث فهم الذين يغترون ببعض أعمالهم، ربما يصومون النهار ويقومون الليل وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، ويتقربون إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ بغير هدي نبينا محمد – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، يصومون الجمعة، ويصومون العيدين، ويتبتلون ويتركون الزواج، ويتركون بعض الأطعمة، ويتنسكون بشتى ألوان التنسك الذي أشبه ما يكون بتنسك البوذيين والهندوك، فيبعدون عن منهج الله الحق، وهؤلاء أيضا من شرّ الناس؛ لأن الناس يغترون بهم أكثر والعياذ بالله، وربما بكوا؛ ربما سمعت منهم البكاء والنحيب ودموعهم تخضلّ منها لحاهم، ومع هٰذا ينطبق عليهم قول الله– عز وجل–: ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)**﴾[الكهف:١٠٣-١٠٤]، ومنهم أهل الأذكار المبتدعة المعينة تجدهم لهم عدة أذكار يبدأ بـ(لا إلٰه إلا الله)، ثم يلغون الجملة الأولى وتبقى الله، الله، الله، ثم يلغون لفظ الجلالة ويرددون هو، هو، هو ونحو ذلك كأنها كلاب تنبح في خلواتها، ثم ربما في الأخير يفقد الصوت بالكلية ويبقى صامت لا يتكلم طول حياته، ويظن أن ذلك يقربه إلى الله، وهو يبعده عن الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– ؛ لأن ذلك كله على غير هدي نبينا محمد – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مهما زهد ومهما تعبد لا قيمة لعمله هٰذا، ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣)**﴾[الفرقان:٢٣]، ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)**﴾[الكهف:١٠٣-١٠٤]، «**من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد**»، نعم وربما توّبوا بعض العصاة بهٰذه الطريقة.

وأنصح الإخوة بقراءة الجزء الحادي عشر من مجموع الفتاوى فقد تعرّض شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله لهٰذه الفئة وفصل ما يتعلق بهم؛ لأنهم يأتون بأشياء وطبول وأغاني وأناشيد يتوبون بها الناس حتى يجد الواحد نفسه يعيش في خيال، وهٰذا يطبقه الآن كثير من هٰذه الجماعة الفئة الضالة التي سميتها قبل قليل؛ يجعلون الإنسان يسبح في خيال وينظر إلى غيره وكأنه ليس له حظ من الدين أبدا؛ بل هو الذي كل همه أن يُمسك بيد الشيخ أو يتمسّح به أو يتعلق به أو يحني رأسه عنده أو يركع له أو يبايعه، وهٰذا هو مبلغ مرامه والعياذ بالله، تجدهم والعياذ بالله يفتتنون بهم بهؤلاء الناس يفتتنون، ولذلك يزعمون أن محمد إلياس ينتقل بين الأشجار، ثم يبكي وينحب ويسمع صوته، فإذا وصل الناس إليه انتقل إلى شجرة أخرى، وابتعد عنهم، وهكذا يهرب من شجرة إلى شجرة، والرسول – صَلَّى اللهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ما هرب من الناس وهو أعظم الناس خشوعا وخشية لله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– ، هو أتقى الناس لله، كما قال عن نفسه – عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ –: «**والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له؛ ولكني أصوم وأفطر وأنام وأقوم وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني**».[1]

فإذن هٰذه القضية خطيرة جدا؛ يعني فعلا الإنسان يغترّ، لحيته تملأ صدره، وهو إما صامت لا يتكلم، وإما أنه يردد بعض الأذكار البدعية التي ما أنزل الله بها من سلطان، مع أنكم تعلمون؛ أذكر لكم بهٰذه المناسبة قصة ابن مسعود رضي الله عنه، وقد جاءه أبو موسى الأشعري رضي الله عنهم أجمعين، وقد شاهد أناسا يتحلقون وبينهم داعية يقول: سبحوا الله مائة. فيسبّحون الله مائة، كبروا الله مائة، فيكبرون الله مائة، أنظر التكبير والتسبيح ما فيه شيئا، ولكن المشكلة في ماذا؟ في الهيئة والطريقة احمدوا الله مائة، وهكذا فجاء أبو موسى الأشعري فأخبر عبد الله بن مسعود – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، فجاء عبد الله بن مسعود فقال: ما أسرع هلكتكم يا أمة محمد – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، فهٰذه ثياب رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لم تبلَ، وآنيته لم تكسر، فوالله إنكم لمفتتحو باب ضلالة، أو تزعمون أنكم فقتم أصحاب نبيكم علما– صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –. وفي رواية أنه قال: والله لقد جئتم بدعة ظلما أو زعمتم أنكم فقتم أصحاب نبيكم – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – علما.

يقول الرّاوي لهٰذا الأثر عن هٰذا الصحابي الجليل كما روى الدارمي وغيره بسند صحيح يقول: فرأيت عامة تلك الحِلق يطاعنونا يوم النهروان. سبحان الله أنظر كيف بدأت الفتنة بشرارة صغيرة، تعرفون ما هو يوم النهروان؟ يوم الخوارج يوم قتال الخوارج مع علي – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – الذين استباحوا دماء المسلمين، هٰذه الحِلَق التي بدأت بها هٰذه البدعة البسيطة، ما كانت مركبة، كانت بسيطة جدا تسبيح وتهليل وتحميد؛ لكن على غير هدينا نبينا محمد – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فتطورت هٰذه إلى أن انضموا إلى الخوارج، وصاروا يطاعنون المسلمين ويقاتلونهم ويستحلون دماءهم وأموالهم.

فإذن علينا أن نحذر من هؤلاء الذين هم أصحاب التنسك المبتدع، ولو رأينا عندهم من الخشوع والبكاء ما رأينا، كشأن بعض الطوائف الآن؛ يعني الخوارج يصومون النهار ويقومون الليل ويبكون

([1]) **البخاري**: كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، حديث رقم (٥٠٦٣).

مسلم: كتاب النكاح، باب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم، حديث رقم (١٤٠١).

حتى أنّ الواحد منهم لا يتكلم إلا بالقرآن، بعضهم أربعين سنة لم ينطق إلا بالقرآن؛ لكنه ضال مضل وأخبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه ضال مضل وقال: «**لئن ظفرت بهم لأقتلنهم قتل عاد**»،[1] وهم زُهاد عُباد؛ لكنهم على غير هدى يستحلون دماء المسلمين، يستحلون قتل علي وعمر ومعاوية رضي الله عنهم، ويتساءلون عن حكم دم البعوض حلال أو حرام، سبحان الله، يمسكون بعبد الله بن خباب بن الأرت – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – ويقتلونه ويقتلون امرأته ويبترون بطنها ويخرجون الحمل منه، ثم يتساءلون بعد قليل عن حكم الرطب من النخل حلال أم حرام.

إذن هٰذه عواقب الفتن والبدع فلا تغتروا يا إخواني، فوالله أنا أقول هٰذا الكلام لأننا قد نغتر ببعض الناس وببهرجته وبكلامه وبصفصفته، قد يجيد الخطبة والتحذلق يمد حنجرته أربع ساعات، خمس ساعات وهو يتكلم، ويشقق الكلام من بعضه، ويؤثر ويبلغ، ويأخذ بالألباب؛ لكنه على ضلال، الآن الذين يأتون عندنا في المسجد النبوي وعند البقيع يلطمون أنفسهم ويتباكون من الرافضة وغيرهم، ويفعلون يلعنون الصحابة ويتباكون سبحان الله العظيم.

فإذن هٰذه القضية انتبهوا لها، لا تغتروا بشخص يأتي ويظهر التنسك والخشوع، ما لم يكن عمله موافقا لهدي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا تأخذنا العواطف رأيناه يبكي قلنا: خلاص هٰذا هو المؤمن الذي لا غيره.

[المتن]

الضرب الرابع: من أعماله على متابعة الأمر، لكنها لغير الله [تعالى][2] كطاعات المرائين، وكالرجل يقاتل رياء وسمعة وحمية وشجاعة وللمغنم، ويحج ليقال، ويقرأ ليقال، ويُعَلِّم [ويؤلف][3] ليقال، فهٰذه أعمال صالحة لكنها غير مقبولة؛ قال [الله][4] تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء﴾[البينة:٥].

---

(١) **البخاري**: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تَعَالىٰ: ﴿وإلى عاد أخاهم هودا.. ﴾..، حديث رقم (٣٣٤٤).

مسلم: كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، حديث رقم (١٠٦٤).

(٢) غير موجودة في المخطوط [ب].

(٣) غير موجودة في المخطوط [أ].

(٤) زيادة من المخطوط [ب].

فلم [يُؤمر][١] الناس إلا بالعبادة على المتابعة والإخلاص فيها و[القائم][٢] بهما [هم][٣] أهل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

[الشرح]

هٰذا الصنف الرابع معروف وقد تكلمنا وهم المراءون وقد صح عن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أنه قال فيما يرويه عن الله- عز وجل -: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»،[٤] وسئل النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عن الرجل يقاتل رياءً ويقاتل حمية ويقاتل للذكر ويقاتل شجاعة، فهل ذلك في سبيل الله؟ فقال - عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ -: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فذلك في سبيل الله**»،[٥] وصح عنه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من حديث أبي هريرة قد رواه الترمذي بسند حسن[٦] وهو: «**أول ما تُسعّر النار بثلاث**» وذكر من هؤلاء الثلاث عالم ومجاهد وصاحب المال، باختصار يعني العالم الذي يقرأ ليقال: إنه قارئ، ويؤتى بالعالم يوم القيامة فيعرف نعمة الله فيعرفها فيقال: ماذا عملت بها؟ فيقول: ربي تعلمت كتابك وأقرأته الناس. فيقال: لا؛ ولكنك قرأت ليقال: إنك قارئ. فيؤمر به فيسحب على وجهه في النار، والعياذ بالله.

ثم يؤتى بالمجاهد فيعرف نعمة الله فيعرفها، ثم يقال: ماذا عملت بها؟ فيقول: قاتلت في سبيلك حتى قتلت. فيقول: لا، وإنما قاتلت ليقال: إنك شجاع أو إنك جريء، فقد قيل، ثم يؤمر به ويسحب على وجهه في النار.

---

(١) في المخطوط [أ]: **يَأمر**.

(٢) في المخطوط [أ]: **القُيَّام**.

(٣) ساقطة من المخطوط [ب].

(٤) **مسلم**: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، حديث رقم (٢٩٨٥).

(٥) **البخاري**: كتاب الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، حديث رقم (٢٨١٠).

مسلم: كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، حديث رقم (١٩٠٤).

(٦) وهو في صحيح **مسلم**: كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، حديث رقم (١٩٠٥). وهو أيضا في الترمذي: كتاب الزهد ، باب اما جاء في الرياء والسمعة، حديث رقم (٢٣٨٢)، وقال الترمذي: هٰذا حديث حسن غريب، وقال الشيخ الألباني: صحيح.

ثم يؤتى بالثالث وهو صاحب المال ويسأل عما أنفق، يقول: تصدقت وبذلت وفعلت وفعلت، فيقال: لا؛ ولكنك تصدقت ليقال: إنك جواد، وقد قيل، ثم يأمر به فيسحب على وجهه في النار والعياذ بالله.

فهٰذا وُجد العمل وهو موافق للشرع؛ ولكنه فقد الشرط الأول وهو ماذا؟ وهو الإخلاص لله وحده.

فالإخلاص والمتابعة هي الأمران كفرسي رهان لا ينفك أحدهما عن الآخر.

[المتن]

ثم أهل مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لهم في أفضل العبادة وأنفعها وأحقّها بالإيثار والتخصيص أربعة طرق، وهم في ذلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها أشقّها على النّفوس وأصعبها، قالوا: [لأنه][1] أبعد الأشياء من هواها، وهو حقيقة التعبّد، والأجر على قدْر المشقة، ورووا حديثا [ليس][2] له أصل «أفضل الأعمال أحمزها»،[3] أي أصعبها[4] وأشقّها، وهؤلاء هم أرباب المجاهَدات والجور على النّفوس، قالوا: وإنما تستقيم النّفوس بذلك، إذْ طبعها الكسل و[المهاونة][5] والإخلاد إلى الراحة، فلا تستقيم [النفوس بذلك][6] إلا بركوب الأهوال وتحمّل المشاق.

[الشرح]

تصنيف المصنف – رحمه الله – لفعل الناس الذين هم أهل الإخلاص والمتابعة أن منهم من يبالغ في مجاهدة النفس وتحميلها ما لا تطيق ويكلفها مالا تطيق، ويظن أن ذلك هو الذي يقرب إلى الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ–، فهٰذا لا ينبغي وليس هٰذا من هدي رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؛ بل هٰذا

---

(١) في المخطوط [أ]: **إنه**. في المدارج: **لأنه**.

(٢) سقطت من المخطوط [ب] فاختل المعنى.

(٣) قال المزي : هو من غرائب الأحاديث، و لم يرو في شيء من الكتب الستة، كذا في ((المقاصد الحسنة)) (١٣٨)، وقال الزرقاني في ((مختصره)) (ص٦٣): لا يعرف. قلت: وهو قول الزركشي كما في ((المصنوع)) (ص٥٧)، ونقل فيه عن ابن القيم قوله في الحديث: لا أصل له. [ع]

(٤) وكذا قال ابن الأثير في النهاية (١/٤٤٠). [ع]

(٥) في المخطوط [أ] و[ب]: **المهانة**. وأيضا في المدارج. وفي النسخة [ر]: المهادنة.

(٦) سقطت من المخطوط [ب].

من التنطّع، وقد قال- عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ -: «**هلك المتنطعون**»[١]؛ أي المتكلِّفون المتعمِّقون الذين يكلِّفون أنفسهم ما يشق عليهم، مما يدعوهم إلى الملل، وقد ثبت عن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أنه قال: «**إن الله لا يمل حتى تملوا**»،[٢] ومثل هٰذه الصفة من الصفات المقيدة يجب أن تثبت كما جاءت عن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ولا يشتق منها؛ فلا نقول إن من صفاته صفة الملل، وهي نظير قوله تعالى: ﴿**يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ**﴾[النساء:١٤٢]، ﴿**وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)**﴾[آل عمران:٥٤]، ونحو ذلك.

فهٰذه من الصفات المقيدة بوضع معين فلا يزاد على السياق الذي جاءت فيه، وهي من المشاكَلَة والصفات المتقابلة، أو صفات المقيدة، فلا نزيد عليها شيئا.

الشاهد أن التكلف والتعمق، وتعلمون الحديث صحيح أن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كان يقف حتى تتورم قدماه، وكان يواصل؛ لكن ذلك من خصوصياته - عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ - ، وقد أعطاه الله من القوة والقدرة على المجاهدة ما لم يعطَ لغيره، ولذلك كان يواصل وينهى عن الوصال.

فالشاهد أن الإنسان لا يشق على نفسه؛ لأنه إذا شق على نفسه ربما يدعوه يوما من الأيام إلى الملل، وإلى أن يترك أو أن يتخلى، بل يقتصد في العبادة ويجعل لنفسه وقتا من الليل مثلا من ثلث الليل يجتهد فيه ما يقربه إلى ربه، ويصوم الأيام التي شرعها الله - تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ- والرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وصيام الاثنين والخميس ونحو ذلك؛ لكن بعض الأمور مثل صيام يوم وإفطار يوم الذي فعله عبد الله بن عمرو بن العاص وتمنى أنه لم يلتزم به أمام النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في آخر حياته.

فإذن على المسلم أن لا يشق على نفسه، ولا يعني هٰذا أنه يترك قيام الليل أو يترك صوم التطوعات، لا، هٰذا أمر مطلوب؛ لكن ينبغي أن لا يحمل نفسه فوق طاقتها فيضر بها أو يدعوه ذلك إلى الملل والسأم.

---

(١) **مسلم**: كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، حديث رقم (٢٦٧٠).

(٢) **البخاري**: كتاب اللباس، باب الجلوس على الحصير حتى تملوا، حديث رقم (٥٨٦١).

مسلم: كتاب صلاة المسافر وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره..، حديث رقم (٧٨٢).

[المتن]

الصّنف الثاني: قالوا: أفضل العبادات وأنفعها التجرّد والزهد في الدنيا والتقلل منها غاية الإمكان واطّراح الاهتمام بها، وعدم الاكتراث لما هو منها.

ثم هؤلاء قسمان:

فعوامُّهم ظنّوا أن هٰذا غاية، فشمَّروا إليه وعملوا عليه، وقالوا: هو أفضل من درجة العلم والعبادة، ورأوا الزّهد في الدنيا غاية كل عبادة ورأسُها.

وخوّاصهم رأوا هٰذا مقصوداً لغيره، وأن المقصود به عكوف القلب على الله – تعالى –، والاستغراق في محبته والإنابة إليه والتوكل عليه والاشتغال بمرضاته، فرأوا أفضل العبادات دوام ذكره بالقلب واللسان، ثم هؤلاء قسمان:

فالعارفون إذا جاء الأمر والنهي بادروا إليه ولو فَرَّقهم وأذهب [جمعهم][1].

والمنحرفون منهم يقولون: المقصود من القلب جَمعِيَّتُه، فإذا جاء ما [يَفَرِّقُه][2] عن الله لم يلتفتوا إليه ويقولون[3]:

يُطالب بالأوراد من كان غافلاً ... فكيف بقلب كل أوقاته ورد

ثم هؤلاء أيضا قسمان:

منهم من يترك الواجبات والفرائض لجمعيَّته.

ومنهم من يقوم[4] بها ويترك السنن والنوافل ويعلم العلم النافع لجمعيَّته.

والحق أن الجمعية حظ القلب، وإجابة داعي الله حق الرّب، فمن آثر حق نفسه على حق ربّه فليس [من العبادة][5] في شيءٍ.

---

(١) في المخطوط [أ] و[ب]: **جمعيَّتهم**. وكذلك في المدارج، ومعنى (**فرقهم وأذهب جمعيتهم**) يتضح من خلال القصة التي أوردها ابن القيم في المدارج في هٰذا الموضع فقال: سأل بعض هٰؤلاء –وهم القسم الثاني من قسم المنحرفين الآتي ذكرهم– شيخا عارفا فقال: إذا أذن المؤذن وأنا في جمعيتي على الله، فإن قمت وخرجت تفرقت، وإن بقيت على حالي بقيت على جميعيتي، فما الأفضل في حقي؟ فقال: إذا أذن المؤذن وأنت تحت العرش فقم وأجب داعي الله ثم عد إلى موضعك.

(٢) يشتت قلبه، فيما يرى.

(٣) أورده ابن القيم في ((المدارج)) وعلق عليه بما ينبغي مراجعته.[ع] بل كل هٰذا الكلام –الذي قبله والذي بعده– من المدارج.

(٤) في النسخة [ر]: **يقول**. وهو خطأ بيّن.

(٥) سقطت من المخطوط [ب].

[الشرح]

هٰذا الصنف الذي ذكر المصنف وهم أصحاب المجاهدة من نوع آخر؛ وهم الذين يدعون الزهد في الحياة الدنيا ويتقللون منها ويتخذون ذلك منهجا لهم إلى درجة تخرج عن حد ما أمر الله به سبحانه وتعالى، ويقولون المهم أن نشتغل بالقربات، ولو كان على حساب ترك الكسب الحلال وأن يكونوا عالة على الناس، وبعضهم يدعوه ذلك إلى ترك عمله أو ترك تجارته أو ترك وظيفته على دعوى أنه متى ترك ذلك فهو المقصود من التوكل، وهٰذا فهم خاطئ للتوكل؛ فالله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- يقول: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ**﴾[القصص:٧٧] والمهم أن لا تتخذها غاية؛ بل نتخذها وسيلة لتستعين بها على طاعة الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ-، ولذلك عندما تأتي بعض الجماعات المنحرفة وتدعو الناس إلى الخروج إلى بلاد كذا وكذا والسياحة في الأرض وترك الأعمال وترك الأولاد وترك الزوجات وترك كل شيء والتنصل من كل المسؤوليات والذهاب، ويبقى يهيم على وجه الأرض في مشارق الأرض ومغاربها، صحيح أنه يجد من الرياضات الروحية ما ينسيه كل شيء؛ لكن هل هٰذا هدي رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؟

إذا كان النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يقول: «**حبب إلي من دنياكم الطيب والنساء**»، [1] وإذا كان النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يصوم ويقوم ويتزوج، ويأكل الطعام ويخالط الناس ويذهب معهم ويجيء و...إلخ.

و لم يثبت عنه أنه دعا إلى هٰذه السياحة التي زعموها من الدين وزعموا أنها هي الجهاد في سبيل الله، ويقولون: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر. وهم رجعوا من التوحيد إلى التصوف، ورجعوا من منهج الله الحق إلى منهج إبليس الذي دعاهم إليه.

فهٰذا من تلبيس إبليس، وقد ذكر ابن الجوزي - رحمه الله - في تلبيس إبليس نمطا من هؤلاء، وكأنه يعايش هٰذه الجماعة وما تفعله مع الناس وما تدعوهم إليه. يأتي شخص يقول: والله فلان ثم يبنون على ذلك قصصا أشبه ما تكون بالخيال أو كذب، لعلهم ينسجونها يقول واحد منهم: والله

([1]) **مسند أحمد**: عن أنس بن مالك حديث رقم (١٢٢٣٣، ١٢٢٣٤).

سنن النسائي: كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، حديث رقم (٣٩٣٩).

قال الشيخ الألباني: حسن صحيح.

فلان خرج وزوجته كانت في حالة ولادة، قالت: يا فلان لا تتركني، قال: لا، أنا أذهب مع الأحباب وأتركك لله. فذهب -يدعي وهٰذا كلام سمعناه بآذاننا والله منهم- فذهب وتركها وما شعرت إلا بطارق يطرق الباب، وقدم لها دراهم وأخذها إلى المستشفى، وهي لا تعرفه إلى اليوم، ما شاء الله، طيب إن كان أجنبي أين أنت..

وقصص.. آخر يقول: وهٰذا حدث عندنا في المدينة في ضواحي المدينة، أحد طواغيتهم القدامى كان خرج بهم إلى قرية اسمها الحنفية -تسمعون بها أو تعرفونها- فخرج بهم إلى تلك القرية فيقول أتباعه وأحبابه وأسياده وعبيده يقولون: إنه عندما وصل وانقطع عندهم البترين من السيارة عندما وصلوا إلى بعد الحنفية متجهين إلى الشرق إلى جهة القصيم، فانقطع عنهم البترين يقول: فدعوا الشيخ الطاغوت الذي ذهب إلى غير رجعة، فدعوه وأخذ تمتمة بتُفال من لعابه، ثم قرأ عليها، وأتوا بصفائح الماء وصبوها في السيارة، وسارت السيارات بالماء بدل البترين ثمانية أيام؛ يعني ما شاء الله نحن نغلق آبار البترول ونأتي بهؤلاء نسأل الله العافية والسلامة.

والله يا إخوان شر البلية ما يضحك، والله يتكلم الواحد وهو قلبه يتفطر؛ لأن القضية خطيرة جدا، هٰذا واحد لما جادلناه في هٰذا، قال: وما المانع أن تكون صحيحة، والله وبالله و تالله أيمان مغلظة إنها كذب هؤلاء الذي وصفهم الشيخ هنا رحمه الله؛ يعني يجعلون الدنيا على حد زعمهم، فيتنصّلون من الدنيا بالكلية.

نحن لا نقول: إن الإنسان يتعلق بالدنيا. أبدا، التعلق بالدنيا وإيثارها على الآخرة - والعياذ بالله - من الزيغ، ومن الضلال؛ لكن أن أذهب وأترك أولادي وأترك زوجاتي وأترك وظيفتي وأترك أعمالي، وآخر في الجهة الفلانية يستقيل وكان مهندسا تخرّج من كلية كذا وكذا كان يأخذ أربعة عشر ألف ريال ويذهب ويستقيل وأولاده سبعة يتكففون الناس. فلا.

قضايا كثيرة، نحن نعرف هٰذه القضايا وما تنطوي عليه..

المهم أن الشيخ هنا يصفهم وصفا تاما، وكأنه يعاصرهم، ثم إن منهم فريقا يرون أن ترك النوافل، وفريقا آخر يضحك عليهم إبليس بطريقة أخرى ويقول: المهم أن يشتغل قلبك بذكر بالله، فقط يشتغل القلب ولو تركت الفرائض والنوافل، وآخرون يتركون النوافل، وآخرون يرون أن الاشتغال بالتفكر على حد كلامهم والتفكير يكفيه عن الذكر والأوراد الثابتة عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكل هٰذه الطوائف لاشك أنها منحرفة عن سواء السبيل.

[المتن]

الصنف الثالث: رأوا أنّ أفضل العبادات ما كان فيه نفع متعدٍّ، فرأوه أفضل من النفع القاصر، فرأوا خدمة الفقراء والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم ومساعدتهم بالجاه والمال والنفع أفضل لقوله- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «الخلق عيال الله، وأحبّهم إلى الله أنفعهم لعياله».[١] قالوا: وعمل العابد قاصر على نفسه، وعمل النَّفَّاع متعدٍّ إلى الغير، فأين أحدهما من الآخر؟ ولهذا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب.[٢] وقد قال - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لعلي -[رَضِيَ اللهُ عَنْهُ][٣]-: «لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير [لك][٤] من حُمْر النعم»،[٥] وقال - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «من دعا إلى هدىً كان له من الأجر مثل [أجور][٦] من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً»،[٧] وقال [صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ][٨]: «إن الله وملائكته يصلون على معلمي [الناس][٩] الخير»[١٠]، وقال: «إن العالم يستغفر له من في

---

(١) رواه البزار (١٩٤٩)، والقضاعي (١٣٠٦) عن أنس. وفيه يوسف بن عطية: متروك، وأخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٣٣) وأبو نعيم في «الحلية» (٢/١٠٢ و٤/٢٣٧)، والخطيب في «تاريخه» (٦/٣٣٦) عن ابن مسعود، وفيه موسى بن عمير: متروك، وانظر «فتاوى النووي» (١٢٢)، و«فيض القدير»، (٣/٥٠٣)، و«كشف الخفاء» (١/٣٨٠). [ع]

(٢) **سنن أبي داوود**: كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، حديث رقم (٣٦٤١).

سنن الترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، حديث رقم (٢٦٨٢).

سنن ابن ماجه، المقدمة، باب في فضل تعلم القرآن ووتعليمه، حديث رقم (٢٢٣).

قال الشيخ الألباني: **صحيح**.

قال الشيخ علي حسن: **حديث حسن**.

(٣) زيادة من المخطوط [أ] والنسخة [ر].

(٤) غير موجودة في [سج].

(٥) **البخاري**: كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس إلىٰ الإسلام والنبوة..، حديث رقم (٢٩٤٢).

مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، حديث رقم (٢٤٠٦).

(٦) في المخطوط [أ] و[ب]: **أجر**. والصواب: **أجور**.

(٧) **مسلم**: كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلىٰ هدى أو ضلالة، حديث رقم (٢٦٧٤).

(٨) غير موجودة في في النسخة [سج].

(٩) غير موجودة في المخطوط [أ] و[ب].

(١٠) **سنن الترمذي**: كتاب العلم، باب ما جاء في فضل النفقة على العبادة، حديث رقم (٢٦٨٥).

قال الشيخ الألباني: صحيح. وقال الشيخ علي حسن: سنده محتمل التحسين.

السمٰوات ومن في الأرض حتى الحيتان في البحر والنملة في جحرها»[١]، قالوا: وصاحب العبادة إذا مات انقطع عمله، وصاحب النفع لا ينقطع عمله ما دام نفعه الذي تسبّب فيه.

والأنبياء – عَلَيْهِمُ [الصَّلَاةُ وَ][٢]السَّلَامُ – إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم ونفعهم في معاشهم ومعادهم، [و][٣]لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع، ولهٰذا أنكر النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على أولئك النفر الذين هَمّوا بالانقطاع والتعبّد وترك مخالطة الناس،[٤] ورأى هؤلاء أن [التفرغ][٥] لنفع الخلق أفضل من الجمعية على الله بدون ذلك، قالوا: ومن ذلك العلم والتعليم ونحو هٰذه الأمور الفاضلة.

[الشرح]

هٰذا الصنف من الناس الذين وصفهم الشيخ بأنهم يتهاونون في أداء حقوق الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– من أداء الواجبات وترك المحرمات والبعد عن ما حرم الله، ويدّعون أن –على حد قاعدة خير الناس أنفعهم للناس– واعتمدوا إما على أحاديث ضعيفة وموضوعة أو على أحاديث صحيحة يفهمونها على غير معناها، كما مثل بها المصنف رحمه الله تعالى مثل اعتمادهم على حديث «**من دعا إلى هدى فله أجر من تبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيئا**»، ومثل حديث «**إذا مات ابن آدم انقطع عنه عمله إلا من ثلاث**»[٦] ونحو ذلك من الأحاديث التي هي صحيحة لكن فهمهم لها غير صحيح، وهي كالطائفة السابقة من حيث أنها فهمت العبادة على غير وجهها، وخير طريق هو الجمع بين الأمرين:

أداء حقوق الله، وأداء حقوق العباد وأداء حقوق النفس.

---

(١) تقدم تخريجه في الصفحة (١٢٥). عن أبي الدرداء.

(٢) غير موجودة في المخطوط [أ].

(٣) غير موجودة في المخطوط [أ] و[ب] والنسخة [سج]. وأيضا غير موجودة في المدارج.

(٤) **البخاري**: كتاب كتاب النكاح، باب الترغيب في الكاح، حديث رقم (٥٠٦٣).

مسلم: كتاب النكاح، باب استحباب النماح لمن تاقت نفسه إليه.. ، حديث رقم (١٤٠١).

(٥) في المخطوط [أ] و[ب]: **التفرق**. وفي المدارج: ورأى هٰؤلاء التفرق في أمر الله ونفع عباده والإحسان إليهم أفضل من الجمعية عليه بدون ذلك.

(٦) **مسلم**: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، حديث رقم (١٦٣١).

وأما هٰذه الطريقة فإنها أيضا من تلبيس إبليس على الناس، يقول: المهم تخدم الناس فيضاعف لك الأجر ولو قصّرت في عبادة الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ-، وهو خلط للأوراق كما يقال أو كما تقول العبارات الحديثة؛ يعني اختلط عليهم الأمر، وفاتهم أنه لابد من مراعاة هٰذه الحقوق كلها: حقوق الله عز وجل، وحقوق العباد، وحقوق النفس أما تضييع حق على حساب أو القيام بحق على تضييع حق آخر، فهٰذا لاشك من تلبيس إبليس أيضا.

[المتن]

الصنف الرابع: قالوا: أفضل العبادة العمل على مرضاة الربّ - سُبْحَانَهُ [وَتَعَالىٰ][1]- وإشغال[2] كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته:

[فأفضل][3] العبادات في وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل [الأمر][4] إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النهار؛ بل من ترك إتمام صلاة الفرض كما في حالة الأمن.

والأفضل في وقت حضور الضيف القيام بحقه والاشتغال به.

والأفضل في [وقت][5] السَّحر الاشتغال بالصلاة والقرآن والذكر والدعاء.

والأفضل [في][6] وقت الأذان ترك ما هو فيه من الأوراد والاشتغال بإجابة المؤذن.

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس الجد والاجتهاد في إيقاعها على أكمل الوجوه والمبادرة إليها [في][7] أول الوقت والخروج إلى المسجد وإن بعد.

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج المبادرة إلى مساعدته بالجاه والمال والبدن.

والأفضل في السفر مساعدة المحتاج وإعانة الرِّفقة وإيثار ذلك على [الأوراد][8] والخلوة.

---

(١) غير موجودة في المخطوط [أ] و[ب].

(٢) في ((الأصل)) : واشتغال، ولعل الصواب ما أثبته.[ع]، وفي المخطوط [أ]: **وإشغال**. وأيضا في النسخة [ر]: **واشتغال**. وفي النسخة [سج]: **وشغل**.

(٣) في المخطوط [أ]: **فالأفضل**.

(٤) زيادة من النسخة [سج].

(٥) في المخطوط [أ] و[ب]: **أوقات**. وكذلك في المدارج.

(٦) زيادة من المخطوط [ب].

(٧) ساقطة من المخطوط [ب].

(٨) في النسخة [سج]: الأولاد. وهو خطأ ظاهر.

والأفضل في وقت قراءة القرآن جمعية القلب والهمّة على [تدبره][١] والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك.

والأفضل في وقت [الوقوف بعرفة][٢] الاجتهاد في التضرّع والدعاء والذكر.

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة الإكثار من التعبد لا سيّما التكبير والتهليل والتحميد وهو أفضل من الجهاد [الغير][٣] المتعين.

والأفضل في [العشرة الأواخر][٤] من رمضان لزوم المساجد والخلوة فيها مع الاعتكاف والإعراض عن مخالطة الناس والاشتغال بهم، حتى أنه أفضل من الإقبال على [تعليمهم][٥] العلم وإقرائهم القرآن [عند كثير من العلماء][٦].

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم [أو موته][٧] عيادته وحضور جنازته وتشييعه وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك.

والأفضل في وقت نزول النوازل [وإيذاء][٨] الناس لك أداء واجب الصبر مع خلطتك لهم، والمؤمن الذي يخالط الناس [ويصبر على أذاهم [أو إيذائهم][٩] أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس] [١٠] ولا يصبر على أذاهم. وخلطتهم في الخير أفضل من عزلتهم فيه، وعزلتهم في الشر [أفضل][١١] من خلطتهم فيه.

فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله وقلّله، فخلطتهم خير من اعتزالهم.

---

(١) في المخطوط [ب]: **تدبيره**.

(٢) في المخطوط [ب]: **عرفة**.

(٣) في المخطوط [أ] و[ب] والنسخة [ر] و[سج]: **غير**. وكذلك في المدارج.

(٤) في المخطوط [أ] و[ب]: **العشر الآخر**. وفي المدارج: **العشر الأخير**.

(٥) في المخطوط [أ]: **تعليم**.

(٦) غير موجودة في المخطوط [أ]. وهي موجودة في المدارج.

(٧) ساقطة من المخطوط [ب].

(٨) في المخطوط [أ] و[ب]: **وأذى**. في المدارج: أذاة.

(٩) غير موجودة في المخطوط [أ]. وكذلك غير موجودة في المدارج.

(١٠) ساقطة من المخطوط [ب].

(١١) في المخطوط [أ]: **خير**.

وهؤلاء هم أهل التعبّد المطلق، والأصناف التي قبلهم أهل التعبد المقيّد، فمتى خرج أحدهم عن الفرع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص ونزل عن عبادته، فهو يعبد الله [تعالى][1] على وجه واحد، وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره؛ بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى، إن رأيت العلماء رأيته معهم وكذلك في الذاكرين، والمتصدقين وأرباب الجمعية وعكوف القلب على الله، فهٰذا هو [الغذاء الجامع للسائر][2] إلى الله في كل طريق والوافد عليه مع كل فريق.

[وأستحضرُ ههنا][3] حديث أبي بكر الصديق – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – وقول النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بحضوره «هل منكم أحدٌ أطعم اليوم مسكيناً؟» قال أبو بكر: أنا. قال: «هل منكم أحدٌ أصبح اليوم صائماً؟» قال أبو بكر: أنا. قال: «هل منكم أحد عاد اليوم مريضاً؟» قال أبو بكر: أنا. قال: «هل منكم أحد [اتبع][4] اليوم جنازة؟»، قال أبو بكر: أنا. الحديث.[5]

هٰذا الحديث رُوِي من طريق عبد الغني بن أبي عقيل، [حدثنا][6] يَغْنُم[7] بن سالم عن أنس بن مالك – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قال: كان رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – جالساً في جماعة من أصحابه، فقال: من صام اليوم؟ قال أبو بكر: أنا. قال: «من تصدق اليوم؟» قال أبو بكر: أنا. قال: «من عاد اليوم مريضاً؟» قال أبو بكر: أنا. قال: «[من][8] شهد اليوم جنازة؟» قال أبو بكر: أنا. قال: «وجبت لك» [وجبت لك][9] يعني الجنة.[10]

---

(١) غير موجودة في المخطوط [ب].

(٢) في المخطوط [أ]: الفذ الجامع السائر.

(٣) في المخطوط [أ]: واستحضر هنا.

(٤) في المخطوط [أ] و[ب]: **تبع**. وهي لفظة مسلم.

(٥) **مسلم**: كتاب الزكاة، باب من جمع الصدقة وأعمال البر، حديث رقم (١٠٢٨).

(٦) في المخطوط [أ]: **ثنا**.

(٧) تصحيف في «الأصل» هنا وما بعده إلى: نعيم، والصواب ما أثبت، وانظر «الإكمال» (٣٥٨/٧) لابن ماكولا.[ع] وكذلك في المخطوط [أ] و[ب]: **نعيم**.

(٨) في المخطوط [أ]: **فمن**.

(٩) زيادة من المخطوط [أ].

(١٠) رواه بهٰذا الإسناد ابن بعد البر في «التمهيد» (١٩٣/٧). [ع]

و[يغنم][١] بن سالم وإن تكلم فيه[٢] لكن تابعه سلمة بن وردان.[٣]

وله أصل صحيح من حديث مالك عن محمد بن شهاب، عن حميد بن عبد الرحمٰن بن عوف عن أبي هريرة – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – أن رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال: «من أنفق زوجين في سبيل الله نودي في الجنة: يا عبد الله هٰذا خير، فمن كان من أهل الصلاة نودي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد نودي من باب الجهاد، [ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة][٤]، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الرّيّان»، فقال أبو بكر – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –: يا رسول الله ما على من يدعى [من][٥] هٰذه الأبواب [كلها][٦] من ضرورة، فهل يدعى أحد من هٰذه الأبواب كلها؟ قال: «نعم وأرجو أن تكون منهم»[٧] هكذا رواه عن مالك موصولاً مسنداً عنه[٨] يحيى بن يحيى ومعن بن عيسى وعبد الله بن المبارك.[٩]

---

(١) في المخطوط [أ] والنسخة [ر]: **ونعيم**.

(٢) قال ابن حبان في المجروحين (١٤٥/٣): شيخ يضع الحديث على أنس بن مالك، روى عنه بنسخة موضوعة لا يحل الاحتجاج به ولا الرواية عنه إلا على سبيل الاعتبار. وفي الميزان (٤٥٩/٤): قال ابن يونس: حدث عن أنس فكذب.

قلت: وقد أورد بن عدي في «الكامل» (٢٧٣٨/٧): حديثا من طريقه بالاسناد الذي أورده المصنف هنا، ثم قال: .. وبهذا الاسناد عشرون حديثا.. [ع]

(٣) لم أر هٰذه المتابعة، وسلمة هٰذا ضعيف، عامة أحاديثه عن أنس منكرة كما قال ابن أبي حاتم كما في «التهذيب» (١٦٠/٤)، وقد قال ابن عدي في «الكامل» (٢٧٣٩/٧)، وأحاديث يغنم عامتها غير محفوظة، وما كان منها مشهور المتن يستغنى من روايات أخر عن رواية يغنم عن أنس، فإن الروايات الأخر أصح من روايته.

قلت: وتقدم تخريج الحديث من رواية أخرى عن أبي هريرة والفرق بينهما بين، إذ في الأولى الحديث عام، وفي الثانية جعله يغنم خاصا بأبي بكر.[ع]

(٤) غير موجودة في النسخة [سج]. وفي المخطوط [ب]: (الصدق) مكان (الصدقة).

(٥) في المخطوط [ب]: **في**.

(٦) غير موجودة في المخطوط [أ] و[ب].

(٧) **موطأ مالك**: كتاب الجهاد، باب نا جاء في الخيل والمسابقة بينها والنفقة في الغزو، حديث رقم (١٠٢١).

البخاري: كتاب الصوم، باب اليان للصائمين، حديث رقم (١٨٩٧).

مسلم: كتاب الزكاة، باب من جمع الصدقة وأعمال البر، حديث رقم (١٠٢٧).

(٨) في «الأصل»: **عن**. ولعل الصواب ما أثبتّه. [ع] وكذلك في المخطوط [أ] والنسخة [ر] والنسخة [سج]: **عن**. وغير موجودة في المخطوط [ب].

(٩) قال ابن عبد البر في التمهيد (١٨٣/٧): وقد أسنده جله عن مالك منهم معن وابن المبارك. [ع]

[الشرح]

هٰذا الصنف الرابع لا يحتاج إلى تعليق؛ لذلك يعني ما سمعنا مما ذكره الشيخ - رحمه الله - فيه الكفاية؛ لأن خلاصة هٰذا الأمر أن ذلك المتعبد لله - تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ- هو الذي يعطي كل ذي حق حقه، ويعبد الله حق عبادته؛ يؤدي الفرائض، ويجتنب المحرمات، ويعين الملهوف، ويحضر حلق العلم، ويجتهد بما يقربه إلى الله، ويصوم التطوعات ويصلح بين الناس، ويجتهد في كل أمر بحسب ما يتفق مع الشرع، يهمه أن يتتبع رضى الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ-، وهٰذا هو الذي ينال محبة الله ويحبه الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ-، كما قال - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في ما يرويه عن ربه- جل وعلا -: «**وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده الذي يبطش به ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه ولإن استعاذني لأعيذنه**».[١]

وخلاصة القول أنه لا يهمه إلا رضى الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ-، يهمه أن يتتبع كل ما يرضي الله سواء ما يتعلق بحقوق الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- أو ما يتعلق بحقوق العباد، أو ما يتعلق بحق نفسه، ولذلك يهمه رضى الله ولو سخط الآخرون، كما ثبت من حديث عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْها- أن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال: «**من أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس ومن أسخط الله برضى الناس سخط الله عليه وسخط عليه الناس**»[٢] ورضى الناس غاية لا تدرك والمهم أنه يتتبع رضى الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- حتى يحبه وتحبه ملائكة السماء وتحبه ملائكة الأرض ويضع الله - تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ- له القبول في الأرض، هٰذا هو الذي يعطي كل الذي حق حقه، ولا يضيّع جانبا على حساب جانب آخر، وإنما يقوم في كل مناسبة على قاعدة لكل مقام مقال، فإذا جاءت مناسبة الجهاد توجه إليه، إذا جاءت مناسبة الصوم قام به، جاءت مناسبة الصلوات فرضا أو نفلا أو سنة مؤكدة أو نحو ذلك توجه إليها، جاءت زيارة مريض أو تشييع جنازة أو إسعاف ملهوف أو إعانة من يحتاج إلى إعانة «**والله في عون العبد من كان العبد في عون أخيه**».[٣]

المهم أنه يعني يجتهد في مرضاة الله عز وجل يتتبعها أنّى وجدها فعلها.

---

(١) **البخاري**: كتاب الرقائق، باب التواضع، حديث رقم (٦٥٠١).

(٢) **سنن الترمذي**: كتاب الشهادات، باب رقم (٦٤)، حديث رقم (٢٤١٤)، قال االشيخ الألباني: صحيح.

(٣) **مسلم**: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل الإجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، حديث رقم (٢٦٩٩).

نسأل الله أن يجعلني و إياكم من أولئك وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.[١]

(١) انتهى الشريط الرابع.

بسم الله الرحمن الرحيم

المجلس الخامس

[المتن]

ورواه يحيى بن بكير وعبد الله بن يوسف عن مالك عن ابن شهاب عن حُمَيد مرسلاً.[١] وليس هو عند القعنبي[٢] لا مرسلاً ولا مسنداً.

ومعنى قوله: «من أنفق زوجين» يعني شيئين من نوع واحد، نحو درهمين أو دينارين أو فرسين أو قميصين، وكذلك من صلى ركعتين أو مشى في سبيل الله – تَعَالىٰ – خطوتين أو صام يومين ونحو ذلك. وإنما أراد –والله أعلم– أقل التكرار، وأقل وجوه المداومة [والمداومة][٣] على العمل من أعمال البر؛ لأن الاثنين أقل الجمع.

فهٰذا كالغيث،[٤] أين وقع نفع، صحب الله بلا خلق، وصحب الخلق بلا نفس، إذا كان مع الله عزل الخلائق [من][٥] البين،[٦] وتخلى عنهم، وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها، فما أغربه بين الناس! وما أشد وحشته منهم، وما أعظم أنسه بالله وفرحه به، وطمأنينته وسكونه إليه.

[الشرح]

هٰذه تكملة لما سبق بيانه من أن المسلم الذي يعبد الله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ– بجميع أنواع العبادة، ويؤدي جميع الحقوق و يأخذ الإسلام كاملا، فيؤدي كل ذي حق ويعطيه حقه، هو الذي يجد به الأنس والسعادة والراحة والطمأنينة النفسية، بحيث يكون مع الله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ– حيث ما دعاه،

---

(١) قال ابن عبد البر: تابع يحيى علىٰ توصيل هٰذا جماعة الرواة [أي: رواة الموطأ] إلا ابن بكير، فإنه أرسله عن حميد عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذلك رواه عبد الله بن يوسف عن مالك عن ابن شهاب عن حميد مرسلا. [ع]

(٢) يعني في رواية الموطأ له، وهي أكبر الروايات كما في تنوير الحوالك (١/٧)، وقد طبعت قطعة منها أخيرا كما قال الشيخ الشاذلي النيفر في مقدمته لـ «موطأ ابن زياد» (٦٧). [ع]

(٣) زيادة يقتضيها السياق. [ع]، الظاهر أنه لا يقتضيها. والله أعلم.

(٤) جاء في حاشية المخطوط [أ]: **أي الصنف الرابع العامل في كل وقت بالأفضل في ذلك الوقت.**

(٥) في المخطوط [أ] و[ب]: **مع**. أما في المدارج فهي: **عن**.

(٦) لعله يريد بينه وبين الله سبحانه. [ع]، فإذا أبدلنا [من] بـ: [مع] فالظاهر أنه ينفي قول أهل الوحدة والحلول. والله أعلم.

يستجيب له ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[الأنفال:٢٤]، فيجيب داعي الله أين ما كان وحيث ما وجد، وهو مقتضى قول رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: ((اِتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ))؛ حديث أبي ذر ((اِتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ)).[١]

[المتن]

واعلم أن للناس في منفعة العبادة وحكمتها ومقصودها [طرقا][٢] أربعة وهم في [تلك][٣] أربعة أصناف:

الصنف الأول: نفاة الحِكَم والتعليل الذين يردّون الأمر إلى [نفس][٤] المشيئة وصِرف الإرادة، فهؤلاء عندهم القيام بها ليس إلا لمجرد الأمر من غير أن [يكون][٥] سببا [لسعادة][٦] في معاش ولا معاد ولا سببا لنجاة، وإنما القيام بها لمجرد الأمر ومحض المشيئة، كما قالوا في الخلق: لم يخلق لغاية ولا لعلة هي المقصودة به، ولا لحكمة تعود إليه منه، وليس في [المخلوق][٧] أسباب تكون مقتضيات [لمسبباتها][٨] وليس في النار سبب للإحراق،[٩] ولا في الماء قوة الإغراق ولا التبريد، وهكذا الأمر عندهم سواء، لا فرق بين الخلق والأمر، لا فرق في نفس الأمر بين المأمور والمحظور،

---

(١) **سنن الترمذي**: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معاشرة الناس، حديث رقم (١٩٨٧)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، قال الشيخ الألباني: حسن.

(٢) في المخطوط [ب]: **طرائق**.

(٣) في المخطوط [ب] والنسخة [ر] والنسخة [سج]: **ذلك**.

(٤) في المدارج: محض. وقال أيضا في طريق الهجرتين (١٤٠): عند ذكره لهذا الصنف: وكان شيخهم الجهم بن صفوان يقف بأصحابه على المجذومين وهم يتقلبون في بلائهم فيقول: أرحم الراحمين يفعل مثل هذا ! يعني أنه ليس في الحقيقة رحمة، وإنما هو محض مشيئة وصرف إرادة مجردة عن الحكمة والرحمة.

(٥) في المخطوط [أ] و[ب]: **تكون**. وهو الصواب. وهي عبارة المدارج والحمد لله.

(٦) غير موجودة في [سج].

(٧) في المخطوط [أ] و[ب]: **المخلوقات**. وهي عبارة المدارج أيضا.

(٨) في المخطوط [أ]: **مسببات**. وفي المدارج: لمسبباتها. وفي المخطوط [ب]: **لأسبابها**.

(٩) جاء في حاشية المخطوط [أ]: قف على أن القول بأن النار لا تحرق مذهب الجبرية الجهمية.

ولكن المشيئة اقتضت أمره بهٰذا ونهيه عن هٰذا من غير أن يقوم بالمأمور [بـــه][(١)] صـــفة تقتضـــي حسنه، ولا بالمنهي عنه صفة تقتضي قبحه.

ولهٰذا الأصل لوازم فاسدة وفروع كثيرة،[(٢)] وهؤلاء غالبهم لا يجدون حلاوة العبادة ولا لذّتها، لذّتها، ولا يتنعمون بها، ولهٰذا يسمّون الصلاة والصيام والزكاة والحج والتوحيد والإخلاص.. ونحو ذلك تكاليف، أي كُلِّفوا بها، ولو سمى مدعي محبة ملك من الملوك أو غيره ما يأمره به [تكليفاً][(٣)] [تكليفاً][(٣)] لم يعد محبّا له.

وأول من صدرت عنه هٰذه المقالة الجعد بن درهم.

[الشرح]

هٰذه المقالة شارك فيها الجهمية والصوفية، وهي أنّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ لم يشرع العبادة لأية حكمة؛ بل و لم يخلق الناس لعبادته، وغاية ما هنالك أنه أمرهم بتلك العبادة، لا إلى غاية مطلقا، على حد قول الصوفية: (اللهم إنا لا نعبدك طمعا في ثوابك ولا خوفا من عقابك).

ومن هنا ضعف عندهم أمر العبادة؛ لأنهم لا يدركون مغزاها ولا يهتمون بمقتضاها، والجهم بـــن صفوان هو تلميذ الجعد بن درهم الذي كان أول من تكلم في إنكار أسماء الله وصفاته.

ومن هنا جعلوا العبادة متعلقة بالمشيئة والأمر فقط دون أن تكون لها فائدة أو حكمة أو علـــة أو غاية، فهٰذا الأمر أدّى بهم أو أدى ببعضهم إلى أن يصلوا في وقت من الأوقات إلى سقوط التكاليف، وأن تلك التكاليف لم تعد واجبة؛ لأنها غير معللة؛ ولأنه لا حكمة لها، ووصل بـــآخرين إلى أدائهـــا ولكنهم لا يشعرون أنها عبادة تثمر سعادة لهم في الدنيا ولا في الآخرة، وإنما غاية ما هنالـــك أنهـــم مكلّفون مجبورون على أداء تلك العبادة بدون فائدة تعود عليهم أبدا، وهٰذا لاشك غاية في البطلان؛ بل هي عقيدة فاسدة، وعلى النقيض منها- كما سيأتي -. فالذين يعلّقون كل شيء بالحكمة؛ لكـــن هؤلاء يقولون: لا حكمة أصلا ولا علة من خلق البشر، وإنما كلفوا بهٰـــذا تكليفـــا والله - تَبَـــارَكَ وَتَعَالىٰ- يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾[الـذاريات: ٥٦]، ﴿وَمَا أُمِـــرُوا إِلاَّ

---

(١) غير موجودة في المخطوط [ب] والنسخة [ر].

(٢) قال هنا العلامة ابن القيم: وقد ذكرناها في كتابنا الكبير المسمى (مفتاح دار السعادة ومطلب أهل العلم والإرادة) وبينا فساد هٰذا الأصل من نحو ستين وجها، وهو كتاب بديع في معناه، وذكرناه أيضا في كتابنا المسمى (سفر الهجرتين وطريق السعادتين).

(٣) في المخطوط [أ] و[ب]: **تكلفا**. وفي المدارج: **تكليفا**. وزاد: **وقال: إني إنما أفعله بكلفة.**

﴿لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[البينة:٥]، ويقول - تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- مبيّنا أن فوائد تلك العبادة تعود إلى المرء نفسه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[النحل:٩٧]، وقال- تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)﴾[فصلت: ٤٦]، والآيات كثيرة في بطلان هٰذه الدعوة.

وينسبون إلى رابعة العدوية أنها كانت تقول: اللهم إني لا أعبدك طمعا في ثوابك ولا خوفا من عقابك. وهٰذا قد انتقل إلى كثير من الطوائف الصوفية بعد ذلك، وسواء صح أم لم يصح فرابعة العدوية ليست مشرعة في الدين؛ بل المشرع هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو الذي أمر بالعبادة وهو الذي بين حكمة العبادة ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾[المزمل: ٢٠].

[المتن]

الصنف الثاني: القدرية النفاة الذين يثبتون نوعاً من الحكمة والتعليل لا يقوم بالرب ولا يرجع إليه؛ بل يرجع [لمحض مصلحة][1] المخلوق ومنفعته، فعندهم أن العبادات شُرعت أثمانا لما ينالـه العباد من الثواب والنعيم، وأنها بمنزلة استيفاء الأجير أجره، قالوا: ولهٰذا يجعلها - سُبْحَانَهُ [وَتَعَالَىٰ][2]- عِوضاً كقوله: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الأعراف:٤٣]، ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[النحل:٣٢]، [﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[النمل:٩٠]،][3] ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر:١٠]، وفي الصحيح «إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم[4] ثم أوفيكم إياها»[5].

قالوا:[6] وقد سماها جزاءً وأجراً وثواباً؛ لأنه شيء يثوب إلى العامل من عمله، أي يرجع إليه.

قالوا: ويدل عليه الموازنة، فلولا تعلق الثواب بالأعمال عوضاً عليها لم يكن للموازنة معنى.

---

(١) في المخطوط [ب]: **لمصلحة**.

(٢) غير موجودة في المخطوط [أ] و[ب].

(٣) في المخطوط [أ] والنسخة [ر] آية النمل قبل آية النحل.

(٤) في النسخة [ر]: **لكم**.

(٥) هي قطعة من حديث في **صحيح مسلم**: كتاب البر والصلة والآداب، حديث رقم (٢٥٧٧).

(٦) جاء في حاشية المخطوط [أ]: **قف على أن تجويز تعذيب الطائع وإثابة العاصي مذهب الجبرية الجهمية**.

وهاتان الطائفتان متقابلتان.. فالجبرية لم تجعل للأعمال ارتباطا بالجزاء ألبتة، وجوّزت أن يُعذِّب الله من أفنى عمره في الطاعة وينعّم [على][١] من أفنى عمره في مخالفته، وكلاهما سواء بالنسبة إليه، والكل راجع إلى محض المشيئة.

والقدرية أوجبت عليه – سُبْحَانَهُ [وَتَعَالَىٰ][٢]– رعاية المصالح وجعلت ذلك كله بمحض الأعمال، وأن وصول الثواب إلى العبد بدون عمله فيه [تنقيص][٣] باحتمال منة الصدقة [عليه][٤] بلا ثمن فجعلوا تفضله – سُبْحَانَهُ [وَتَعَالَىٰ][٥]– على عبده بمنزلة صدقة العبد على العبد، [وإعطاؤه][٦] ما يعطيه أجرة[٧] على عمله أحب إلى العبد من أن يعطيه فضلاً منه بلا عمل، ولم يجعلوا للأعمال تأثيراً في الجزاء ألبتة.

والطائفتان منحرفتان عن [الصراط][٨] المستقيم وهو أن الأعمال أسباب [موصلة][٩] إلى الثواب، والأعمال الصالحات من توفيق الله [تعالى][١٠] وفضله وليست قدْراً لجزائه وثوابه؛ [بل][١١] غايتها إذا وقعت على أكمل الوجوه أن تكون شكراً على أحد الأجزاء القليلة من نعمه – سُبْحَانَهُ [وَتَعَالَىٰ][١٢]–، فلو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم [لهم][١٣]، رحمهم لكانت[١٤] رحمته [لهم][١] خيراً من أعمالهم.[٢]

---

(١) زيادة من المخطوط [ب].

(٢) غير موجودة في المخطوط [أ] و[ب].

(٣) في المخطوط [أ]: **تنغيص**. وهي أيضا عبارة المدارج.

(٤) زيادة من النسخة [ر].

(٥) غير موجودة في المخطوط [أ] و[ب].

(٦) في المخطوط [أ]: **وإن إعطاءه**. وهي عبارة المدارج. وفي النسخة [ر] و[سج]: **وإعطائه**. وفي المخطوط [ب]: **وإن أعطاه**.

(٧) في النسخة [ر]: أجره.

(٨) في المخطوط [أ]: **الطريق**. وفي المدارج: **الصراط**.

(٩) غير موجودة في النسخة [ر].

(١٠) زيادة من المخطوط [ب].

(١١) غير موجودة في المخطوط [ب].

(١٢) غير موجودة في المخطوط [أ].

(١٣) غير موجودة في النسخة [سج].

(١٤) في النسخة [ر]: **لكان**.

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الزخرف:٧٢]، مع قوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله»[٣] [تجد][٤] الآية تدل على أن الجنان بالأعمال، والحديث ينفي دخول الجنة بالأعمال، ولا تنافِيَ بينهما، لأن توارد النفي والإثبات ليس على محل واحد فالمنفيُّ باء الثمنية[٥] واستحقاق الجنة بمجرد الأعمال رداً على القدرية المجوسية التي زعمت أن الفضل بالثواب ابتداءً متضمِّن لتكدير [المنة][٦].

والباء المثبتة التي وردت في القرآن هي باء السببية[٧] رداً على القدرية الجبرية الذين يقولون: لا ارتباط بين الأعمال وجزائها، ولا هي أسباب لها، وإنما غايتها أن تكون أمارة.

والسنة النبوية هي أن عموم مشيئة الله وقدرته لا تنافي ربط الأسباب بالمسبّبات وارتباطها بها.

وكل طائفة من أهل الباطل تركت نوعاً من الحق، فإنها ارتكبت لأجله نوعاً من الباطل؛ بل أنواعاً، فهدى الله أهل السّنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه.

[الشرح]

الطائفة الأولى -كما أسلفنا- هي الجبرية الجهمية والتي تقول: إن العبد مجبور على فعله؛ لأن الفعل إنما فعله بمحض المشيئة والأمر، شاء أم أبى، ولذلك رتبوا عليه أن الإنسان عندما يعمل هٰذه الأشياء إنما هو مجبور، ومن ثمة لا فرق بين إثابة المطيع وبين تعذيب العاصي؛ فيجوز عندهم أن يعذب المطيع وأن يثاب العاصي -تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا-.

=

(١) زيادة من المخطوط [ب].

(٢) **سنن أبي داوود**: كتاب السنة، باب في القدر، حديث رقم (٤٦٩٩).

سنن ابن ماجه: المقدمة، باب في القدر، حديث رقم (٧٧)

قال الشيخ الألباني: صحيح.

(٣) **البخاري**: كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، حديث رقم (٦٤٦٧).

مسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل الجنة بعمله بل برحمة الله تَعَالىٰ، حديث رقم (٢٨١٦)

(٤) في النسخة [ر]: نجد.

(٥) وتسمى باء المقابلة وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع فتاويه (٨/٧٠) يشرح الكلام نفسه: والذي نفاه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باء المقابلة كما يقال: اشتريت هٰذا بهـٰذا؛ أي ليس العمل عوضا وثمنا كافيا في دخول الجنة. [ع]

(٦) غير موجودة في المخطوط [ب].

(٧) أي بسبب أعمالكم. [ع]

أما الطائفة الثانية فهي الطائفة القدرية النفاة الذين قالوا: إن الله يجب أن يفعل الأصلح للعباد، فأوجبوا على الله - تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ - حقا من عند أنفسهم، وجعلوا: إنما يجازي العباد عوضا عن أعمالهم، وجعلوا الباء في قوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ عوضية وهي في الحقيقة سببية؛ فقالوا: إن الله - تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ- يجب عليه أن يثيب العبد العامل؛ لأنه كُلِّف بهٰذا العمل فيكون الجزاء أجرة له، ويجب على المستأجر أن يعطي الأجير أجره، فقاسوا الله بخلقه. هٰذه هي القدرية النفاة.

من هنا قالوا: إن العبد هو الخالق لفعله، فهو عمل باختياره الكامل وخلق أفعاله، ولذلك يجب أن يثاب عليها، وأما أفعاله التي هي المعاصي فإنه فعلها بمحض اختياره المطلق دون أن يقدر عليه، ولذلك فإنه يعذَّب جزاء على ذلك العمل فقط لا بقدَر الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- ولا ارتباط للقدر بذلك، فنفوا قدر الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- في الحالين؛ يعني لم يقدروا الله حق قدره، قالوا: إن الرب يجب أن يفعل للعبد كذا؛ لأنهم عندهم قاعدة التقبيح والتحسين العقليين؛ يجب على الله كذا ويمتنع عليه كذا ويجوز عليه كذا، وكل ذلك من عند أنفسهم، فأوجبوا على الله - تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ- من عند أنفسهم، أن مجازاته للعبد حق واجب عليه لا حق تفضل وإحسان، وجعلوا الباء -كما قلت- ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الزخرف:٧٢]، وقوله: ﴿جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)﴾[الواقعة: ٢٤] جعلوا ذلك كله بمثابة إبدال العِوض بالمعوَّض وإبدال المبيع بالثمن وإبدال الأجرة بالعمل الذي استُؤجِرعليه؛ فقاسوا الخالق بالمخلوق تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

وكلا الطائفتين كما قلنا ضلت عن سواء السبيل:

الأولى مُفْرِطَة التي هي من؟ الجبرية.

والثانية مُفَرِّطَة.

الأولى أفرطت حيث جعلت العبد مجبور على فعله وأنه يمكن أن يُعَذَّب المطيع ويُنَعم العاصي؛ لأنه لا علاقة لهٰذا الأمر بالثواب والعقاب إنما متعلق بمحض المشيئة.

والقدرية عكست الأمر فقالوا: إن الله يجب عليه أن يفعل الأصلح للعبد، والأصلح أن يخلق أفعاله التي هي أفعال الخير وأن لا يخلق أفعال الشر لذلك رتبوا الجزاء على العمل ترتيب الثمن على المثمن.

تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

والذي عليه أهل السنة والجماعة هو الجمع بين هٰذه النصوص، ففي قوله- تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ-: ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف:٧٢] أي بسبب ما كنتم تعملون، وفي قول النبي- صَلَّى اللهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : «**لن يدخل الجنة أحد بعمله**» المقصود بمحض عمله، وبعوض عمله؛ لأن عمله لا يقابل ذرة واحدة مما أنعم الله به عليه؛ لكن المقصود أن الله – تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ– رتّب الأسباب على مسبباتها، وأن الله خالق الأسباب والمسببات، وأن قوله: ﴿**بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ الباء للسببية، وأن قول النبي– صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : «**لن يدخل أحد الجنة بعمله**» الباء هنا للعوضية؛ أي لن يدخلها مقابل عمله؛ لأن عمله لا يقابل ذرة واحدة من نعم الله – تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ– عليه، وإنما يدخلها بسبب عمله، فالأعمال هي أسباب؛ أسباب رتب الله – تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ– عليها الجزاء وليست أثمانا للجزاء تَعَالَىٰ الله عما يقولون علوا كبيرا.

[المتن]

قال المحقق –الشيخ علي حسن– في الحاشية:

وتسمى باء المقابلة وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (ج٨/ص٧٠) يشرح الكلام نفسه: والذي نفاه النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – باء المقابلة، كما يقال: اشتريت هٰذا بهٰذا أي ليس العمل عوضا وثمنا كافيا في دخول الجنة.

[الشرح]

هٰذا في تفسير قوله– صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : «**لن يدخل أحدكم الجنة بعمله**» فالمنفي هنا هو لن يدخل أحدكم الجنة مقابل وعوضا عن عمله، وأما الباء ﴿**بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ فكما قدمنا أنها باء السببية، نعم دخول الجنة بسبب العمل لا عوض العمل.

باختصار المسلم يدخل الجنة بفضل الله بسبب عمله، لا عوضا عن عمله وثمنا لعمله.

[المتن]

الصنف الثالث: الذين زعموا أن فائدة العبادة رياضة النفوس واستعدادها لفيض العلوم والمعارف عليها، وخروج قواها من قوى النفس السّبُعية والبهيمية، فلو عُطّلت العبادة لالتحقت بنفوس السباع والبهائم، [فالعبادة][١] تُخرجها إلى مشابهة العقول فتصير [قابلة][٢] لانتقاش صور المعارف فيها، وهٰذا يقوله طائفتان:

---

(١) في المخطوط [أ]: **والعبادة**. وفي المدارج: **والعبادات**.

(٢) في المخطوط [أ] و[ب]: **عالمة**. يعني أنها تصبح عالمة، وهٰذا راجع لانتقاش صور المعارف فيها. وقد وجدت عبارة المدارج: **عالمة قابلة**.

إحداهما:[١] من [تقرب][٢] إلى الإسلام والشرائع من الفلاسفة القائلين بقدم العالم وعدم الفاعل المختار.

والطائفة الثانية:[٣] من تفلسف من صوفية الإسلام و[تقرب][٤] إلى الفلاسفة، فإنهم يزعمون أن العبادات رياضات[٥] لاستعداد النفوس للمعارف العقلية ومخالفة العوائد.

ثم من[٦] هؤلاء من لا يوجب العبادة إلا بهٰذا المعنى، فإذا حصل لها ذلك بقي متحيّراً في [حفظ][٧] أوراده والاشتغال بالوارد عنها.

ومنهم من يوجب القيام بالأوراد وعدم الإخلال بها، وهم صنفان [أيضا][٨]:

أحدهما: من يقول بوجوبها حفظاً للقانون وضبطاً للنّاموس.

والآخرون [يوجبونها][٩] حفظاً للوارد وخوفاً من تدرّج النّفس [بمفارقتها][١٠] إلى [حالها][١١] الأولى من البهيمية.

فهٰذه نهاية إقدامهم في حكمة العبادة وما شُرِعت لأجله، ولا تكاد تجد في كتب المتكلمين على [طريق][١٢] السلوك غير طريق من هٰذه الطرق [الثلاثة][١٣] أو مجموعها.

---

(١) جاء في الحاشية: **قف على ذم حكماء الفلاسفة**.

(٢) في المخطوط [أ] و[ب] والنسخة [ر] و[سج]: **يقرب**. وفي المدارج: **يقرب إلى النبوات والشرائع من الفلاسفة**.

(٣) جاء في المخطوط [أ]: **قف على ذم الصوفية المتفلسفة**.

(٤) في المخطوط [أ] والنسخة [ر] و[سج]: **يقرب**.

(٥) في المخطوط [ب] والنسخة [ر]: **رياضيات**.

(٦) (من) غير موجودة في النسخة [ر].

(٧) في النسخة [سج]: **لفظ**.

(٨) غير موجودة في المخطوط [أ]. وهي موجودة في المدارج.

(٩) في المخطوط [أ]: **يوجبونه**. وفي المخطوط [ب]: **يوجبون**.

(١٠) في المخطوط [أ] و[ب]: **بمفارقته**.

(١١) في المخطوط [أ]: **حالتها**. وفي المخطوط [ب]: **حالته**.

(١٢) في المخطوط [ب]: **طروق**.

(١٣) في النسخة [سج]: الثلاث.

[الشرح]

هٰذا الصنف هو صنف الفلاسفة والصوفية، وهم الذين بالغوا في العِلة والحكمة؛ فأخرجوا العبادة عن أن يكون المراد بها مرضاة الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- ، أو طمعا في ثوابه، أو خوفا من عقابه؛ فقال الفلاسفة الأولون: إن المراد بالعبادات هو الرياضات الروحية والنفسية حتى تفارق النفس البشرية النفوس السّبُعية البهيمية. يعني إنما شُرعت العبادة فرقا بين الإنسان والحيوان.

هٰذا باختصار معنى كلامهم، وهم الفلاسفة القدامى هم فلاسفة دخلوا في الإسلام؛ ولكنهم أخذوا ذلك عن شيوخهم القدامى مثل سقراط وأبوقراط وطاليس والإسكندر.. ونحو ذلك من فلاسفة اليونان، ومن يسمون بفلاسفة المسلمين مثل ابن رشد الابن وابن سبعين وابن سينا.. ونحو ذلك والفارابي.

وكذلك شابههم الطائفة الثانية، وهم الصوفية الذين يعتقدون بأن هٰذه العبادات أيضا شُرعت حتى يصل الإنسان إلى درجة معينة من الكمال، فإذا شعُر أنه وصل إلى درجة خاصة من الكمال سقطت عنه التكاليف، ومن زعماء هٰذا ابن عربي وابن الفارض وغيرهم من غلاة الصوفية ومن جاء بعدهم من المتصوفة الذين بلغوا حد سقوط التكاليف، ومنهم من يرى وجوب التكاليف حتى لا تعود النفس إلى سابق أمرها من البهيمية أو حتى يحافظوا على القانون النفسي في هٰذا المجال، وأما أن يترتب على ذلك ثواب أو عقاب، فكلا الطائفتين قد ضلتا في هٰذا الباب سواء السبيل.

وهٰذه الطوائف الثلاثة كلها طوائف ضالة، سواء الجبرية أو القدرية أو الفلاسفة أو الصوفية الذين أشبهوا الفلاسفة في هٰذا المعتقد، وما أكثرهم لا كثرهم الله، لاسيما الصوفية الآن الذين يرون سقوط الأمر والنهي عند بلوغ مرحلة معينة، فلم يعد يجب عليه شيء؛ بل و لم يعد يؤاخذ بما يفعل حتى ولو فعل المنكرات والمعاصي، حتى يقول قائلهم: لو رأيت الشيخ يفعل منكرا من المنكرات كالزنا ونحوه، لا تنكر عليه لأن هٰذا يبدو لك أنت أنه يفعله بينما هو يعمل أمرا لا يعلم حقيقته إلا الله، وهو أمر في صالح الإسلام والمسلمين. تعالى الله عما يقول الظالمون والمجرمون والملحدون علوا كبيرا.

ومن قرأ «طبقات الشعراني» أو «المشرع الروي في تراجم آل علوي» أو غيرها وحتى في رسالة القشيري الشيء الكثير، وحتى في «إحياء علوم الدين» للغزالي فيها كثير من البلاوي التي تشبه هٰذه المقالات.

الذين يدّعون أن مجرد الخروج يُكسب الناس علوما تفيض عليهم ولو لم يتعلموا بينما الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يقول: «**إنما العلم بالتعلم**»[١] وهؤلاء يقولون: إنما العلم بالخروج فمن زعم أن مجرد الخروج على حد زعمهم وترداد عبارات معينة في كل يوم وبيانات خاصة في كل يوم أن ذلك يؤدي إلى أن تفيض عليهم العلوم، فهٰذا باطل. وقد واجهنا منهم من صرح بهٰذا وقال: إنه المهم أن يخرج فتفيض عليه العلوم، وليس العلم في ملازمة العلماء.

والحق أن العلم في ملازمة العلماء والأخذ عنهم كما قال النبي- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**إنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم**».

[المتن]

والصنف الرابع[٢]: هم القائلون بالجمع بين الخلق والأمر والقدر والسبب، فعندهم أن سر العبادة وغايتها مبنيٌّ على معرفة حقيقة [الإلٰهية][٣]، ومعنى كونه - سُبْحَانَهُ [وَتَعَالىٰ][٤]- إلٰهاً وأن العبادة موجب الإلٰهية وأثرها ومقتضاها وارتباطها [بها] [٥] كارتباط متعَلَّق الصفات بالصفات، وكارتباط المعلوم بالعلم والمقدور بالقدرة، والأصوات بالسمع، والإحسان بالرحمة، [والإعطاء][٦] بالجود.

فعندهم من قام بمعرفتها على [نحو][٧] الذي فسرناها به -لغة وشرعا، مصدراً ومورداً- استقام له معرفة حكمة العبادات وغايتها [به][٨]، وعَلَمَ أنها هي الغاية التي خلقت لها العباد، ولها أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وخلقت الجنة والنار.

وقد صرح - سُبْحَانَهُ [وَتَعَالىٰ][١]- بذلك في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[الذريات:٥٦]**، فالعبادة هي التي [ما وُجِدت الخلائق كلها إلا لأجلها][٢]، كما قال**

---

(١) تقدم تخريجه في الصفحة (٣٠).

(٢) جاء في حاشية المخطوط [أ]: **قف على مذهب السلف ومن تبعهم من الخلف.**

(٣) في النسخة [سج]: الألوهية.

(٤) غير وجودة في المخطوط [أ] و[ب].

(٥) زيادة من المخطوط [ب].

(٦) في المخطوط [أ] و[ب]: **والعطاء.**

(٧) في المخطوط [أ] و[ب]: **النحو.**

(٨) غير موجودة في المخطوط [أ] و[ب].

تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً﴾[القيامة:٣٦]، أي مهملاً.[٣] قال الشافعي- رحمه الله [تَعَالىٰ][٤]-: لا يؤمر ولا ينهى. وقال غيره: لا يثاب ولا يعاقب. وهما تفسيران صحيحان، فإن الثواب والعقاب مترتب على الأمر والنهي، [والأمر والنهي][٥] هو طلب العبادة وإرادتها.

وحقيقة العبادة [امتثالها][٦]. ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[آل عمران:١٩١]، وقال [تعالى][٧]: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾[الحجر:٨٥]، ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[الجاثية:٢٢]، فأخبر الله - تَعَالىٰ - أنه خلق السمٰوات والأرض بالحق المتضمن أمره ونهيه وثوابه وعقابه.

فإذا كانت[٨] السمٰوات والأرض إنما [خلقت][٩] لهٰذا، -وهو غاية الخلق- فكيف يقال: إنه لا غاية له ولا حكمة مقصودة، أو: إن ذلك [بمجرد][١٠] استئجار العمال حتى لا يتكدّر عليهم الثواب بالمِنَّة؟ أو: بمجرد استعداد النفوس للمعارف العقلية وارتياضها لمخالفة العوائد؟

وإذا تأمّل اللبيب الفرق بين هٰذه الأقوال وبين ما دلّ عليه صريح الوحي علم أنّ الله - تعالى - إنما خلق الخلقَ لعبادته الجامعة لكمال محبته مع الخضوع له والإنقياد لأمره.

=

(١) غير موجودة في المخطوط [أ] و[ب].

(٢) العبارة في المخطوط [أ] و[ب]: **وجدت لأجلها الخلائق كلها**.

(٣) في ((الأصل)): هملا وهو تحريف تصحيحه من الدرر المنثور (٣٦٣/٨). [ع]، في المخطوط [أ] و[ب] وأيضا المدارج: **مهملا**، وهو صواب.

(٤) زيادة من المخطوط [ب].

(٥) سقطت من المخطوط [ب].

(٦) في المخطوط [أ] و[ب]: **امتثالهما**. وبذلك يكون المعنى أن العبادة هي امتثال الأمر والنهي.

(٧) غير موجود في المخطوط [أ].

(٨) جاء في حاشية المخطوط [أ]: قف على إثبات الحكمة والتعليل.

(٩) في النسخة [سج]: خلقتا.

(١٠) في المخطوط [أ] و[ب]: **بمجرد**، وكذلك في المدارج.

فأصل العبادة [محبة][١] الله؛ بل إفراده تعالى بالمحبة[٢]، فلا يحب معه سواه، وإنما [يحب][٣] ما يحبه لأجله وفيه، كما [يحب][٤] أنبياءَه ورسله وملائكته؛ لأن محبتهم من تمام محبته، وليست كمحبة من اتخذ من دونه أندادا يحبهم كحبه.

وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها، فهي إنما تتحقق باتباع أمره واجتناب نهيه، فعند اتّباع الأمر والنهي [تتبين][٥] حقيقة العبودية والمحبة.

ولهذا جعل – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– اتباع[٦] رسوله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – علماً عليها وشاهداً لها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[آل عمران:٣١]، فجعل اتباع رسوله مشروطاً بمحبتهم لله – تعالى – وشرطاً لمحبة الله [لهم][٧]، ووجود المشروط بدون تحقق شرطه ممتنع، فَعُلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة للرسول.

ولا يكفي ذلك حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

ومتى كان عنده [شيء أحب إليه][٨] منهما فهو الإشراك الذي لا يغفره [الله][٩]. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[التوبة:٢٤].

وكلُّ مَن قدّم قولَ غير الله على قول الله، أو حكم به، أو حاكم إليه، فليس ممن أحبَّه.

---

(١) في المخطوط [ب]: **محبته**.

(٢) في النسخة [ر]: **المحبة**.

(٣) في المخطوط [ب]: **نحب**.

(٤) في المخطوط [ب]: **نحب**.

(٥) في المخطوط [أ]: **يتبين**.

(٦) في النسخة [سج]: **أتباع**. جاء في حاشية المخطوط [أ]: **قف على أن من أوّل آيات الصفات وأحاديثها فإنا هي لتحكيمه ما يظنه عقلا وأنه ليس ممن أحب الله تَعَالىٰ**.

(٧) غير موجودة في النسخة [ر].

(٨) ساقطة من المخطوط [ب].

(٩) غير موجود في المخطوط [أ].

لكن قد يشتبه الأمر[١] على مَن يُقدّم قولَ أحد أو حكمه أو طاعته على قوله ظنّاً منه أنه لا يأمر ولا يحكم ولا يقول إلا ما [قال][٢] الرسول- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فيطيعه، ويحاكم إليه، إليه، ويتلقى أقواله كذلك، فهٰذا معذور إذا لَم يقدر على غير ذلك.

[الشرح]

هٰذا الصنف الرابع الذي تكلم عنه المصنف هو نظير كلامه في الصنف الرابع في المسألة السابقة، إلا أنه يتكلم هنا من زاوية أن هٰذا الصّنف الذي تقدم لنا هو الذي يؤدي جميع أنواع العبادة في شتى المجالات، وهنا يريد أن يبين أن هٰذا الصنف هو الذي يؤمن بالقضاء والقدر، ويؤمن بأن هٰذه العبادة إنما شُرعت لغاية عظيمة وهي عبادة الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ المترتب عليها الثواب، وتركها يترتب عليه العقاب، فكل ذلك مما يجب إعتقاده حتى يرد على الجبرية والقدرية والفلاسفة والصوفية، ولا يمكن مفارقة مذهبهم إلا بتصور هٰذا الأمر، وهو أن يعتقد المسلم أن العبادة واجبة عليه وأنها معللة وأن لها حكمة وهي طاعة الله أولا ثم يترتب عليها الثواب ثانيا، وأن هٰذا الثواب إنما يترتب عليه تفضل من الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- وإحسان منه، وأن طريق الوصول إلى هٰذه الحال إنما هو اتباع النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قولا وعملا واعتقادا ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ﴾[آل عمران: ٣١]، ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)﴾[التوبة: ٢٤]، والمقصود أن يفهم المسلم العبادة على هٰذا النحو؛ وهي أنها معللة وعلتها ليست كعلة الفلاسفة ولا كعلة القدريّة ولا أنها غير معللة كقول الجبرية، وإنما هي معللة:

أولا بأمر الله وأمر رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثانيا معللة بوجود ترتب الثواب على الفعل والعقاب على الترك.

فتقتضي من العبد أن يبحث عن محاب الله، فيبحث عن كل ما يحبه الله ويرضاه فيفعله ويتقرب به إلى رب العزة والجلال وهٰذا لا يتأتى إلا بالعلم والتعلم والتفقه في دين الله ﴿قُلْ هٰذه سَبِيلِي أَدْعُو

---

(١) جاء في حاشية المخطوط [أ]: **قف على أن التقليد موجب الرضى بالتأويل والإعراض عن الكتاب والسنة اكتفاء بقول من قلده.**

(٢) في المخطوط [أ] و[ب]: **قاله.**

﴿إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[يوسف: ١٠٨]، لا يمكن أن يتوصل الإنسان إلى فهم هٰذه العبادة وفهم ما يترتب عليها إلا بعبادة الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– بعد العلم والتّعلم والتفقه في الدين على الأقل تعلّم ما به يعرف المسلم كيف يؤدي عبادته عبادة صحيحة بلا إفراط ولا تفريط.

[المتن]

وكلُّ مَن قدّم قولَ غير الله على قول الله، أو حكم به، أو حاكم إليه، فليس ممن أحبَّه.

لكن قد يشتبه الأمر على مَن يقدّم قولَ أحد أو حكمه أو طاعته على قوله ظناً منه أنه لا يأمر ولا يحكم ولا يقول إلا ما قال الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيطيعه، ويحاكم إليه، ويتلقى أقواله كذلك، فهٰذا معذورٌ إذا لَم يقدر على غير ذلك.

[الشرح]

يشير بهٰذا أولا إلى أن المسلم لا يقدِّم على أمر الله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ– وأمر رسوله شيء؛ بل ليست له الخيرة كما قال الله– تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ–: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[الأحزاب:٣٦]، فإذا سمع قال الله وقال رسوله وجب عليه أن يقدّم ذلك على هوى نفسه وعلى تقاليده وعلى عاداته وعلى طاعة كل أحد وطاعة الله مقدمة على كل شيء، هٰذا لمن فهم هٰذا الأمر ووعاه، و لم يختلط عليه الأمر؛ لكن قد يُعذر الشخص ولاسيما المقلدون في المذاهب الفقهية إذا غلب على ظنه في أمر أو في مسألة من المسائل فأخطأ لتقديم أمر الفقيه أو الشيخ أو صاحب المذهب على ما جاء في الكتاب والسنة، وهٰذا سيأتي له زيادة بيان في قضية الحكم؛ لكن أشار له المصنف هنا فنبينه.

فالمقصود هنا إذا ظن أو غلب على ظنه أن ما أمر به هٰذا الفقيه أو ما قرره هٰذا العالم أو هٰذا الشيخ أنه يتّفق مع أمر الله أو أمر رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وغلب على ظنه ذلك، و لم يكن في وسعه أن يفعل غير ذلك وقد بذل جهده واستفرغ وسعه، فلعله يكون معذورا عند الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– ؛ لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها.

[المتن]

وأما إذا قدِرَ على الوصول[١] إلى الرسول- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وعرف أن غير مَن اتبعه أولى به مطلقاً أو في بعض الأمور كمسألة معينة، ولَم يلتفت إلى قول الرسول [صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ][٢]، ولا إلى مَن هو أولى به، فهٰذا يُخاف عليه، وكل ما يتعلل به من عدم العلم، أو عدم الفهم، أو عدم إعطاء آلة الفقه في الدين، أو الاحتجاج بالأشباه والنظائر، أو بأن ذلك المتقدم كان أعلم مني بمراده- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فهي كلها [تعللات][٣] لا تفيد.

هٰذا مع الإقرار بجواز الخطأ على غير المعصوم، إلا أن ينازع في هٰذه القاعدة، فتسقط مكالمته، وهٰذا هو داخل تحت الوعيد، فإن استحل مع ذلك [ثلبَ][٤] مَن خالفه، وقرض عرضه ودينه [بلسانه][٥]، [و][٦]انتقل من هٰذا إلى عقوبته، أو السعي في أذاه، فهو من الظلمة المعتدين ونواب المفسدين.

[الشرح]

هنا ثلاث نقاط أشار إليها المصنف:

النقطة الأولى تقدمت وهو إذا غلب على ظنه أن ما أمر به هٰذا الفقيه، والشيخ هنا انتقل إلى الكلام على مقلد الفقهاء، فإذا غلب على ظنه -كما قلنا- أن هٰذا هو أمر الله وأمر رسوله فهو معذور.

لكن إذا لم يكلف نفسه البحث والتحري مع قدرته على ذلك، فإنه يُخاف عليه خوفا شديدا، مجرد أنه أخذ الأقوال مُسلمة، ويقول: قد يكون فلان أعلم مني وفلان أعلم، وأدرى بهٰذه المسألة وإن كان يعلم أو عرف أنها تخالف الكتاب والسنة؛ لكن زعم أن شيخه أعلم بالدين أو باستنباط هٰذه

---

(١) جاء في حاشية المخطوط [أ]: **قف على ذم من يقول: فلان أعلم مني بالتأويل ولا قدرة لي على فهم الكتاب والسنة فهٰذا من غرور الشيطان أعاذنا الله منه.**

(٢) غير موجودة في المخطوط [أ].

(٣) غير موجودة في النسخة [سج].

(٤) في المخطوط [ب]: **سبّ**.

(٥) في النسخة [ر]: **بأسنانه**.

(٦) زيادة من المخطوط [أ].

المسألة منه، طيب إذا كان أعلم ابحث عن غيره إذا كنت تظن أنه أعلم، وأنت تعلم أن هٰذا مخالف للنصوص فابحث عن غيره.

أو يظن؛ يُخيل إليه أنه ليست لديه آلة الإجتهاد والتحصيل وأَخْذِ الحق بدليله وأنه أقل من أن يعرف ذلك ويصل إلى ذلك، فمثل هٰذا كله يُخاف عليه.

وأما إذا كان يعني علم أنه ظالم فغلّب هواه باتّباع هٰذا الظالم على ظلمه مع إقراره بالحق، فلا شك أنه عاص والأمر في حقه خطير جدا، إلا أن يعود إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ.

وسيأتي له مزيد بيان إن شاء الله.

[المتن]

واعلم أنَّ [العبادة][١] أربع قواعد، وهي:

[التحقيق][٢] بما يحب الله ورسوله ويرضاه، [وقيام ذلك بالقلب واللسان والجوارح].[٣]

فالعبودية اسم جامع لهٰذه المراتب الأربع، فأصحاب العبادة حقًّا هم أصحابها.

فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبرالله – تعالى – عن نفسه، وأخبر رسوله عن ربه من أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه وما أشبه ذلك.

وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك، والدعاء إليه، والذبّ عنه، وتبيين بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره – تعالى –، وتبليغ أمره.

وعمل القلب: [كالمحبة][٤] له، والتوكّل عليه، والإنابة، والخوف، والرّجاء، والإخلاص، والصبر على أوامره ونواهيه، وإقراره، والرضا به وله وعنه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والإخبات إليه، والطمأنينة [به][٥]، ونحو ذلك من أعمال [القلوب][٦] التي فرضُها آكد من فرض أعمال الجوارح، ومستحبُّها إلى الله – تعالى – أحبُّ من مستحبِّ أعمال الجوارح.

---

(١) في المخطوط [ب]: للعبادة.

(٢) في المخطوط [أ] و[ب] والمدارج والنسخة [ر]: **التحقق**. وفي هٰذا المعنى جاء الباب الذي في كتاب التوحيد لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب: من **حقّق** التوحيد دخل الجنة بغير حساب.

(٣) عبارة المدارج: **من قول اللسان والقلب وعمل القلب والجوارح.**

(٤) ساقطة من المخطوط [ب].

(٥) زيادة من المخطوط [ب] والنسخة [ر].

(٦) في المخطوط [ب]: القلب.

وأما أعمال الجوارح: فكالصلاة، والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة[١] والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك.

فقول العبد في [صلواته][٢]: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ التزام أحكام هٰذه الأربعة وإقرار بها.

وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ طلب الإعانة عليها والتّوفيق لها.

وقوله: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ (٦)﴾[الفاتحة:٠٦]، متضمِّن للأمرين[٣] على التفصيل، وإلهام القيام بهما، وسلوك طريق السالكين إلى الله [تعالى][٤].

والله الموافق بمنه وكرمه، والحمد لله وحده، وصلى اللهُ على مَن لا نبيَّ بعدَه وآله وصحبه ووارثيه وحزبه.

[تم الكتاب والحمد لله أولا وآخرا.][٥]

[الشرح]

ختم المصنف رحمه الله تعالى هٰذا الكتاب ببيان ما يجب على العبد تجاه ما أوجب الله عليه من المقامات الأربعة وهي: أعمال القلوب وأقوالها وأقوال اللسان وأعمال الجوارح.

فإذا توفرت هٰذه الأمور الأربعة فقد تمت العبادة المبنية على محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ وخوفه وتعظيمه، والمبنية على أمرين: إخلاص العمل لله وحده وتجريد المتابعة لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

لعل ما ذكره المصنف قبل قليل من الكلام على ما أمر الله به وما أمر به رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتطلّب منا أن نتكلم، وموقف الناس من هٰذا الأمر يتطلب أن نتكلم بإيجاز على مسألة

---

(١) في النسخة [ر]: الجماعة. وهو خطأ.

(٢) في المخطوط [أ] والنسخة [ر]: صلاته.

(٣) في النسخة [ر]: الأمرين.

(٤) غير موجودة في المخطوط [أ].

(٥) غير موجودة في المخطوط [أ].

وجاء في آخر المخطوط [أ] ما نصه: قال مؤلفه إنه صححه جهد الطاقة ومبلغ القرة جامعه ومؤلفه أحمد بن علي المقريزي في شعبان سنة إحدى وأربعين وثمانمائة وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

علّقها لنفسه بيده الفانية الفقير إلى الله تَعَالىٰ محمد بن محمد الشاذلي الطولوني عفى عنهم آمين.

فرغت منه في صبيحة يوم الخميس عشرين يوم من ربيع الأول سنة (١٠٥٧هـ).

طالما وقعت وطرحت لاسيما في هٰذه السنوات التي اختلطت فيها الأوراق في هٰذه المسألة لدى كثير من الناس ألا وهي مسألة الحكم بما أنزل الله، وما يضادها من الحكم بغير ما أنزل الله، فما هو تفصيل القول في هٰذه المسألة؟

الناس هنا بين إفراط وتفريط.

فهناك من أفرط وجعل مجرد الحكم بغير ما أنزل الله كفر ينقل عن الملة دون أن يفصِّل تفصيلا يتمشى مع النصوص الشرعية، فيكفر المسلمين جُزافا ولا يستثني أحدا، حتى ولو صدر الحكم منه بغير ما أنزل الله في مسألة واحدة أو في مسائل، ولا يفرق حينئذ بين المستحِلِّ وغير المستحِلِّ وبين العاصي من الكافر وبين المتعمّد من المخطئ من غير ذلك، من الجاهل ونحو ذلك، فتختلط عليه الأوراق، فأصدروا بذلك الأحكام الجائرة على المسلمين؛ بل وكفروا كثيرا من المسلمين، ولم يستثنوا أحدا، بعضهم لم يستثن أحدا إلا من كان على منهجه ومذهبه لاسيما بعض التكفيريين الذين وصلوا إلى حد منهج الخوارج الذين تعلقوا بهٰذه الكلمة وهي لا حكم إلا لله بينما هم يخالفون أحكام الله في تكفيرهم الصحابة والمسلمين الذين جاؤوا بعدهم.

على النقيض من هؤلاء المفرِّطون وهم المتطورون الذين يرون أن أحكام الله لم تعد صالحة في هٰذا العصر، وأنه لابد من التطوير، وأنه لابد من التغيير، بحسب ما تقتضيه الأحوال، ودعا إلى تطوير الشريعة بما يتمشى مع العصر على حد زعمه، وادعى أنه لو كان النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حيا لغيّر وبدل؛ بل صرح بذلك رجل يقال له: الترابي في كثير من كتبه، وقال: إنه يجب إعادة النظر في كثير من أحكام الشرع، وقال: إن النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لم يبين كل أحكام الشريعة، وأنا لسنا متعَبَّدين بفهم الصحابة ولا السلف في فهم القرآن.. وقال ما قال في كتبه التي فتن بها الناس، وهو رجل متحذلق متفلسف يجيد هٰذه الفلسفة، ومع هٰذا كثير من بعض شبابنا يمجده ويثني عليه ويمدحه في الوقت الذي ينال فيه من علماء المسلمين في هٰذه البلاد.

هؤلاء هم المفرِطون والمفرِّطون الذين يعممون الأحكام فيكفرون المسلمين، والطائفة الأخرى التطويرية التي ترى التنازل عن بعض أحكام الدين من أجل أن يرضوا اليهود والنصارى ﴿**وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ**﴾[البقرة:١٢٠].

وأما ما عليه أهل السنة والجماعة في هٰذا الباب أن في المسألة تفصيلا:

الله – تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ – قال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤)﴾[المائدة: ٤٤]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥)﴾[المائدة:٤٥]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧)﴾[المائدة:٤٧]، وثبت عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق. وفصّل السلف الصالح هٰذه المسألة في كتب التفسير وفي كتب العقائد وفي كتب التوحيد.

وخلاصة القول أنه يمكن أن نقسم الناس إلى ما يلي:

أولا رجل عرف الحق بدليله فحكم به وأصاب الحكم، فهٰذا رجل مأجور؛ بل إن له أجرين لقول النبي– صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : «**إن الحاكم إذا اجتهد فأصاب فله أجران وإذا اجتهد وأخطأ فله أجر واحد**».[1]

ثانيا رجل اجتهد في طلب الحق واستخدم جميع الآلات الفقهية والاجتهادية من أصولية وحديثية ونحو ذلك ودرس المسألة من جميع جوانبها ليصل إلى حكم الله فيها فأخطأ، فهٰذا مأجور أيضا له أجر واحد، وقد سمعنا الحديث في ذلك.

ثالثا رجل جاهل يريد حكم الله ويرغبه؛ ولكنه لم يكلف نفسه البحث والتحري؛ بل حكم بمجرد الاجتهاد دون علم، حكم بجهله دون أن يكلف نفسه البحث عن الحق على ضوء الكتاب والسنة، فحكم بالجهل وهو يريد الحق؛ لكنه حكم بالجهل ظنا منه أن ذلك يكفيه، فهٰذا آثم وعاص.

رابعا رجل عرف حكم الله ولم يحكم به تحت غلبة الهوى أو الظرف الذي يعيشه أو المجاملة أو المداهنة.. أو نحو ذلك، غلبه هواه فحكم بغير ما أنزل الله فأصاب الحكم، فهو أيضا آثم وعاص، سواء أصاب أو أخطأ، حتى ولو أصاب، هو آثم وعاص حتى ولو أصاب.

انتبهوا لهٰذه القيود رجل عرف الحق واعترف به؛ لكنه حكم بغير ما أنزل الله تحت غلبة الهوى أو الشهوة أو المصلحة.. مع اعترافه بأنه مذنب وأنه عاص ويشعر بذنبه، فحكم بالقوانين أو بغيرها، فهٰذا ما حكمه؟ أنه عاصٍ ولا يخرج من الإسلام؛ بل يعتبر مسلما عاصيا، مؤمنا عاصيا، مؤمنا بإيمانه

---

(١) **البخاري**: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، حديث رقم: (٧٣٥٢) .
مسلم: كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، حديث رقم: (١٧١٦) .

فاسق بكبيرته، شأنه شأن من ارتكب شيئا من المحظورات والمحرمات مع اعترافه بذنبه وهو موحد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ.

هٰذا هو الذي يجب أن ننتبه له وهو الذي حصل فيه الخلط.

رجل قاض -سواء كان قاض أو غيره- حكم بغير ما أنزل الله تحت ضغط الهوى أو غلبة الشهوة أو المصلحة أو أعطي شيئا من المال جعله يعدل عن حكم الله إلى حكم غيره مع اعترافه بأنه عاص ومذنب ومخالف للشرع وشعوره بالذنب، فهٰذا مسلم عاص ولا يجوز أن يُخرج من الإسلام ولو حكم بغير ما أنزل الله بهٰذه القيود التي ذكرت.

خامسا رجل حكم بغير ما أنزل الله تحت ظرف أو ضغط أو مكره، وهٰذا كان ينبغي أن يكون الثالث أو الرابع ينبغي أن يكون الرابع.

رجل أُجبر على أن يحكم بغير ما أنزل الله أُجبر إجبارا وأُكره إكراها، فهٰذا معذور إلا إذا كان فيه إتلاف نفس أو نحو ذلك قتل أو تعدي على الحرمات.. فهٰذا قد يأثم إذا لم يمتنع من ذلك؛ لكن لا يبلغ درجة الكفر؛ بل هو يعصي إن طبق أو إن فعل شيئا فيه إتلاف نفس كقتل أو نحو ذلك، فهو يأثم بهٰذا، فعليه أن يرفض ولو أدى ذلك إلى أن يناله ما يناله من الأذى؛ لكن مع ذلك قد يعذر إذا كان الأمر دون الإضرار أو القتل للآخرين.. أو نحو ذلك، فمثل هٰذا قد يعذر في حالة ولا يعذر في حالة أخرى.

الأمر السادس رجل علم بحكم الله وعلم أنه الحق؛ لكن فضل حكم غير الله على حكم الله، وقال: إن تطبيق القانون الوضعي أفضل من حكم الله أو مساوٍ لحكم الله، سواء قال: إنه أفضل أو قال: إنه مساوٍ لحكم الله؛ يعني سواء سواه بحكم الله واستحلّ الحكم بغير ما أنزل الله استحلالا بأن قال: إن حكم الله لم يعد صالحا للتطبيق أو أنه لا فرق بين أن نطبق حكم الله أو حكم غير الله وهٰذا هو الذي يكفر ويخرج من ملة الإسلام.

لكن انتبهوا إلى القيود التي قلتها وهي:

أنه يعلم أن هٰذا حكم الله وخالفه.

ثانيا أن يعدل عن حكم الله إلى غيره.

ثالثا أن عدوله ناتج عن تفضيلٍ لحكم لغير الله على حكم الله، أو اعتقاد التسوية بين حكم الله وحكم غير الله.

ففي كلا الحالين من كان هٰذا شأنه يكفر ويمرق من الدين؛ لأنه والحال هٰذه تنكر لحكم الله ورضي بحكم الطاغوت؛ بل رآه أفضل أو مساو لحكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ.

هٰذا هو التفصيل الذي ينبغي أن يفهم في مسألة الحكم بغير ما أنزل الله حتى لا نتسرع في الحكم على المسلمين بالكفر والتكفير، حتى بالنسبة لبعض البلاد التي لا تُحكم شرع الله لا يجوز أن نتسرع في الحكم عليهم، ولا في الحكم على الحكام في تلك البلاد، ما لم تقم عندنا حجة عليهم من خلال كلامهم أو تصريحاتهم بأن حكم غير الله أفضل من حكم الله أو أنها مساوية لحكم الله، فمتى صرحوا بهٰذا فهم كفرة بعد أن علموا بحكم الله، وعلموا أنه الحق؛ ولكن قالوا: إنها لا تصلح للتطبيق أو أنها قد مضى وقتها أو ولى وقتها أو نحو ذلك بعد علمهم بحكم الله.

فهٰذا التفصيل أرجو أن يفهم وأن يبلغ للشباب ولطلاب العلم.

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

۞۞۞۞

الفهرس

بين يديّ الكتاب ٢
صور من المخطوطات ٤
ترجمة المصنف ٦
المجلس الأول ٨
مقدمة الشارح ٨
نبذة مفيدة في بيان صفاء العقيدة ١١
لباب التوحيد وجوهره ٢٥
المجلس الثاني ٣٥
أنواع الشرك الواقع في الأمم ٤٨
صرف العبادة إلى غير الله شرك أكبر ٥١
كثرة الأدلة على توحيده تعالى ٥٢
الشرك في الربوبية ٥٤
شرك القدرية ٥٦
النهي عن اتخاذ القبور مساجد ٥٨
أقسام الناس في زيارة القبور ٦١
النهي عن السجود لغير الله ٦٢
المجلس الثالث ٦٧
الشرك في الألفاظ ٦٧
الشرك في الإرادة والنية ٧٤
بطلان الوسائط والشفعاء في التقرب إلى الله ٧٥
أنواع الشرك ٧٧
شرك التمثيل ٨١
حقيقة الشرك ٨٢
صرف العبادات إلى غير الله من التشبيه له بخلقه ٨٣
تحريم التشبه بالله في أفعاله وأسمائه ٨٧
سوء ظن المعتقدين في الوسائط ٩٠
عدم حاجته تعالى للوسائط ٩١
أصل ضلال اهل البدع والزيغ ٩٣
المجلس الرابع ٩٩
عبادة غير الله عبادة للشيطان ٩٩
مراتب الناس في عبادة الله ١٠١

حقيقة الاستعانة ١٠٨
المتابعة والإخلاص شرطان لقبول الأعمال ١١١
من قال إن الزهد أفضل العبادات ١٢٢
المجلس الخامس ١٣٣
أقسام الناس في منفعة العباد ١٣٤
رأي القدرية في الحكة والتعليل ١٣٦
تناقض الجبرية والقدرية ١٣٧
الأعمال سبب لدخول الجنة ١٣٨
رأي الفلاسفة والمتصوفة في العبادات ١٤٠
قول أهل الحق في العبادة ١٤٣
محبة الله أصل العبادة ١٤٥
تقديمك الآراء على نصوص الوحي المنافي للمحبة ١٤٦
قواعد العبادة ١٤٩
الفهرس ١٥٥